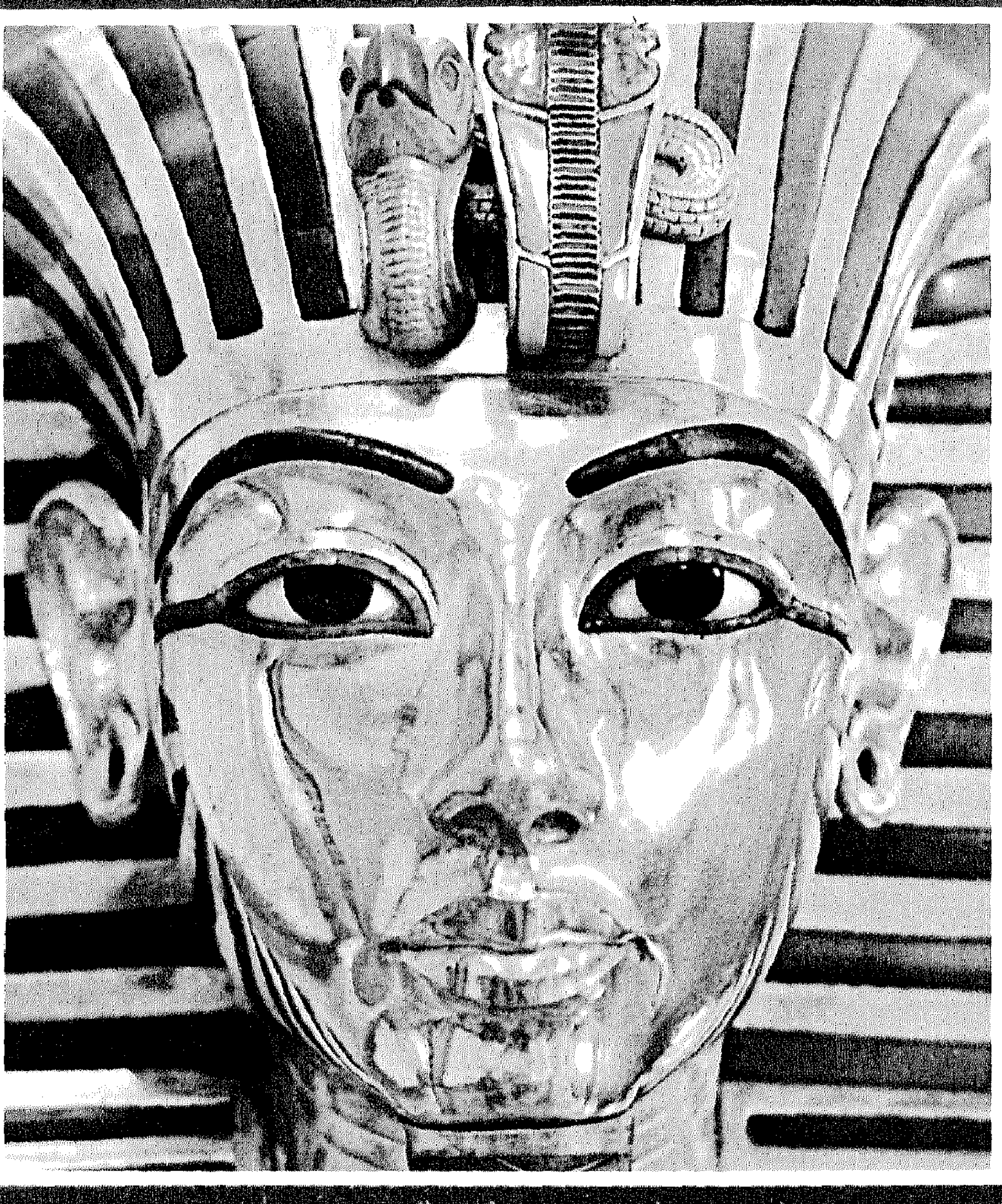
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الرابعة • العدد التاسع والثلاثون • كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣م • الموافق ربيع الاول ١٤٠٢ هـ



قناع توت عنخ امون الذهبي

الحياة الثقافية

مجلة ثقافية جامعة تصدرها وزارة الشؤون الثقافية - بتونس

من أهدافها :

- خدمة القارئ العربي في كل مكان
- المساهمة في تطوير البحث والإنتاج والنقد
- تقديم صورة صادقة عن الحركة الثقافية والفكرية في تونس .

العنوان : وزارة الشؤون الثقافية - القصبة - تونس

الهاتف : 263.819

الاشتراكات : عن ستة أعداد : 2,100 دينار تونسي أو ما يعادلها.

تاريخ العرب والعالم

العدد ٣٩ ـ كانون الثاني ١٩٨٢

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٥ ل.ل.	تونس	١ دينار
العراق	٨٠٠ فلس	الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٨ ريال	الامارات	٨ درهم
الأردن	٥٠٠ فلس	قطر	٨ ريال
البحرين	٨٠٠ فلس	عدن	٨ شلنات
مسقط	٨٠٠ بيزة	المغرب	٦ درهم
فرنسا	١٠ فرنكات	بريطانيا	جنيه استرليني
سوريا	٦ ل.س.	اميركا	٣ دولارات

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٧٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

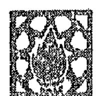
EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 4. No. 39, JAN 1982

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



الحلقة الثانية

د. عمر عبد السلام تدمري

غزاة بحر الشام وأمراؤه في العصر الأموي

بعد وفاة معاوية وقفول الجُنْد المرابطين في جزيرتي رودس وقبرس سنة ٦٠ هـ. ٦٨٠ م.، قام «يزيد بن عبد الملك» بوضع: «ثابت بن معبد المحاربي الداراني» من أهل داريًّا أميراً على الساحل، مع أخيه «عطيّة بن معبد»، وهو تابعيٌّ نزل بيروت وروى عنه الامام الأوزاعي. وقد ولي الأخوان إمرة الساحل البحري مدّة أربعين سنة حتى أول القرن الثاني الهجري سنة ١٠٠ هـ/٧١٩ م[١].

في عهد عبد الملك:

وعادت الحملات والغزوات البحرية إلى جدتها السابقة بين المسلمين والبيزنطيين في عهد «عبد الملك بن مروان» (٦٥ ـ ٨٦هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥م) وفي عهد خلفاء بني أمية من بعده، وذكرت المصادر التاريخية أن بعض السفن البيزنطية وصلت في سنة ٦٩هـ/ ٦٨٩م إلى قيسارية على ساحل فلسطين فشعثوها وهدموا مسجدها، كما خربوا مدينة عسقلان، وأخرجوا أهلها منها. وفي الوقت نفسه خرج أسطول بيزنطي بقيادة بطريق يدعى «قلقط» ـ حسب ابن عساكر الدمشقي ـ أو «لاوين قلنط» ـ حسب السعودي ـ قاصداً بحر الشام، فارسى عند وجه الحجر بين طرابلس وجبيل، ونزل الجيش إلى الساحل ومنه صعد الى جبل لبنان وراح يقطع الطرق على المسلمين في المرتفعات ويهدد الطرق الساحلية والداخلية وبات يسيطر على مشارف الطرق المؤدية إلى دمشق. هذا في الوقت الذي كان فيه عبد الملك يواجه المصاعب والاضطرابات الداخلية، حيث اضطر أن يهادن البيزنطيين ويقتدي بما فعل معاوية من قبل، ولكنه لم يركن إلى ذلك فحسب بل أوصى عامله على طرابلس أن يترصد قائد الأسطول البيزنطي حتى لا يخرق الهدنة، فاحتال عامل طرابلس «سحيم بن المهاجر» الرومي على البطريق حتى قتله وهزم القوة التي معه، فأتى من بقي منهم الى سفنهم عند وجه الحجر وأبحروا هاربين الى بلادهم[٢].

وانصرف عبد الملك بعد ذلك الى تحصين السواحل وتقوية المدن عن طريق زيادة سكانها،

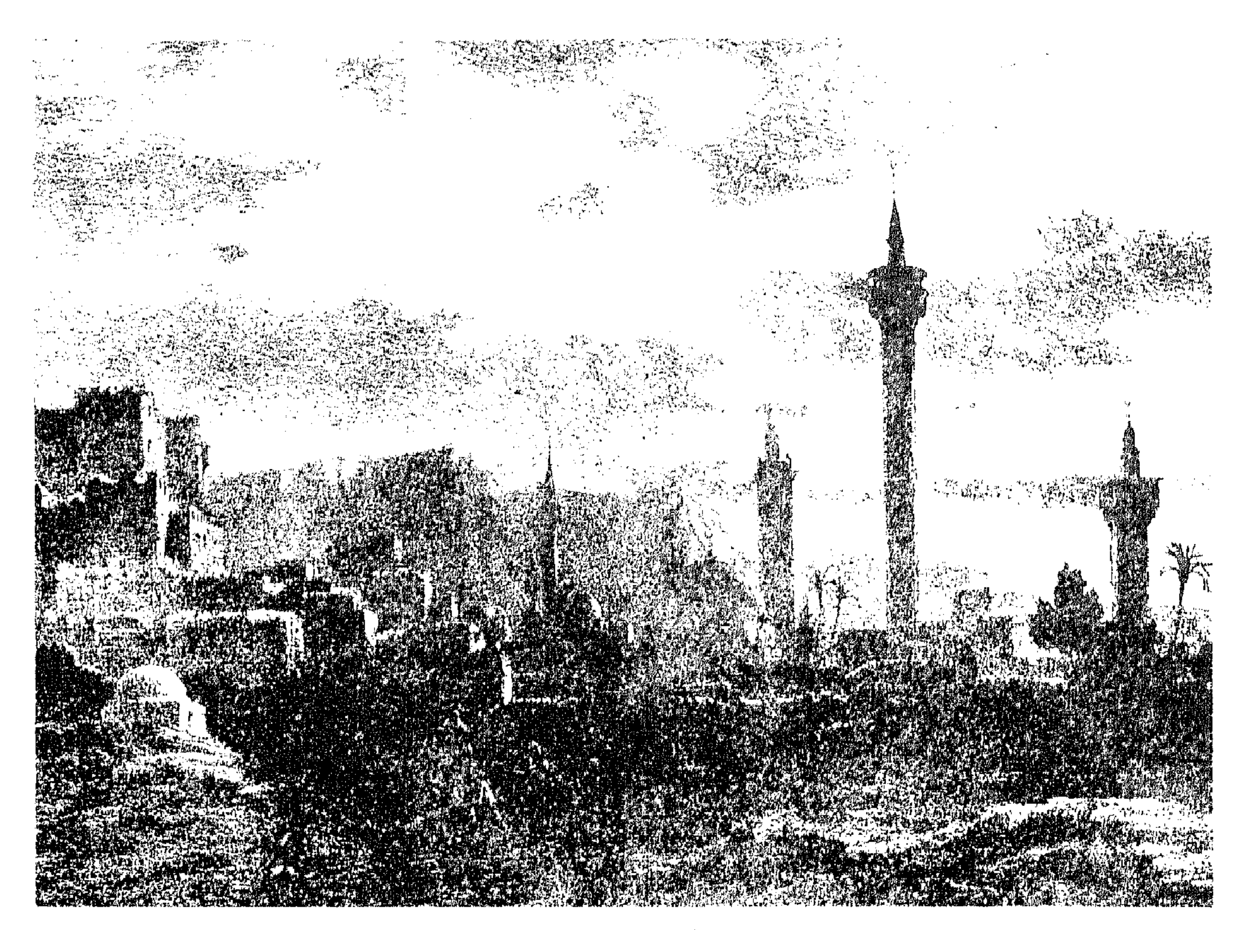
فقام ببناء حصن طرابلس الذي في الميناء من جديد وحصنه، وشملت عنايته حصون كل من: صور وعكا وقد جدّدهما بعد خرابهما، كما حصّن قيسارية وعسقلان اللتين خربهما البيزنطيون قبل ذلك. وكان استردّ قيسارية في سنة ٧١هـ/٦٩١م. وجدّد عمارة مدينة طرابلس وحصّنها وأسكنها المسلمين «فصارت آمنة عامرة مطمئنة»، ووضع لها نظاماً حربيّاً خاصاً، اذ كان يرسل اليها جنداً من دمشق فيرابطون فيها في فصل الصيف، أما في الشتاء فكان يوجّه اليها جنداً من بعلبك[٣].

في عهد الوليد بن عبد الملك:

وفي عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ/٧٠٥ ـ ٧١٥م). أصبح «سُحَيم بن المهاجر الرومي» أميراً للبحر وقائداً للأسطول في طرابلس بعد أن كان عاملاً على المدينة في عهد عبد الملك. كما تولى غزو البحر من ساحل الشام في خلافة الوليد أميران من الموالي الفرس من أهل ساحل لبنان، هما: «أبو خراسان» و«سفيان الفارسي»[٤]. وسير الوليد الأسطول الى جزيرة إقريطش ففتح بعض بلادها.

وفي أيام الوليد توفي «أبو صفوان عبد الله بن بُسرْ المازني» بين سنتي: ٨٧ ـ ٨٨هـ وهو آخر من مات بالشام من الصحابة، وكان ركب من عكا لغزو قبرس في أيام معاوية[٥].

وحول سنة ٨٩هـ/٧٠٧م. تحرّك الجراجمة والروم على جبهتين في البر والبحر، حيث أتى إلى الجراجمة قوم من الروم من أهل الاسكندرونة وروبسس، وقاموا بغارات على أطراف الدولة الأموية في الشمال، فتصدى لهم «مسلمة بن عبد الملك»[٦]، وفي البحر أتى الروم بأسطول ضخم إلى ساحل لبنان فأرسوا عند وجه الحجر حيث رابطت هناك بعض قطعه، وقامت القطع الأخرى بمهاجمة ثغر طرابلس وضربت عليه الحصار من ثلاث جهات، وجاء توقيت هذه الغزوة في الوقت الذي كان فيه أسطول طرابلس يغزو في البحر بعيداً عن الساحل، ولم يكن في المدينة من القوات الصالحة للدفاع عنها سوى نحو مائة وخمسين مقاتلاً، ولحسن الحظ فقد كان «سحيم بن المهاجر» أمير البحر موجوداً فيها لم يخرج مع الغزاة، وكان معروفاً بدهائه وذكائه، فلجأ الى خطة تمويه بارعة خدع بها البيزنطيين وجعلهم يفكون حصارهم البحري المضروب حو الثغر ويستدرجهم الى النزول الى البر بانتظار وصول النجدات العربية من الدمن القريبة، وقد بدأ خطته بأن نادي بأن الصلاة جامعة، فاجتمع الناس في المسجد، فقام فيهم خطيباً وحثّهم على الصبر والجلاد والثبات أمام العدو، ثم أمر باجراء احصاء لعدد الرجال فبلغوا (١٥٠) مقاتلاً، سوى أهل السوق، والضعاف من الناس. ثم أمر بقياس الشرفات الواقعة بين الأبراج، ورتب عدداً معيناً من المقاتلين بين الشرفات والأبراج وجماعة يقومون عند باب الميناء الشرقي المطلّ على البرّ، وجماعة عند باب البحر في جهة الغرب. وأمر باحضار أنواع من الثياب بألوان مختلفة، وقام بتوزيع لون واحد منها على المقاتلين والأهالي وشحن بهم أحد الأبراج ووزعهم على شرفة السور التابع له وأمرهم أن يظهروا أنفسهم للعدو جميعاً فيتهيب كثرتهم، وبعد قليل أنزلهم وأبقى منهم عدداً قليلاً مرابطين في البرج، وألبس الناس والمقاتلين ثياباً ذات لون آخر فصعدوا البرج الثاني والسور التابع له وأظهروا أنفسهم للعدّو، ولبثوا فترة ثم نزلوا، وبقي في البرج عدد قليل من المقاتلين، وهكذا فعل في بقية الأبراج والشرفات والأسوار المطلة على البحر، ولقد اعتقد البيزنطيون فعلاً أن المدينة مملوءة بالمقاتلين والمدافعين، وأنهم اذا استمروا على حصارهم في البحر فلن يحققوا أهدافهم، ولذا نزلوا الى البر وعملوا على محاصرتها من الشرق. وفي هذه الأثناء وصلت النجدة من بيروت بقيادة واليها وأمير الساحل ـ كما يسميه ابن عساكر ـ «أبي العلاء عبد الرحمن بن سليم الكلبي»[٧]، كما وصلت النجدة من حمص بقيادة «الصقر بن صفوان»[٨] على رأس ستة آلاف من أهلها. وتمكنت طليعة الجند القادمة من بيروت بقيادة «سعيد بن عمرو بن الأسود الحرشي»[٩] أن تشق طريقها الى داخل المدينة بعد أن نجح الطرابلسيون في أسر قائد الحملة البيزنطية



طرابلس القديمة

ويدعى «دواميس».

ولما رأى البيزنطيون أنهم باتوا محاصرين بدورهم من جند حمص في الشمال، وجند بيروت في الجنوب، سقط في أيديهم، خاصة وأنهم فقدوا قائدهم، فلجأوا الى مراسلة المسلمين وجنحوا الى السلم ورفع الحصار، ودخلوا في مفاوضات مع والي بيروت وأمير الساحل «عبد الرحمن الكلبي»، فأخذ عليهم العهد أن يرفعوا الحصار والّا يعودوا في غزوة أو حملة عدوانية على ساحل الشام طوال ذلك العام، مقابل اطلاق سراح قائدهم «دواميس»(١٠). وهكذا نجت طرابلس من الحملة البيزنطية الضخمة بفضل دهاء «سحيم بن المهاجر»، ثم بقدوم النجدات من المدن الاسلامية براً وبحراً.

ولكن البيزنطيين نجحوا في السنة التالية (٩٠هـ/٧٠٩م). بإنزال الهزيمة بأسطول عربي بقيادة «خالد بن كيسان» ووقع القائد أسيراً بيدهم، فقام الأمبراطور «جستنيان» الثاني باطلاق سراحه وسلمه الى الوليد بن عبد الملك(١١). غير أن البيزنطيين تلقوا ضربة أخرى عندما قام «العباس بن الوليد» أمير البحر بحملة ففتح قبرس في سنة ٩٥هـ/٧١٤م(١٢).

في عهد سليمان بن عبد الملك:

استرد البيزنطيون نشاطهم في أول عهد الخليفة «سليمان بن عبد الملك» (٩٦ ــ ٩٩هـ/٧١٥ ــ ٧١٨م). فقام أسطولهم بالاغارة على مدينة اللاذقية ــ وكانت من جند حمص ــ فأحرقوها وذهبوا بما فيها، ولذا أصبحت تعرف في المصادر التاريخية بـ«اللاذقية المحترقة»(١٣). وأخذوا من ساحل حمص جملة أسرى من المسلمين، من بينهم أمرأة لها ذكر ومكانة، مما أثار الخليفة «سليمان» الذي قال: «ما هو إلّا هذا، نغزوهم ويغزوننا» وأقسم ليفتح

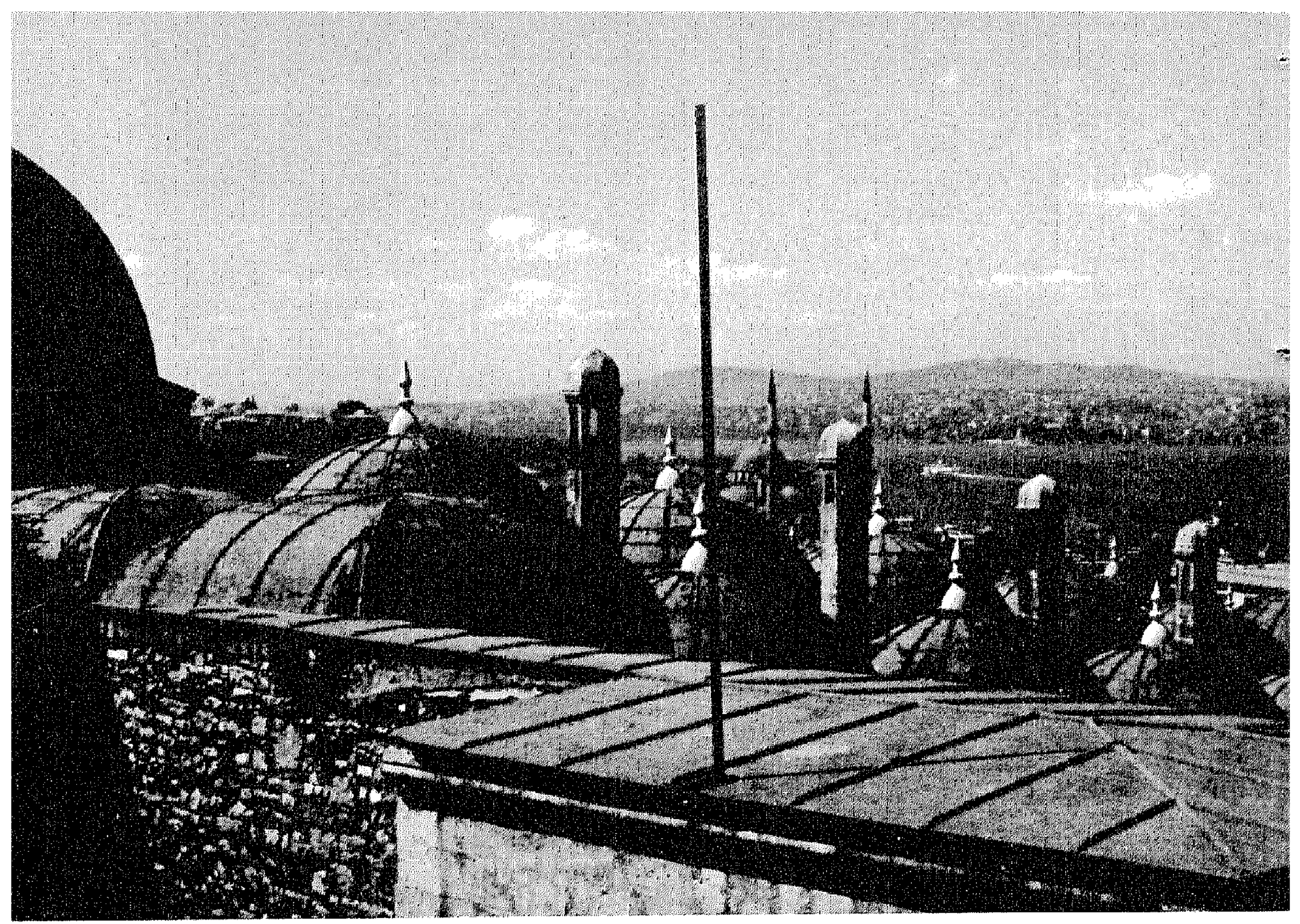
القسطنطينية أو يموت، فأغزى أهل الشام والجزيرة في البر في نحو من مائة وعشرين ألفاً، وأغزى أهل مصر والمغرب في ألف مركب عليهم «عمر بن هبيرة الفزاري»(١٤)، وعلى الكل «مسلمة بن عبد الملك»، الذي أمر كل فارس أن يحمل على فرسه مديين من الطعام حتى يأتي به القسطنطينية، ثم أمر بالطعام فأُلقي في ناحية حتى صار كالجبل، ومنع المسلمين أن يأكلوا منه شيئاً بل يكتفوا بما يصيبونه من غاراتهم من الزرع والقوت. وأقام مرابطاً عند أسوار القسطنطينية قاهراً لأهلها حتى نفد القوت عندهم، وهو يغيظهم بجبل الحنطة الذي في وسط معسكره، لا يمسسه أحد ولا ينقص منه شيء، حتى عرضوا عليه الفدية بعد أن أضرّهم الحصار، فأبى إلاّ أن يفتحها عنوة(١٥)، وصادف أن مات الأمبرطور «جستنيان» الثاني أثناء الحصار، وتولى بعده «إليون الرومي المرعشي» الذي غدر بالمسلمين وخان العهد معهم بعد أن كان حليفهم، وأدخل الى المدينة قسماً كبيراً من الحنطة. وقد شارك في هذه الغزوة الكبرى إلى القسطنطينية اثنان من غزاة البحر من أهل طرابلس، هما: «الليث بن تميم الفارسي الطرابلسي» واخوه «ابو خراسان الفارسي الطرابلسي» حيث خرجا بمركبهما من ميناء طرابلس وانضما إلى الغزاة الذين تجمعوا تحت قيادة «عمر بن هبيرة».

ويحكي لنا «الليث بن تميم» بعض وقائع هذه الغزوة كشاهد عيان، حسب رواية «ابن عساكر» الذي ينفرد بهذا النص:

«قال الليث: كنت ممن غزا على اسمه وعطائه — يعني عمر بن هبيرة — اذ ولاه سليمان [بن عبد الملك] غازية البحر، فرافقت أخي أباخراسان في مركب، فسار بنا عمر حتى مررنا بأهل مصر، فتبعونا، ومضينا حتى أتينا أطرابلس افريقية، وعلونا أرض الروم، حتى اذا حاذينا القسطنطينية سرنا في بحر الشام حتى دفعنا الى خليج القسطنطينية، فخرجنا الى الخليج على باب القسطنطينية لنُجز الى مسلمة ومن معه من المسلمين. وصف مسلمة من معه من المسلمين صفاً لم أر قط أطول منه، مع الكراديس الكثيرة. وجلس ليون طاغية الروم على برج على باب القسطنطينية وبروجها، يصف منهم رجاله فيما بين الحائط والبحر صفاً طويلاً بحذاء صف المسلمين، وأظهرنا السلاح في ألف مركب بين محرقات وقوارب فيها.. (؟) من كسوة مصر،.. والميناء فيها المقاتلة».

قال الليث: «فما رأيت يوماً قط كان أعجب منه لما ظهر من عدونا في البر والبحر، وما أظهرنا من السلاح، وما أظهر طاغية الروم على حائط القسطنطينية وصفهم ذلك، والعدة، ونصبوا المجانيق والعرادات، فيكبر المسلمون في البر والبحر، ويظهر الروم قبلها، حتى فكر ابن هبيرة وجماعة من مقدمية السفن على الاقدام على باب الميناء لما هابته على أنفسها، فلما رأت ذلك الروم، خرج الينا من باب ميناءهم مركبان، وقال: محرقان، فمضى مركب منها الى أدنى من يليه من مراكب المسلمين فألقى عليه الكلاليب بالسلاسل فاجتره حتى أدخله بأهله القسطنطينية، فأسقط ذلك في أيدينا. وخرجوا الى مركب ليفعلوا ذلك به، فجعل ابن هبيرة يتحسر ويقول: «ألا رجل»؟! فقام اليه أبو خراسان فقال: هذا أنا رجل، ولكنك صيرتني في المركب معك لبعض من أودعني عنده، فقال له ابن هبيرة: فمر بما ترى ومر بما تحب. فأشار [أبو خراسان] الى مركب من الفرس يغزوهم بالشدة والبأس، فقال: ابعثني في قارب أنا وأخي، ومرهم بطاعتي، ففعل، فأمر أبوخراسان بنوتي المركب أن يوجهه الى ذلك المركب الذي ذهب بالمسلمين، فكعّ عنه النوتي، فأشار اليه أبو خرسان بالسيف فمضى به حتى الصق المركب بمركبهم ثم سار أبوخراسان حتى أوثقهما بسلسلة لئلا يفرّ أحدهما عن صاحبه.

قال: فاجتلدنا بأسيافنا مطالبين السفينتين، فرزقنا الله الظفر، فدخلنا سفينتهم ووضعنا السيف فيهم، فانتهينا الى قومس السفينة الذي فعل ما فعل، وقد ألقى بيضته وجثا على ركبتيه، شيخ أصلع، فضربه صاحب لنا ضربة لم تغن شيئاً، وتقدم اليه أبوخراسان فضربه ضربة شق فيها هامته، حتى نظرت الى السيف قد أجاز الى الذقن الى الحنجرة وما يليها، واستسلم من بقي منهم، فقدناها الى من يلينا



بحر مرمرة تطلّ عليه قصور القسطنطينية.

من المسلمين ورجعنا الى من كان منهم، فدخلوا الينا. ووقف أبوخرسان موقفاً حسناً يأمن به من مرّ بنا الى مسلمة ومن يليه حتى مرّوا عن آخرهم، لم يصب منهم الاّ ذلك المركب الأول، حتى انتهينا الى مسلمة ومن معه فأخذناهم في الخليج الى السفح الذي على باب القسطنطينية والبحر.

وقال: الخليج محيط بها إلاّ مما يلي برّها، فعسكر عليه مسلمة. وكنا في سفننا مرسيين على ساحلها مما يلي العسكر، يخرج من سفننا عمر بن هبيرة وغيره الى مسلمة ومن أوردنا من أهل العسكر، ويأتينا أهل العسكر فيدخلون علينا في سفننا»[١٦].

ولقد بقي مسلمة مقيماً على حصار القسطنطينية مدة ثلاثين شهراً حتى هلك الكثير ممن معه من الجوع، وأكل الناس بعضهم، واضطر أن يرفع الحصار ويعود أدراجه دون أن يحقق اليمين الذي أقسمه الخليفة سليمان بفتح عاصمة الامبراطورية، إلاّ أن الشق الثاني من القسم تحقق وهو وفاة الخليفة أثناء الحصار، وكان قبل ذلك قد ولى: «حظيّ» أو «حيّ بن أبي كثير الجذامي» من أهل حرَسْتا، على غزو البحر، وكان منزله بعكا وبها عقبه من أبنائه وأحفاده[١٧].

في عهد عمر بم عبد العزيز ومن بعده:

عاد البيزنطيون من جديد فأغاروا على ساحل اللاذقية فهدموا مدينتها وسبوا أهلها،وذلك في خلافة «عمر بن عبد العزيز» سنة ١٠٠هـ/٧١٩م. فوجه عمر الغزاة في الصائفة



رام عربي مسلح

من أهل حمص بقيادة: «الوليد بن هشام المعيطي» و «عمرو بن قيس الكندي»، ولم يزل الخليفة مهتماً بأمر اللاذقية حتى فتحها وأمر بإعادة بنائها قبل وفاته في سنة ١٠١هـ/٨٢٠م. ووجّه الى الامبراطور البيزنطي يطلب منه فداء الأسرى المسلمين فرفض[١٨]. وكان قد كتب الى الأسرى المسلمين بالقسطنطينية ما نصه:

«... أما بعد، فإنكم تعدون أنفسكم أسارى ولستم بأسارى. معاذ الله! أنتم الحبساء في سبيل الله. واعلموا أني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلّا خصصت أهلكم بأوفر ذلك وأطيبه. وقد بعثت اليكم خمسة دنانير، خمسة دنانير. ولولا أني خشيت أن زدتكم أن يحبسه عنكم طاغية الروم لزدتكم. وقد بعثت اليكم فلان بن فلان يفادي صغيركم وكبيركم، ذكركم، وأنثاكم، حركم ومملوككم، بما يسأل فأبشروا ثم بشروا»[١٩]. وأخرج الغزاة في عهده الى مرج دابق في نواحي حلب، يريدون منطقة الثغور.

وفي عهد «يزيد بن عبد الملك» جرى تقوية حصون اللاذقية وشحنها بالمقاتلة، وولى على بيروت «أبا عثمان أيوب خالد الجهني المراغي»، وعلى غازية البحر الشامي «المغيرة بن عمرو الازدي» من أهل حرستا. واستمر في امارة البحر حتى بعد وفاة يزيد بسنتين، إلى أن عزله «هشام بن عبد الملك» وولي مكانه «يزيد بن أبي مريم الثقفي المصيصي». وفي أيامه عاد البيزنطيون في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥هـ/٧٢٤ ــ ٧٤٣م) فقاموا بغزوة الى ثغر صور في سنة ١٠٧هـ/٧٢٦م. ووصلت سفنهم الى باب الميناء، وكان «يزيد بن أبي مريم» مقلولاً عند اللقاء، فخرج اليهم «خالد بن الحسفان الفارسي» فقاتلهم حتى أجبرهم على الهرب، وطاردهم بسفنه، فأرست احدى سفنهم على جزيرة قبالة صور فاستولى عليها وأسر من فيها. وقد ادعى «يزيد بن ابي مريم» في كتاب كتبه إلى «هشام بن عبد الملك» بأنه وجّه الى الروم ابنه «الشرف» فهزمهم، ولكن صاحب البريد بطبرية أكد للخليفة أن «خالداً الفارسي» هو الذي خرج للروم وليس «الشرف بن يزيد»، فكتب هشام إلى يزيد يقرّعه ويتهمه في ابنه «إنه ليس بالشرف، ولكنه الوضيع»، ثم عزله وولى عوضه «الأسود بن بلال المحاربي»[٢٠].

واجتمع جيش الشام، وعليه «ميمون بن مهران» ومعه «معاوية بن هشام بن عبد الملك» ليردّ على تلك الغزوة، فأبحر بالسفن من سواحل الشام وقطع البحر في سنة ١١١هـ. ولكننا لم نتبين وجهة تلك الغزوة.

وفي السنة المذكورة كان «شديد بن قيس هانيء اليزني» يلي بحر مصر والشام لآخر مرة[٢١].

واستمرت الغزوات البحرية المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين، من وإلى ساحل الشام، في عهد هشام، ووصل البيزنطيون في إحدى غزواتهم الى بيروت فهاجموا ميناءها واستولوا على سفينة لجماعة من تجار اقليم مرسية الاسباني، وتقدموا بسفنهم حتى قاربوا باب الميناء، فوقف أهل الميناء وهم يمسكون بأيديهم خوفاً ورهبة حتى خرج اليهم أمير البحر «الأسود بن بلال المحاربي» فصاح بهم، وركب قوارب صغيرة وأجهد نفسه في طلب البيزنطيين



سفينة بيزنطية مسلحة في العاصفة (عن مخطوطة الأنييد).

حتى لحق بسفنهم وأوقع بمقاتليها واستنقذ المركب والتجار[٢٢].

وصرف هشام عنايته الى تدعيم السواحل، وفي عهده انتقلت دار صناعة السفن من عكا الى صور، وحول ذلك يروي «البلاذري» إن رجلاً من عكا كان يملك أرحاء [جمع رحى] ومستغلات، فأراد هشام أن يشتريها منه، فأبى الرجل، وعند ذلك نقل هشام الصناعة الى صور واتخذ بها فندقاً ومستغلاً[٢٣]. وظلت صناعة المراكب في ميناء صور منذ ذلك الوقت حتى عهد المتوكل العباسي.

وبدا واضحاً أن أهل جزيرة قبرس كانوا يظهرون الغدر بين حين وآخر، فكانوا يقدّمون التسهيلات للأسطول البيزنطي ويمدّونه بالعتاد ويزودونه بالمعلومات عن تحركات السفن الاسلامية. فكان المسلمون يخرجون بين وقت وآخر للاقتصاص منهم على عدم طاعتهم والوفاء بعهودهم. ولذلك غزاهم «الأسود المحاربي» في سنة ١٢٠هـ/٧٣٨م. ومعه «عياش بن عقبة» في أهل مصر. ثم قام في سنة ١٢١ أو ١٢٢هـ. بالغزو الى جزيرة اقريطش ومعه «حفص بن الوليد الحضرمي» على أهل مصر وكان مرابطاً بالشام، فهزم أهل الجزيرة ونزل بالمسلمين عليها، وأصاب منها أسرى[٢٤].

وقد استوجبت حدّة الصراع شحن المدن الساحلية وتكثيف المرابطين فيها، لتفاقم الخطر البيزنطي، فخرج في الصائفة «خالد بن عبد الله القسري» مع ابنيه: «يزيد» و«هشام»، وخرج ابنان آخران له للمرابطة في ساحل الشام مع عمّهما «اسماعيل بن عبد الله القسري» وكان «اسماعيل» و«المنذر بن أسد بن عبد الله» و«سعيد» و«محمد» ابنا خالد بالساحل لحدَث كان من الروم.

وعندما آلت الخلافة الى «الوليد بن يزيد بن عبد الملك» (١٢٥ ــ ١٢٦هـ/٧٤٣ ــ ٧٤٤م) قام بزيارة تفقدية الى ساحل الشام ونزل بيروت فأعجبته فأنشد فيها:

اذا شئت تصابرت	ولا أصبر ان شيت
ولا والله لا يصبر	في البرية الحوت
ألا يا حبذا شخص	حمت لقياه بيروت

وأمر «الأسود بن بلال المحاربي» على جيش البحر في ساحل الشام كله، وأمره أن يسير لغزو

قبرس ويأمر أهلها بالجلاء عنها، ويخيرهم أن يسيروا الى الشام أو الى الروم. فنزل الأسود على الجزيرة في سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م. ومعه «عياش بن عقبة» على أهل مصر، فخيّر أهلها في الاقامة خارجها أو القتال، فاختارت طائفة منهم جوار المسلمين في الشام فنقلهم اليها، وأسكنهم الماحوز على ساحل لبنان فيما بين صور وصيدا[٢٥]. واختار آخرون أرض الروم فانتقلوا اليها.

ولكن الخليفة «يزيد بن الوليد» (١٢٦هـ/٧٤٤م). ردّ النازحين عن الجزيرة اليها بعد أن أنكر الناس ذلك، ولم يوافق عليه الفقهاء، فاستحسن المسلمون مافعله يزيد. وظلت قبضة المسلمين محكمة على الجزيرة، حتى جهّز اليها الامبرطور «قسطنطين الخامس» في سنة ١٢٨هـ/٧٦٤م. أسطولاً كبيراً في مياه آسية الصغرى الجنوبية، وسيّره الى قبرس، فهاجم أسطولاً للمسلمين كان عندها وأنزل به الهزيمة، واحتل الجزيرة[٢٦]. وجاء احتلال قبرس في وقت كانت فيه الدولة الأموية قد شارفت على نهايتها. ولذا لم تظهر أية نتيجة فعّالة لجهود «حذيفة بن سعيد السلامي» الذي ولّاه «مروان بن محمد» آخر خلفاء بني أمية على غازية البحر في سنة ١٢٧هـ/٧٤٥م. بل إن «صالح بن علي» العباسي استخدم المراكب المرابطة في مواني بحر الشام لمطاردة «مروان بن محمد»، وقتله في سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م. ليقضي بذلك على الخلافة الأموية، ولتطوى صفحة الأسطول الاسلامي مع الدولة الأموية، وتفتح صفحة جديدة عن دوره في العصر العباسي، وهذا له بحث آخر.

انتهى

المصادر والحواشي

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق (المخطوط)، ج ١٢٨/٢٨، التهذيب ٣٧٤/٣.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ١٩٠/١، أنساب الأشراف ٣٠٠/٥، ابن عساكر ١٢٠/١٥ ــ ١٢٢ و٥٩٥/١٢، التهذيب ٦٥/٦ و٦٦، ابن الأثير ٣٠٤/٤، ابن العديم، بغية الطلب (المخطوط) ٢١٣/٧ و٢١٩ و٢٢٠، نهاية الأرب، النويري ١٠٨/٢١ و١٠٩.

(٣) تهذيب ابن عساكر ١٨٣/٦.

(٤) بغية الطلب ٢٢٠/٧، ابن عساكر ١٢٢/١٥ و٨٩/١٦.

(٥) ابن حيّان، مشاهير علماء الأمصار ٥٤، ابن الأثير ٥٣٤/٤، ابن عساكر ٣١٠/٧.

(٦) البلاذري، فتوح البلدان ١٩٠/١ و١٩١، تاريخ اليعقوبي ٢٨٣/٢.

(٧) هكذا عرّفه ابن عساكر في تاريخ دمشق (المخطوط) ٥٩٤/٣٢، وانظر عنه: تاريخ خليفة بن خياط ــ ص ٣٢٨ و٣٣٠ و٣٣٥، تاريخ اليعقوبي ٣١٥/٢، الطبري ١٤١/٦ و٣٤٩ و٥٨٤ و٦٠٥، ابن الأثير ٤٧١/٤.

(٨) أنظر عنه: تهذيب ابن عساكر ٤٤٣/٦، الطبري ٢٦٦/٧.

(٩) أنظر عنه: تاريخ خليفة بن خياط ٣٢٨ و٤٣٧ وقد مات سنة ١٦٣هـ، اليعقوبي ٣١٧/٢، الطبري ٥٧٧/٦، ابن الأثير ٦٩/٥ و٧٠ و١٠٣ و١٠٧ ــ ١١٠ و١١٥ و١١٦، تهذيب ابن عساكر ١٦٤/٦، تاريخ الإسلام ــ الذهبي ٧٩/٥، طبعة القدسي.

(١٠) تاريخ دمشق ٥٩٥/٢٢ ــ ٥٩٨.

(١١) الطبري ٤٤٢/٦، ابن الأثير ٨/٤ـ٥٤، ابن عساكر ٢٣٧/١٢، النويري، نهاية الأرب ٣١٩/٢١.

(١٢) اليعقوبي ٢٩٢/٢.

(١٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٥٣.

(١٤) كان على بعلبك في عهد عبد الملك على الأرجح. أنظر عنه: الأغاني ١٧٠/١٣.

(١٥) الطبري ٥٣٠/٦ وما بعدها، سير أعلام النبلاء ٥٠١/٤، ٥٠٢.

(١٦) ابن عساكر ١٩٥/٢٦ ــ ١٩٨.

(١٧) ابن عساكر ٢٧٣/٧ و٥/١٢، التهذيب ٣٧٨/٤ و٢٧/٥.

(١٨) البلاذري، فتوح البلدان ١٥٧/١.

(١٩) الأغاني ٢٦٥/٩ و٢٦٦، مختار الأغاني، ابن منظور ٣٤/٥.

(٢٠) ابن عساكر ٧٦٧/٤٦.

(٢١) ابن ماكولا، الاكمال ٤٩/٥.

(٢٢) ابن عساكر ١٨/٦، التهذيب ٤٧/٣.

(٢٣) البلاذري ١٤٠/١.

(٢٤) ابن عساكر ١٨/٦ و١٩، التهذيب ٤٧/٣.

(٢٥) المنجبي، كتاب العنوان ٣٦١/٢ والماحوز: هو الموضع، وأهل الشام يسمّون المكان الذي بينهم وبين العدو وفيه أساميهم ومكاتبهم ماحوزاً.

(٢٦) د. أسد رستم، الروم وصلاتهم بالعرب ٢٩٤/١، موسوعة تاريخ العالم ــ وليم لانجر ٤٨٤/٢.

(٢٧) ابن كثير، البداية والنهاية ٤٦/١٠.

الآلة التي تزمر بنفسها صنعة بني موسى بن شاكر

د. منى سنجقدار شعراني



عنوان طريف استرعى انتباهي وأثار فضولي بينما كنت أبحث في مكتبة الجامعة الأميركية عن المخطوطات العربية التي تتعلق بالعلوم عند العرب. ومما شدني أكثر لهذا العنوان هو اقترانه باسم «بني موسى بن شاكر» الاخوة الثلاثة الذين غاصوا بعيدا في بحر العلوم فانجرفوا في تياراته حتى اشتهروا في علم الفيزياء وعلم الفلك وعلم الرياضيات وأيضا الموسيقى.



الآلة التي تزمر بنفسها. ما هي تلك الآلة؟ كيف تزمر بنفسها؟ ما هي المقومات العلمية التي تبعها الأخوة الثلاثة لتركيب تلك الآلة؟ هل هي آلة موسيقية تعطي لحناً لنغمات موسيقية معروفة أم إنها مجرد آلة نفخ تزمر؟

جميع تلك الأسئلة جالت في خاطري وأخرى غيرها لم أستطع الاجابة عنها. فعكفت على دراسة المخطوطة دراسة علمية بحتة فكان كل مقطع منها ينقلني الى حقل جديد من حقول الفيزياء وكانت كل كلمة تفسر ما قبلها وتحدد بدقة النظرية العلمية المطروحة.

وقبل وصف تلك الآلة لا بد لنا من التعريف بأبناء موسى بن شاكر والقاء بعض الأضواء على مخطوطتهم هذه.

من هم أبناء موسى بن شاكر:

ثلاثة أخوة: محمد وأحمد وحسن عاشوا في القرن الثالث للهجرة واشتهروا بعلومهم وكانوا من أركان النهضة العلمية في أوائل العصر العباسي وانهم يعتبرون من أهم علماء الفيزياء في ذلك العصر. وتذكر بعض المصادر بأن والدهم موسى بن شاكر كان متقدماً في علم الهندسة وانه كان فلكياً منجماً من المقربين الى الخليفة المأمون.

وللتعريف بهم لابد لنا من الأخذ بآراء المؤرخين والكتاب ممن عاصرهم أو أتى بعدهم واطلع عن كثب على أعمالهم واختراعاتهم.

قال أبو الفرج بن الجبري في تاريخ مختصر الدول[1]: «مات موسى بن شاكر وخلف هؤلاء الأولاد الثلاثة صغاراً» فوصى بهم المأمون

د. منى سنجقدار شعراني: ليسانس فيزياء من كلية العلوم ــ الجامعة اللبنانية أستاذة في كلية التربية. دكتوراه من معهد الدراسات العليا في باريس. ساهمت باصدار كتاب «العلوم الفيزيائية ــ سنة أولى» الصادر عن الجامعة الاميركية ــ إدارة العلوم. اشتركت بعدة دورات تدريبية ومؤتمرات علمية في مختلف أنحاء العالم العربي.

اسحق بن ابـراهيم المصعبي وأثبـتهـم مـع يحيى بن أبي منصور في بيت الحكمة فخرج بنو موسى بن شـاكر نهـاية في علومهم وكـان أكبرهم وأجلهم أبوجعفر محمد وكان وافر الحظ في الهندسة والنجوم ثم خدم وصار من وجوه القواد.. وكان أحمد دونه في العلم إلّا صناعة الحيل فإنه فتح له فيها مالم يفتح لمثله أحد. وكان الحسن هو الثالث منفرداً بالهندسة وله طبع عجيب فيها لايدانيه أحد. علم كل ما علم بطبعه ولم يقـرأ من كتب الهندسـة إلّا ست مقالات من كتاب أوقليدس في الأصول فقط وهي أقل من نصف الكتاب ولكن ذكره كان عجيباً وتخيله قوياً».

وقـال ابن النديم في الفهـرست[٢] «هـؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وانفذوا الى بلد الروم من أخرجها اليهم فأحضروا النقلة في الاصقاع والأماكن بـالبذل السني فـأظهـروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم في العلوم الهنـدسية والحيـل والموسيقى والنجـوم وهـو الأقل».

وقد نقل جلال الدين بـن القفطي[٣] هـذا الكلام وزاد عليه قوله: «ان بني موسى كانوا جميعاً متقدمين في النوع الرياضي وحركة الأفلاك وحركات النجوم.. وكانوا أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل ولهم في ذلك تآليف عجيبة تعرف بحيل بني موسى وهي شريفة الأغراض عظيمة الفائدة مشهورة عند الناس».

أعمالهم ومؤلفاتهم:

تحدثنا بعض المصـادر أن أول مابـرز به أبناء موسى هو ميدان الاشراف على مايترجم من العلوم في بيت الحكمة وكان محمـد أكبر الأخوة مشرفاً على مـايترجم من كتب الجبـر والمقابلة وقام بأسفار عديدة الى آسيا الصغرى واليونان بحثاً عن كتب الميكانيك والرياضيـات إضافة الى الفلسفة.

وبعد المطالعات العلمية المستمرة التي قام بها أبناء موسى، عملوا في دار الرصد المأمونية بالشماسية ببغداد ثم أنشأوا مرصداً خاصـاً بهم في دارهم التى أقاموها عند «بـاب طاق» جانب الرصافة في بغداد[٤] وكان من أعمالهم العظيمة المساهمة في قياس محيط الأرض.

لقد كان حظ أبناء موسى سعيداً كذلك زمن الخليفـة المتوكـل (٢٣٢ ــ ٣٤٧هـ) باجـزال العطاء عليهم وقد بنى لهم داراً بسامراء على مقربة من قصره وأمدهم بفريق من المترجمين[٥] وعندما ذهب الطبيب ابن ربن الطبري[٦] الى مرصد القصر قال وقد أخذ منه العجب كل مأخذ: «في مـرصد سـامراء رأيت آلة بنـاها الأخوان محمد وأحمد أبناء موسى وهي ذات شكـل دائري تحمـل صـور النجـوم ورمـوز الحيوانات في وسطها وتديرها قوة مائية. وكلما غاب نجم في قبة السماء اختفت صورتـه في الخط الأفقي من الآلة»

مؤلفاتهم:

لقد وردت قائمة تآليف بني موسى في كتاب الفهرست لابن النديم وفي تاريخ الحكماء لابن القفطي. وقد رتبناها كالتالي بالنسبة للحقـول والميادين التي عملوا بها.

١ ــ في حقل الرياضيات:

كتاب الشكل الهندسي الذي بين جـالينوس أمره (لمحمد).

كتاب المخروطات (أبولونيوس).

كتاب الشكل المـدور المستطيـل وقد ألفـه الحسن.

كتاب مساحة الأكر وقسمة الزوايا بثـلاثة أقسام متساوية ووضع مقدار مابين مقدارين ليتـولى على قسمـة واحدة ومعـرفة الأشكـال الكروية.

٢ ــ في حقل علم الفلك:

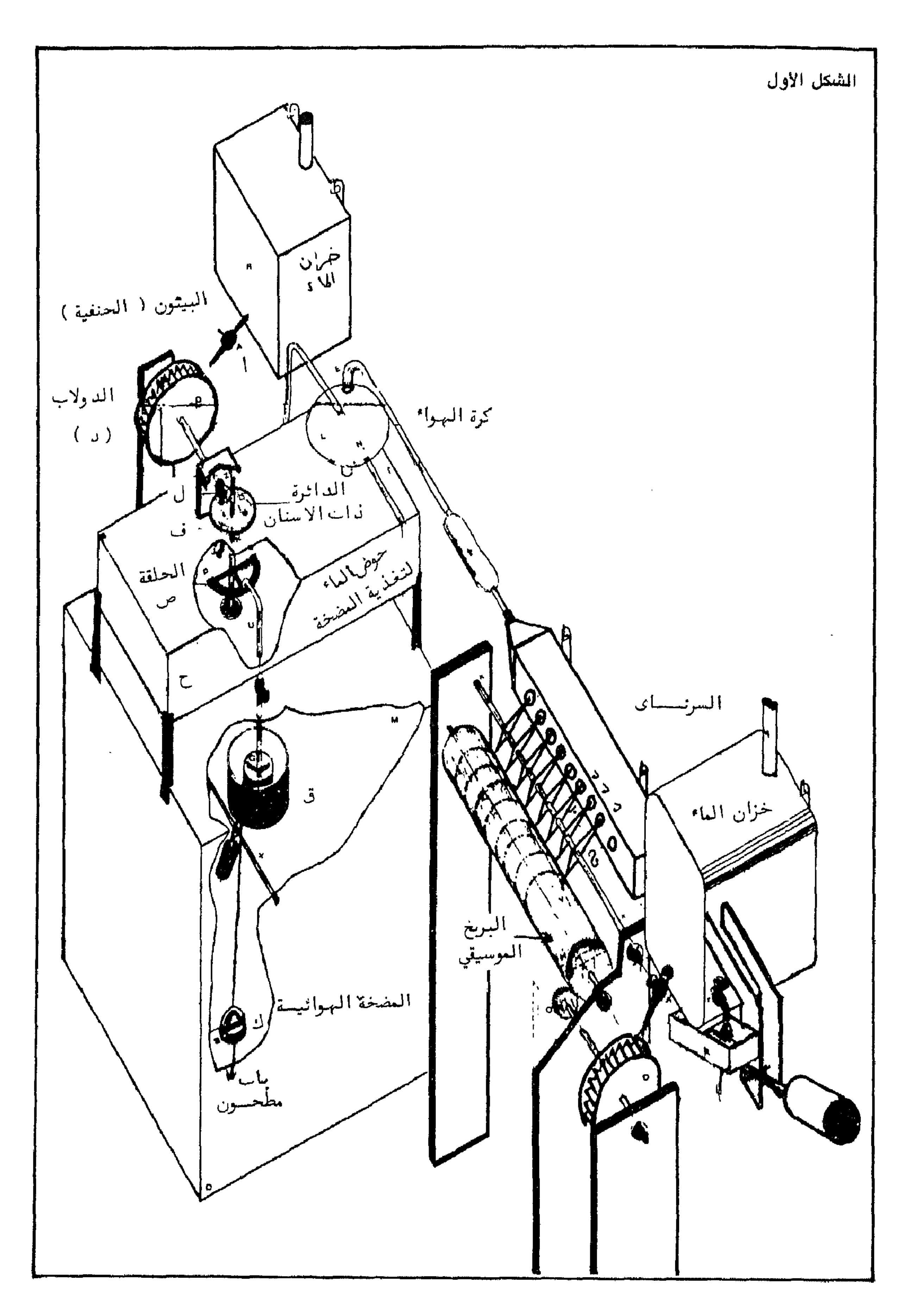
ان لمحمد بن موسى كتاب حركة الفلك الأولى وكذلك كتاب في أولية العالم.

ويعرف لأحمد كتاب بين فيه بطريق تعليمي هندسي أنه ليس خارج كرة الكواكب الثابتة كرة تاسعة.

٣ ــ في حقل الفيزياء:

ــ كتاب بني موسى في القرسطون.

ــ كتاب الحيل وقد ذكره ابن خلكان قال: «ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر، يشتمل على


الشكل الأول
خزان الماء
البيثون (الحنفية)
الدولاب
(د)
كرة الهواء
الدائرة
ذات الاسنان
حوض الماء
لتغذية المضخة
الحلقة
ص
ق
السرناى
خزان الماء
البريخ
الموسيقي
المضخة الهوائيــة
باب
مطحــون

كل غريبة ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها وهو مجلد واحد».
ـــ كتاب في الآلات الحربية.
٤ ـــ في حقل الموسيقى:
ـــ تذكر بعض المصادر بأن لأبناء موسى موسوعة في علم الموسيقى. وكذلك مخطوطة الآلة التي تزمر بنفسها والتي نحن بصدد دراستها.
٥ ـــ في حقل الفلسفة:
لقد ذكر ابن النديم في الفهرست
ـــ كتاب في أول العلل.
ـــ كتاب على مائية الكلام.
ـــ كتاب المسألة التي القاها أحمد بن موسى بن شاكر على سند أبن علي.
وهكذا يتضح من مؤلفاتهم بأن أبناء موسى بن شاكر كانوا من عباقرة القرن الثالث الهجري وأن دراساتهم هذه مهدت الطريق أمام الاكتشافات العلمية التي ظهرت في القرون الوسطى.

التعريف بالمخطوطة:

أما التعريف بالمخطوط فقد ورد على لسان الأب لويس شيخو اليسوعي في مجلة المشرق[٧] فقد ذكر بأن وصف آلة الزمر موجود ضمن مجموع كبير كان ملك القس أنطوان بولاد وهو الذي كتب في صدره ما حرفه. «الذي ضمن هذا الظرف هو مجموع حاوي أقوالاً من فلاسفة العرب وأخص هذه الأقوال في علم الهندسة وكان هذا المجموع مختلطاً ببعضه ومشدوداً من جاهل حيث صير الأول أخيراً وهكذا حتى كاد لا يعلم منه شيئاً على حقيقته وذلك لسبب عدم وجود قيد من ناسخه فلذلك فرطته وقد رتبته كما تراه بدون شد عسى أفوز بنسخة وأكمل ما نقص من آلة الزمر وأسأل الله التوفيق والأجر والثواب لمن يتمم ذلك لأنه كتاب صغير حجماً وغزير علماً ويغالي به ثمناً».

والجدير بالذكر أن المخطوطة كتبت بلغة عربية قديمة تخللتها بعض العبارات الفارسية أما بالنسبة لآلة الزمر بالذات فقد وصفت وصفاً دقيقاً منظماً ولكن لم يوجد أثر لأي رسم أو شكل يبين أجزاء الآلة رغم أن عبارة (كما صورنا) وردت غالباً في السطور ومعنى ذلك أن بني موسى بن شاكر وضعوا الرسوم والتصاميم اللازمة للآلة ولكنها جميعاً فقدت ولم يبقَ لدينا سوى الوصف.

لابد من الاشارة هنا بأن الناسخ ركز اهتمامه على آلة الزمر مما قادنا حتماً الى التفكير بكبار المستشرقين والمؤرخين والبحث في دراساتهم عن ترجمة لتلك المخطوطة.

فعلاً لقد حازت هذه المخطوطة على اهتمام (Wiedman)[٨] المستشرق الألماني فترجمها الى اللغة الألمانية وأظهر بعض مقاطع الآلة برسم مبسط جداً ولكنه لم يخصص لدراستها الا بضعة أسطر لم تف بأهميتها ولم تبرز الحقائق العلمية التي تكمن بين سطورها.

كذلك لقد ترجم (Henry George Farmer)[٨] المخطوط الى الانكليزية وشرح فوائدها العلمية بصورة مختصرة ولكنه لم يظهر الاكتشافات الحديثة في علم الموسيقى الميكانيكية التي حققها الأخوة الثلاثة، الأمر الذي دفعنا الى الدراسة العلمية البحتة واستطعنا استخراج المقومات العلمية التي تختبىء بين سطورها، تلك الحقائق التي لو عرفت في عهدها لغيرت مجرى تاريخ العلوم بل والاكتشافات العلمية في حقل الميكانيك بحيث أحرزت تقدماً لا يقل عن ثمانية قرون.

وصف آلة الزمر:

لقد استهل بنو موسى بن شاكر وصف الآلة بقولهم:

بسم الله الرحمن الرحيم

«نريد أن نبين كيف تعمل آلة تزمر بنفسها دائماً في أي لحن أردنا وأن يكون ذلك أحيانا بايقاع ثقيل وأحياناً بايقاع خفيف وأن ننقل من لحن الى لحن متى أردنا ذلك ولأن الزمر الدائم لا يكون الا بريح دائمة فانا نبدأ فنبين كيف تعمل آلة يحدث عنها ريح دائمة».

ثم تابعوا الوصف بدقة متناهية حيث عللوا وجود كل جزء من أجزائها وفسروا بوضوح كيفية صنعه وتركيبه والعمل به، كما أعطوا القياسات اللازمة نسبة للمقاييس التي كانت تستعمل في عصرهم كالذراع (٥٠ سم) والشبر (٢٢ سم).

ثم ذهبوا الى أبعد من ذلك فقد خصصوا في نهاية الوصف صفحتين كاملتين سردوا فيها النصائح والارشادات التي يجب اتباعها لحسن سير عمل الآلة، كما أوضحوا الخطوط الوقائية التي يجب اتباعها اذا ما تعطل العمل في تلك الآلة الضخمة.

هذا وبعد جهد كبير استطعنا اظهار خريطة عامة لشكل الآلة (راجع الرسم رقم (١) .

أجزاء الآلة:

تقسم الآلة الى خمسة أقسام أساسية يحتوي كل منها على أجزائه الخاصة.

١ ــ المضخة الهوائية.

تتألف المضخة الهوائية من اناء كبير من الشبه[٩] طوله ذراعان في عرض ذراعين وارتفاع ذراعين ونصف. وقد قسم هذا الاناء بسطح داخلي الى قسمين متساويين يحتوي كل منهما على الأجزاء التالية:

(أ) وعاء صغير يثبت على طرف رافعة ويتصل بسلسلة بفتحة (Soupape) توجد في أسفل القسم مخصصة لتفريغ الماء.

(ب) أنبوب يثبت في السطح الأعلى من القسم وينتهي الى كرة هواء. وهذا الأنبوب يسمح بخروج الهواء من القسم المذكور أثناء امتلائه بالماء.

(ج) أنبوب آخر صغير يساعد على تفريغ الماء وذلك بفعل الضغط الجوي..

هذا وان هذين القسمين يكونان دائماً متعاقبين في العمل حتى أن الهواء يكون دائم الخروج من أحد الأنبوبين.

٢ ــ حوض الماء المخصص لتغذية المضخة الهوائية.

انه حوض كبير طوله ذراعان في عرض ذراع وربع وسمك نصف ذراع له أربع قوائم ثبتت فوق المضخة الرئيسية.

يحتوي هذا الحوض على محور ثبتت عليه حلقة (نصف دائرة) مهمتها فتح واقفال وبطريقة متعاقبة انبوبي مجرى الماء الى المضخة. ولقد ثبت أيضاً على نفس المحور دائرة ذات دندانجات (اسنان) يديرها لولب يتصل محوره بدولاب ذي ٦ نردات (جيوب) يدور بفعل الماء عليه.

ويلاحظ بأن هذا الحوض هو محكم الاغلاق ويجب أن يكون دائماً وأبداً مملوءاً بالماء لكي يحافظ على الضغط المطلوب.

٣ ــ كرة ضغط الهواء.

ان الهواء الذي يخرج من الانبوبين المخصصين له من سطح المضخة يتجمع في كرة لها عنق ويحتفظ بضغط معين ثم يخرج من أنبوب آخر ليصل مباشرة الى المزمار.

٤ ــ الزمر أو المزمار:

انه عبارة عن سرناي أو ناي ذي تسعة ثقوب في فوهته الحبة المصوتة (Sifflet) وأن العادة جرت بأن تسد ثمانية ثقوب منها بالأصابع وتفتح بالأصابع ويترك الثقب التاسع أبداً مفتوحاً وهو الذي في طرف الناي أو السرناي وأن النغمة تظهر من هذا الثقب التاسع اذا ما كانت الثمانية ثقوب التي فوقه مسدودة وكذلك كل ثقب من جميع هذه التسعة اذا ما كان مفتوحاً وما فوقه مما يلي الفم مسدوداً فإن النغمة تخرج منه وهي له ولو كانت جميع الثقوب التي بعده مفتوحة.

وبما أن آلة الزمر تعمل بنفسها لذلك عمد بنو موسى الى طريقة خاصة لفتح واغلاق ثقوب السرناي دون مساعدة أصابع الانسان.

وفي هذا المجال قال بنو موسى في مخطوطتهم: «فنعمل على كل ثقب من ثقب السرناي للثمانية باب مطحوناً[١٠] سعته بقدر سعة الثقب ولا نجعل للثقب التاسع باباً لأنه اذا سدت هذه الثمانية أدى الثقب التاسع نغمته ولا يحتاج الى أن يسد فيما بعد ونلزق فراخ الأبواب أعني ذكورتها على أطراف مساطر وليكن لكل واحدة من المساطر محور تدور المسطرة على ما صورنا ولكن نعمل لأواسط المساطر عند المجاوز علامة ج ونجعل طرف كل مسطرة الملتزق عليها الذكر من الباب أثقل من الطرف الذي عليه د بقدر ما ينطبق الباب انطباقاً محكماً من قبل نفسه ويزل طرف د اذا غمز عليه ارتفع طبق الباب مع طرف المسطرة الذي عليه ب الملزق عليه فإذا انفتح الثقب أدى النغمة التي بهذا الثقب

وإذا أطلق طرف د من المسطرة ولم يغمز انطبق الباب ولم يخرج من هذا الثقب صوت البتة وعلى هذا المثال تنفتح وتنطبق الثمانية ثقب».

بخصوص هذا الوصف (راجع الشكل رقم ١).

٥ ــ بربخ تأليف النغم.

أما بربخ تأليف النغم والمعروف حالياً (Roue Musicale) فهو عبارة عن أنبوب ضخم قطره شبر أو اكثر وطوله بقدر المسافة التي بين الثقوب الثمانية الموجودة في السرناي. يدور هذا البربخ على محور ثبت في وسطه. ثم نرسم على ظهره ثماني دوائر. مسامتة[١١] للثمانية مساطر التي ذكرنا أن أطرافها تسد وتفتح الثمانية ثقوب التي في السرناي. وننصب على كل دائرة من هذه الدوائر التي على ظهر البربخ شظايا[١٢] دقاقاً تكون حروفها قسياً ومصممة من دائرة واحدة. ونجعل في كل دائرة عدداً معيناً من هذه الشظايا وهذا العدد يتلاءم مع عدد المرار التي تستعمل بها نفس النغمة. أما طول الشظية فتكون مناسبة للمدة التي تستعمل بها النغمة.

هذا فإنه اذا مادار البربخ تلقى الشظايا أطراف المساطر. فإذا غمز الطرف الواحد منها لايزال الثقب الذي يقع عليه الطرف الآخر مفتوحاً والنغمة تخرج من السرناي حتى تجوز تلك الشظية طرف المسطرة ثم ينطبق ذلك الثقب وتبتدىء شظية أخرى تغمز طرف مسطرة أخرى فتخرج النغمة التي تتلوها.

وهكذا لاتزال النغمة الواحدة تخرج من الثقب المفتوح والسبعة الباقية ساكتة لأن أبوابها مطبقة وذلك لأن سطح البربخ لا يماس أطراف المساطر وانما تماسها القسي أعني الشظايا المركبة على الدوائر التي على سطح البربخ.

كيفية ادارة البربخ:
(Systéme D'engrenage)

أما دوران البربخ فيكون بواسطة دوائر ذات أسنان تثبت على محور البربخ. وهذه الدوائر مثبتة من جهة أخرى على محور دولاب يدور بثقل الماء عليه (راجع الشكل رقم ١).

كيف تعمل تلك الآلة:

بعد أن تمكنا من وصف الآلة والتعرف على أقسامها لابد لنا من توضيح طريقة استعمالها وبالتالي مقارنتها مع بقية الآلات الموسيقية القديمة علنا نستطيع تحديد اسم خاص بها.

فاذا ما نظرنا الى الشكل رقم (١) وتابعنا الشرح التالي خطوة خطوة نستطيع أن نفهم بسهولة كيف تعمل تلك الآلة وكيف تعطينا من نفسها نغماً معيناً.

من الحنفية الكبيرة آ التي تتصل مباشرة بخزان الماء الكبير (الموجود في أعلى الرسم شمالاً) يصب الماء على الدولاب الكبير (د) ذات البيوت فيدور هذا الدولاب بفعل ثقل الماء عليه. بدورانه هذا يدور اللولب (ل) المركز على محوره. اما الدائرة (ف) ذات الأسنان فتدور بفعل دوران اللولب ومن ثم المحور العمودي المركز داخل حوض الماء (ح). وكذلك تدور الحلقة (صَ) فتفتح الباب المطحون المركز على أنبوب مجرى الماء ويبدأ الماء بالتجمع في احد قسمي المضخة الهوائية.

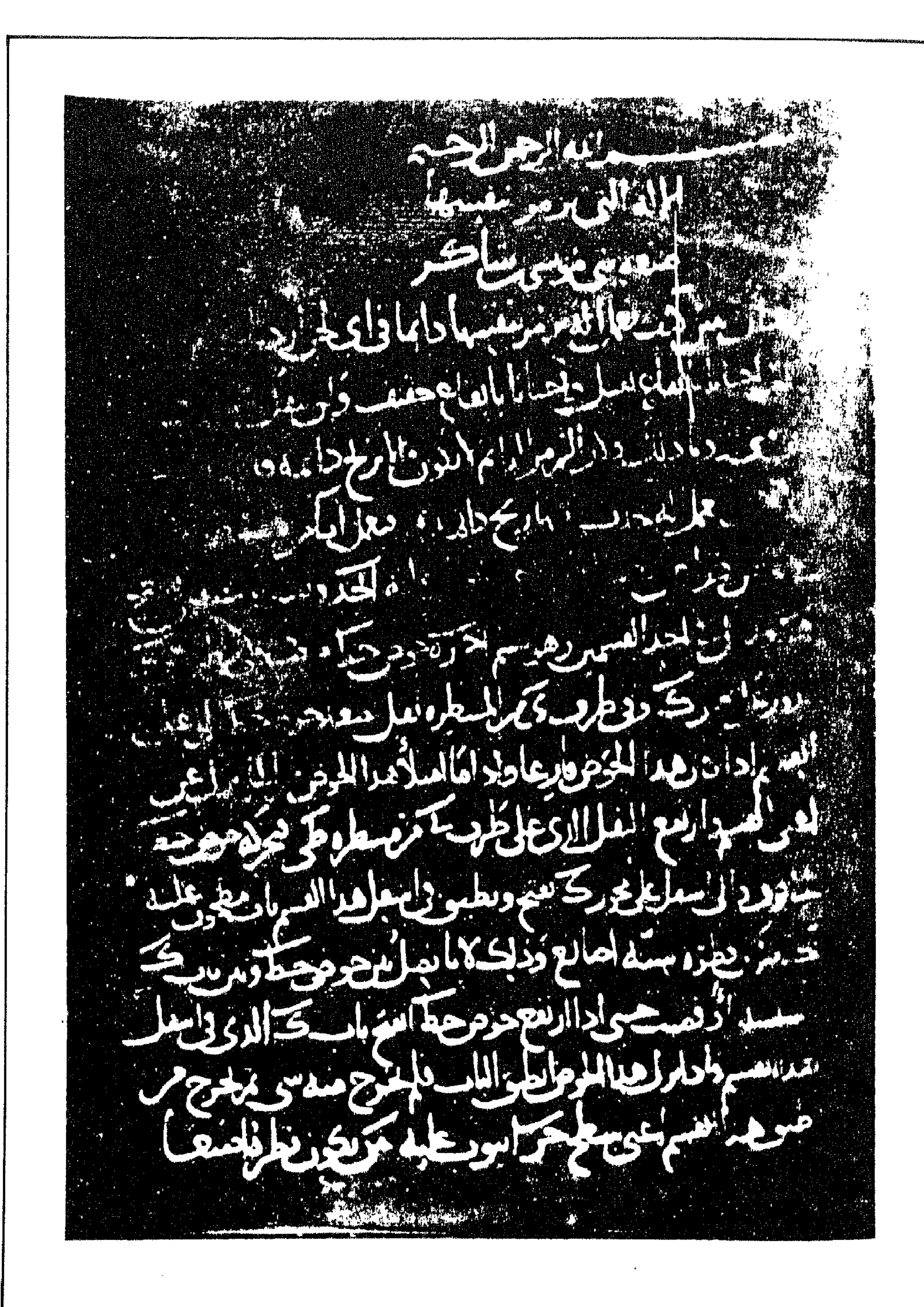
أما أنبوب مجرى الماء فإنه يتصل مباشرة بوعاء صغير فيمتلىء هذا الأخير أولاً ثم يفيض الماء الى وعاء أكبر مثبت على طرف الرافعة (ق) عند امتلائه بثقل وينزل مما يساعد على اغلاق الباب (كَ) الموجود في أسفل الحوض الكبير.

وهكذا يتجمع الماء طارداً الهواء من الأنبوب المخصص له الى الكرة الضاغطة.

فإذا ما امتلأ هذا القسم انتهت نصف دورة الحلقة وبدأ النصف الثاني فيطبق الباب المطحون من قبل نفسه ليفتح الباب الآخر المقابل له ويجري الماء الى القسم الثاني ليفعل فعل القسم الأول ولكون هذين القسمين متعاقبين.

أما كيفية تفريغ احد قسمي الحوض الكبير أي المضخة الهوائية فإنه يتم كما يلي:

في أسفل الوعاء (ق) ثقب صغير ينساب منه الماء فيفرغه وعند ذلك يخف الوزن فتتحرك الرافعة الى أعلى من جهته فتشد السلسلة المعلقة به لتفتح باب (ك) حينئذ يبدأ تفريغ الماء.



بسم الله الرحمن الرحيم

صفحة من المخطوطة

ولكي تعمل الآلة بانتظام يجب أن يفرغ هذا القسم من الماء خلال المدة اللازمة لنصف دورة من دورات الحلقة (ص).

أما الهواء الذي يجتمع في الكرة فليس له مخرج سوى الأنبوب المخصص له والمتصل بالسرناي والحبة المصوّتة فتسمع بذلك النغمة الصادرة من الثقب المفتوح.

فإذا مادار البربخ الموسيقي كما شرحنا ذلك من قبل فإن الشظايا المركبة على ظهره تفتح وتقفل وفقاً للنغم المعدّ لها ثقوب السرناي فيسمع بذلك لحن مطرب.

ما اسم تلك الآلة:

يتضح مما تقدم بأن هذه الآلة تعزف من نفسها لحناً موسيقياً كاملا وفقا لنغمات موسيقية معروفة. ولكن ما هي تلك الآلة؟ وما هي مكانتها بين الآلات الموسيقية القديمة؟

للاجابة على هذا السؤال لابد لنا من العودة الى تاريخ الآلات الموسيقية في العصور القديمة ودراستها دراسة شاملة ليتسنى لنا مقارنتها مع آلة الزمر لبني موسى. ولكن هذه الدراسة طويلة جداً وان صفحات تلك المجلة لاتسمح لنا بالتوسع أكثر من ذلك لذلك فإننا نقتصر على اعطاء النتائج التي توصلنا اليها.

ان هذه الآلة تشبه الى حد بعيد الأرغن المائي (Orgue Hydraulique) المعروف قديماً عند اليونان وقد أثبتت الأبحاث بأن مخترع هذا الارغن المائي هو كستيبيوس (Ctésibios) العالم اليوناني الذائع الصيت الذي اخترع المضخة المائية المعروفة باسمه.

وبعد كستيبيوس ظهر هيرون الاسكندري (Héron d'Alexandrie) الذي اشتهر في علم الميكانيك فترك لنا بين مؤلفاته وصفا دقيقا لأرغن مائي.

أما فيتروفيس الروماني (Vitruve) المهندس المشهور فقد ترك لنا أيضاً وصفاً واضحا لأرغن مائي في كتابه المعروف (Architectura)(١٣).

وبعد مقارنة آلة الزمر لبني موسى مع الارغن المائي لاحظنا بأن أوصاف الآلة وأجزائها تنطبق جملة وتفصيلاً مع أوصاف الارغن المائي (Orgue Hydraulique) لذلك فاننا نستطيع أولاً أن نسمي هذه الآلة (Orgue Hydraulique)، لابد لنا من الاشارة هنا بأن تعريف الأرغن المائي يتعلق بوظيفة الماء في داخله التي تتلخص كالتالي:

ان الماء يجب أن يعمل بقوة ضغطه ضمن المضخة الهوائية لطرد الهواء الى الخارج. هذا ما يجري فعلاً في آلة الزمر.

الاكتشافات الحديثة التي حققها بنو موسى في حقل الفيزياء الميكانيكية في تلك المخطوطة:

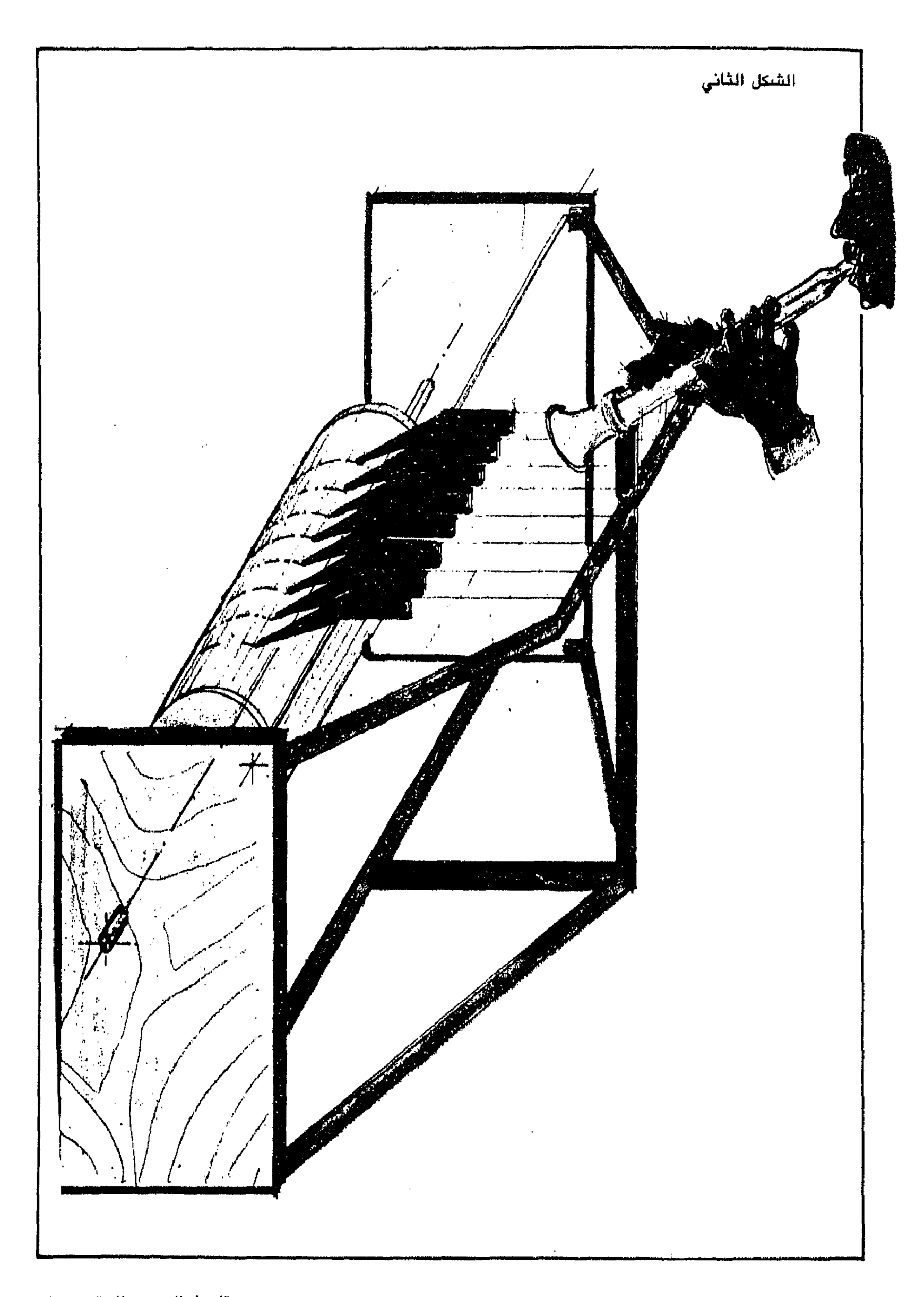
١ ــ البربخ الموسيقي: (Roue Musicale)

لقد استعمل بنو موسى بن شاكر في آلة الزمر البربخ الموسيقي المعد لتقطيع الألحان والأنغام الأمر الذي يسمح لنا بأن نعتبرهم أول من خطا هذه الخطوة في حقل الفيزياء الميكانيكية لأن هذا البربخ هو الركن الأساسي في الارغن الميكانيكي (Orgue Mécanique) الحديث العهد على حد قول المراجع الأجنبية. أن الموسوعة الكبيرة (La grande encyclopédie Larousse Tome III) تفيد ماقوله بأن البربخ الموسيقي أي (Roue Musicale) لم يكن له وجود قبل أواخر القرن الخامس عشر وأن (Salomon de Causs) أول من استعمله لاعطاء نغمات موسيقية معينة من الارغن المائي الذي صممه.

وبذلك تؤكد هذه الموسوعة بأن مخترع الارغن الميكانيكي هو (Salomon de causs) في أواخر القرن الخامس عشر.

أما المخطوطة التي نحن بصدد دراستها ومن الشكل العام للآلة يتضح لنا بأن العرب هم السباقون دائماً الى الاختراعات الحديثة وان بني موسى هم بحق مخترعو الارغن الميكانيكي وبهذا نستطيع أن نسمي آلتهم هذه «الأرغن المائي الميكانيكي» (Orgue Hydrauli-que mécanique).

وحيث أن الآلة تعمل بنفسها تلقائياً بواسطة دواليب الماء وبما أنها ليست بحاجة الى عازف خاص (Organiste) لذلك فإنها أوتوماتيكية وبهذا فإن آلة بني موسى تستحق فعلاً لقب الأرغن المائي الميكانيكي الأتوماتيكي. (Orgue


الشكل الثاني

.Hydraulique automatique)

والجدير بالذكر بأن الأرغن وبصورة عامة يحمل عدداً من المزامير (Tuyaux) يخصص كل واحد منها لنغمة معينة وفقاً للأنغام الموسيقية المعروفة أي دو ـ ري ـ مي ـ فا ـ صول ـ لا ـ سي ـ فيكون لدينا بذلك سلم موسيقي كامل.

أما بنو موسى فقد اقتصروا على السرناي ذي التسع ثقوب وحددوا نغمة كل ثقب. فيصبح لدينا بذلك السلم الموسيقي بنغماته السبع يضاف اليها نغمتان تكونان بمثابة الضعف .(Octave)

٢ ـ الطريقة التي وضعها بنو موسى لتوزيع الشظايا على البربخ الموسيقي وفقاً للحن معين:

لم يقتصر بنو موسى على إستعمال البربخ الموسيقي بل أعطوا مباشرة طريقة علمية لتوزيع الشظايا على ظهر هذا البربخ. وهذه الطريقة تشبه الى حد بعيد الطريقة الحديثة المسماة بالتسجيل الخطي (Enregistrement Graphique) وهذه الطريقة تعمل بها في جميع الميادين وخاصة لدراسة حركات الأجسام الصلبة واهتزازاتها.

وقد فسر بنو موسى طريقتهم في المقطع التالي: «فإن نتخذ دائرة من خشب أو نحاس ونجعلها عظيمة وليكن مقدار قطرها ذراعين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك ونصيرها في حلقة البكر العظام التي يستعين بالثيران بالدلاء العظام والخراطيم على ماجرت العادة غير أنا نصير القطر أعظم من ذلك بكثير ونلطخ على الموضع الذي يقوم مقام الموضع الذي يدور عليه الحبل في تلك البكر شمعاً مسوداً مثل الذي يفعله الروم ويلطخون به على الألواح في الكتاب لكي يؤثر فيه كل شيء يخط به عليه أثراً يبقى فيه. ثم يحتال بهذه البكرة العظيمة حتى يديرها الماء دوراناً مستويا معتدلاً ليس بالسريع جداً ولا بالبطيء ويكون دوران البكرة باستواء. ثم يركب فوق البكرة من غير أن تماسها سرناي وتركب فوق كل ثقب من السرناي بقدر أربع أصابع مسطرة مقتدرة الطول وتجعل المساطر الثمانية التي هي بحذاء الثقب الثمانية في السرناي بقدر



على محاور في سمت خط واحد مستقيم وتكون أطرافها من جهة واحدة تقع على سطح البكرة الذي عليه الشمع المسود من تلك الجهة وأطرافها الأخر المسامتة لثقب السرناي تعلق بها خيوط تشد كل خيط منها بأصبع الزامر التي على ذلك الثقب المسامت للمسطرة لكي اذا رفع الزامر اصبعاً من أصابعه عن ثقب من ثقب السرناي سقطت المسطرة التي ربطت تلك الأصبع على البكرة والبكرة دائمة الدوران باعتدال كما قلنا فترسم تلك المسطرة حصة تلك النغمة في ظهر البكرة على الشمع فإذا زمر الزامر من الدور من ذلك اللحن نظرنا الى رسوم مسطرة على ظهر البكرة على الشمع وعرفنا بذلك مدة كل نغمة وترتيب بعضها خلف بعض حتى

تعرف أيها يتلو صاحبها ثم نعمل البربخ الذي جعلناه لتقطيع النغم بحصة نغمة نغمة كما وصفنا على قدر ما يكون من الرسوم على الشمع وذلك ما أردنا أن نبين».

من هذا الوصف الدقيق لطريقة تقطيع النغم استطعنا استخراج الصورة رقم (٢) التي توضح عملية تسجيل النغم على الشمع فنعرف بذلك مدة كل نغمة ومركز ترتيبها بالنسبة للنغمات الأخرى.

وبهذه الصورة نكون قد اعترفنا بأن بني موسى هم واضعو نواة طريقة التسجيل الخطي (Enregistrement graphique).

٣ ـــ الزامر الأتوماتيكي:

لم يكتف بنو موسى بوصف الآلة بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ودخلوا في حقل الدمى المتحركة (Les automates) فوصفوا الزامر الأتوماتيكي (Flutiste automatique) الذي يعتبر أول دمية متحركة ناطقة تعطي نغماً موسيقياً معيناً، اذ أن علماء اليونان كتبوا الكثير في هذا المجال وتركوا لنا ارثاً ثميناً بالنسبة للدمى المتحركة بل والمسارح المتحركة ولكنها كانت جميعها صامتة.

ولم تظهر دمى متحركة وناطقة الا في مخطوطة فيلون البيزنطي وهذه الدمى هي طيور ترفرف بأجنحتها وتعطي زقزقة. ولكننا لا نستطيع اعتبار تلك الزقزقة بنغمة موسيقية لأنها صادرة من أنبوب هواء يدخل في جسم الطير وينتهي عند منقاره حيث ثبتت الحبة المصوتة.

أما الزامر الأتوماتيكي الذي وصفه بنو موسى فهو يرتكز على بناء الآلة الأساسية أي الأرغن ويستطيع بذلك أن يزمر لنا لحنا كاملاً. وفيما يلي وصف الزامر كما ورد في المخطوطة.

«واذا أردنا أن نتخذ ذلك في صورة انسان فإنا نصير هذه الآلة كلها مستورة في داخل بدن تمثال أو في موضع آخر ويظهر السرناي وهو مركب في فم التمثال ونجعل تلك المساطر التي على طرفها الأبواب وهي التي تسد وتفتح ثقب السرناي الثمانية هي أصابع التمثال ونعطف أطراف المساطر التي عليها (د) في داخل ساعدي التمثال حتى تنتهي الشظايا على بربخ (هـ) في داخل التمثال لكي لا يظهر من جميع الآلة الا السرناي فقط وأصابع التمثال المشكلة بالأصابع فإذا أطلقنا في الآلة الماء وصيّرنا مسكن الريح الى فم التمثال وخرج من الحبة وأدى الصوت في السرناي ثم تحركت الأصابع على السرناي كما وصفنا فقد زمر التمثال تلك الألحان التي ألفناها كما يزمرها الانسان الزامر ويخفف أيضاً ايقاع اللحن ويثقله وينتقل من لحن الى لحن كما وصفنا وذلك ما أردنا أن نبين».

من خلال هذا المقطع استطعنا استخراج الصورة رقم (٣) التي توضح وضع التمثال حاملاً الزمر وكيفية تثبيت المساطر التي تعمل مكان الأصابع بواسطة البربخ الموسيقي.

٤ ـــ السلم الموسيقي الذي اتبعه بنو موسى في المخطوط:

ثم اختتم بنو موسى دراستهم هذه بتحديد النغمة الموسيقية الصادرة من كل ثقب من ثقوب السرناي فعمدوا بذلك الى مقارنة كل نغمة مع النغمة المقابلة لها والصادرة عن أوتار العود فقالوا بذلك:

«فنغمة الثقب الأول وهو مما يلي الفم هي مساوية للصوت الخارج من تحت خنصر الزير وضعف مطلق المثنى والثقب الثاني هو مساو لخنصر الزير وضعف وسطى المثلث.

والثقب الثالث من الناي هو مساو لبنصر الزير وضعف سبابة المثلث.

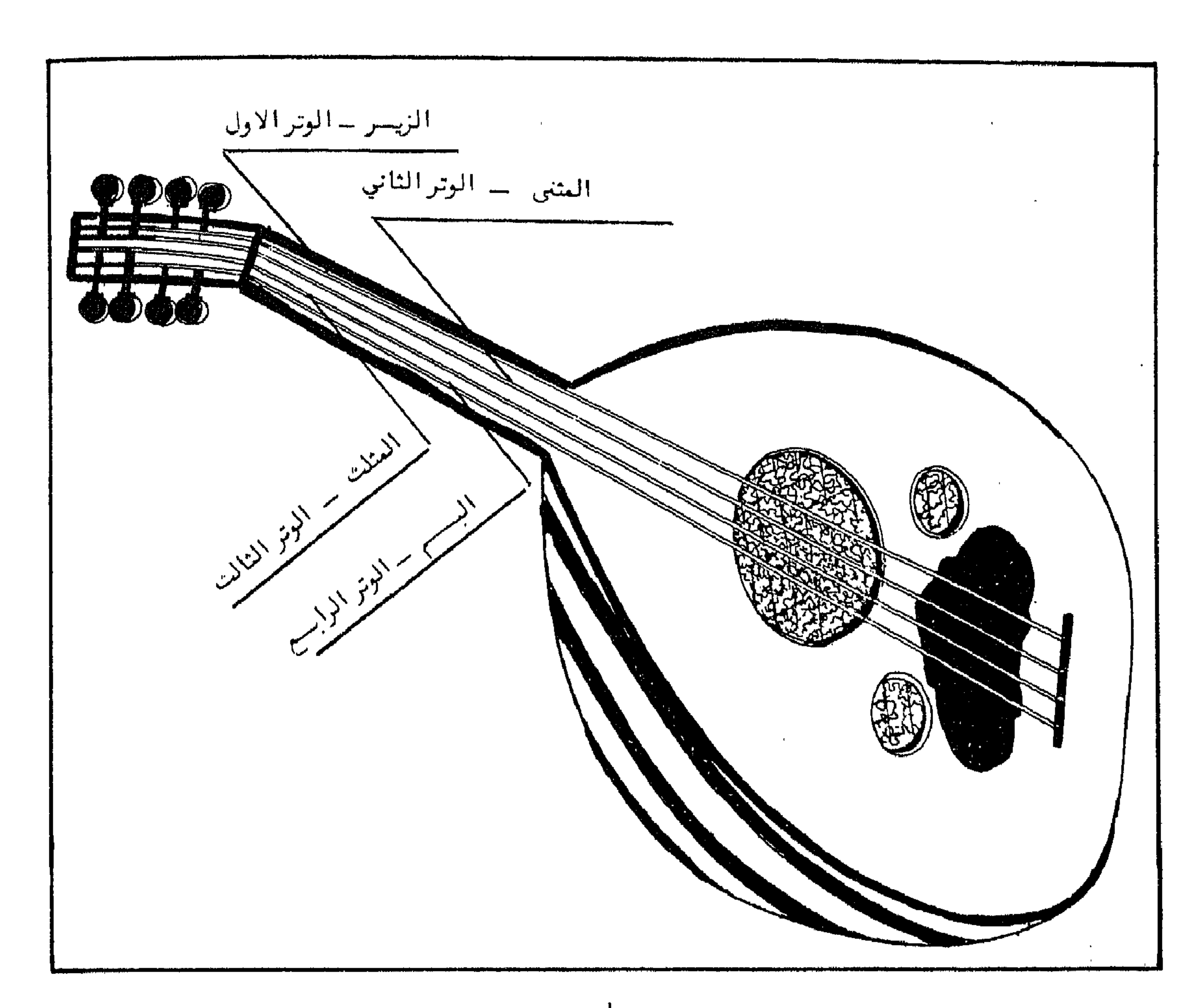
والثقب الرابع هو مساو لسبابة الزير وضعف مطلق المثلث.

والثقب الخامس هو مساو للزير وضعف وسطى البم. والثقب السادس هو مساو لبنصر المثنى وضعف سبابة البم ووجدته بالمحنة وهو وسطى المثلث.

والثقب السابع وهو مساو لسبابة المثنى وضعف مطلق البم. والثامن هو مساو لمطلق المثنى وهو أيضاً نصف نغمة الثقب الأول.

والثقب التاسع هو مثل وسطى المثلث ونصف نغمة الثقب الثاني التي هي مثل خنصر الزير كما بيّنا قبل»

لابد لنا في هذا المجال من توضيح أسماء



أوتــار العود لكي نستـطيع استخــراج السلم الموسيقي المتبع.

العود:

العود آلة موسيقية شرقية قديمة العهد لها تاريخ طويل بالنسبة لتطورهــا وبراعــة العزف عليهــا. ولكن يكفي أن ننــوه بتفــوق العــود وسيطرته على جميع الآلات الشرقية على العموم والعربية على الخصوص حتى انه تخطّى الأمم الشرقية على أنواعها وانتقل الى الأندلس بانتقال العرب اليها وتعداها الى اوروبا، وانتقل اسمه معه ولازمه في كل مراحل تطوره فكان ينطق به في جميع اللغات الأوروبية.

العود كما قيل فيه «سلطان الآلات ومجلب المســرات» وهــو الآلة الذي يعتمــد عليهــا في التلحين والغناء.

والعود القديم لا يختلف كثيراً في الشكل عن العود الحالي ولكن كان عدد الأوتار يقتصر على أربعة تدعى من الأغلظ الى الحاد البم، المثلث، المثنى الزير.

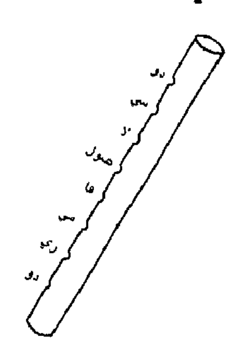
ولكل وتر نغمته الأســاسية وتــدعى مطلق الوتر ثم يعطينــا ثلاث نغمــات أخرى عنــدما يحبس جــزء من طوله بــالسبــابــة أو البنصر أو الخنصر. فعنــدما تقــول مثلاً خنصر الزيــر فمعنى ذلك بأن الدوسة تكون بالخنصر عــلى الوتر الذي يدعى الزير.

ان الشكل رقم (٤) يعطينا بوضوح أسماء الأوتار ومركزها على زند العود. أما بــالنسبة للدوسات فهي موزعة بالجدول رقم (٥)

فإذا ما عادلنا النغمات الصادرة من ثقوب السرناي مع نغمات أوتار العود كمــا ورد في المخطوط واعتمدنا بأن مطلق وتر البم يعــادل (لا) حديثاً فإننا نحصل على السلم الموسيقي التالي:

	الزير	المثنى	المثلث	البم
مطلق الوتر	دو	صول	ري	لا
السبابة	ري	لا	مي	سي
الوسطى			فا	دو
البنصر	مي	سي		
الخنصر	فا	دو	صول	ري

أما بالنسبة للسرناي فإن النغمات هي التالية:



فيكون بنو موسى بذلك اول من حدّد النغمات الصادرة في كل ثقب من ثقوب السرناي ثم أتى بعدهم الفارابي الذي أعطاها بصورة واضحة جداً مع تبيان المسافات بين كل نغمة ونغمة.

فبهذه الدراسة نكون قد كشفنا النقاب عن جزء صغير من اختراعات العلماء العرب علنا نستطيع في أبحاث مقبلة أن نظهر الحقائق العلمية التي تكمن في المخطوطات العربية المنتشرة في مكتبات العالم أجمع.

■

الهوامش

(١) تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج الجبري ص ٢٦٤ ــ بيروت ١٨٨٠.

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٣٩٣ ــ ٣٨٨.

(٣) تاريخ الحكماء لجلال الدين بن القفطي ص ٣١٥.

(٤) مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية ماجد عبد الله شمس.

(٥) ماجد عبد الله شمس.

(٦) هو علي بن سهم بن الطبري ولد في مرو عام (٨٠٨م) وهو طبيب سرياني أصلاً ولغة. أقام في طبرستان واعتنق الدين الاسلامي عندما طلب منه المتوكل ذلك ومن مؤلفاته «فردوس الحكمة والدين والدولة».

(٧) المشرق ١٩٠٦ العدد الأول.

(٨) هنري جورج فارمر The Organ of Ancient Wiedman Eilhard UEBER Musikantomaten bei den Araben. 1909 page 164-185.

(٩) الشبه: النحاس الأصفر.

(١٠) باب مطحون: باب صغير يدور حول محور خاص يطبق من قبل نفسه.

(١١) مسامتة: مقابلة.

(١٢) شظية جمعها شظايا قطع صغيرة مختلفة الحجم من خشب أو معدن تثبت على البربخ وفقاً للحن المطلوب.

(١٣) Vitrius on Architectura edited from the harleian manuscrit 2767 and transtated into engish by frank granger.

■



جزء من أكبر مقبرة في العالم لعصور ماقبل التاريخ ولا تزال باقية، في عصر دولة ديلمون في جزر البحرين حوالي الألف الثانية ق.م. ويقدر عدد القبور فيها بـ ١٧٠,٠٠٠ قبر.

جوانب من الترابط والانقطاع بين أجزاء منطقة شرق الجزيرة العربية قبل الإسلام على ضوء أعمال البعثة الأثرية الدنماركية

الحلقة الأولى

احمد عبيدلي

شكلت الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والحضارية على طول المنطقة وعرضها والتي ستكون منطقة بروز الاسلام وامتداده، وبالذات في جزيرة العرب والشام والعراق، الخلفية التاريخية التي قدمت لظهور الاسلام وأوجدت الظروف لتشكل منطقة الوطن العربي، والتي ستأخذ الحضارة العربية الاسلامية كل زخمها وعمقها عبر أرجائها بالرغم من الدور البالغ الأهمية والشديد الاتساع والعمق والذي قام به الاسلام في تكوين الشخصية العربية، وبلورتها، إلا أن شروط تكون تلك الشخصية وضرورات بروزها كانت قد أخذت في النشوء والتراكم على مدى القرون الطويلة، وعبر التطورات الكثيرة التي مرت بالمنطقة قبل مجيء الاسلام.

ونركز في بحثنا هذا على شرق الجزيرة العربية والممتدة من عمان جنوباً وحتى الكويت شمالاً، ناظرين في تفاعلها فيما بين اجزائها، وعبر تفاعلها مع منطقة وادي الرافدين بحضاراتها السومرية، والأكدية والأشورية والبابلية، وحضارات بلاد اليمن، وذلك كما برزت من خلال أعمال البعثة الدنماركية التي قامت بالتنقيب في بلدان منطقة شرق الجزيرة العربية.

ويتميز البحث الأثري بميزة هامة، وهي أنه بالرغم من أخذه لما يقوله الأولون العرب والأجانب في مختلف كتاباتهم، إلا أن التركيز الأساسي يأخذ مجراه معتمداً على ما يحصل عليه المنقبون خلال تنقيباتهم من إثباتات وما يعثرون عليه من لقى في مجساتهم، ومواقع تنقيباتهم الأثرية، لتشكل الأدلة والمؤشرات لحركة سير التاريخ وتطوره. ويقيم المنقبون علاقة وثيقة ولكنها واضحة مع مسألة الخروج بنظريات حول رؤاهم التي يصوغونها إثر تنقيباتهم وهي تتمثل في ضرورة التمييز دوماً بين المسائل المادية التي يعثر عليها أي منقب والتي يجب أن تبقى منفصلة وبين النظريات، التي يخرج بها إعتماداً على ماتمنحه المجسات وتخرجه المجارف. ومما نود الاشارة إليه هنا أن الحديث عن جوانب الترابط والانقطاع في تلك المنطقة إنما سيتم بالاعتماد على ما يجده المنقبون من أشياء مادية من آنية فخارية، أو رُقم ونقوش، وبقايا للبضائع والمواد التي شكلت أشياء التجارة في تلك العصور، وعلى المباني والقصور والمدافن وآكام القبور التي كانت مختفية أو مطمورة، أو بعيدة عن الاهتمام طيلة القرون السالفة.

البعثة الأثرية الدنماركية:

لقد بدأت البعثة الأثرية الدنماركية أعمالها في البحرين في عام ١٩٥٣ متكونة من شخصين هما بيتر فلهلم جلوب وجيوفري بيبي. والأول دنماركي وهو دكتور في الفلسفة ويعمل كأستاذ في جامعة آرهوس لعصور ما قبل التاريخ ومدير المتحف التابع للجامعة، والذي سيعمل كرئيس للبعثات في منطقة الخليج. أما الثاني فلقد عمل بين ١٩٤٧ وحتى ١٩٥٠ كموظف لدى شركة نفط العراق القائمة في البحرين، ثم عاد ليعمل كمدير لأعمال الميدان للبعثات الأثرية المتعاقبة. ويعمل حالياً كمدير للآثار الشرقية في متحف آرهوس لعصور ما قبل التاريخ. ولقد قام جيوفري بيبي بتلخيص أعمال البعثة وتكثيفها في كتاب طبع حتى الآن أربع مرات بالانجليزية منها طبعتان في أميركا لوحدها، وذلك منذ خروج الكتاب إلى النور في عام ١٩٦٩ وحتى الآن. ويحمل الكتاب إسم **البحث عن ديلمون**. ولقد اعتمدته كمرجع لهذا المقال.

لقد كانت القبور القائمة على هيئة آكام، هي التي استثارت بيبي وجلوب وجعلتهما يعملان من أجل اكتشاف سر «أكبر مقبرة لعصور ما قبل التاريخ في العالم». وقادهما ذلك الاهتمام إلى محاولة البحث عن ديلمون والتي كانت مكاناً ذا أهمية أسطورية ودينية للحضارات الرافدية

المتعاقبة ويقول بيبي، غير أن المشروع أخذ يكبر بقوة دفعه الخاصة، وذلك حينما أخذت مشيخات سواحل الخليج الغنية بالنفط، واحدة بعد أخرى بالبحث عن عصور ما قبل التاريخ الخاصة بها. وبعد مرور ست سنوات من بداية أول بعثة للتنقيب، إنتشر ثلاثون عالماً متمكناً من علماء الآثار والبحاثين على امتداد خمس مناطق منفصلة، ولقد شكل اكتشاف مدينة بناة تلال المقابر في البحرين وتاريخها نحو ٢٠٠٠ ق.م.، حين بلغت ديلمون الأوج كقوة تجارية بحرية، واكتشاف وجود نفس السكان بعيداً إلى الشمال في الكويت، وإيغال الحضارة في الخليج العربي بعيداً في التاريخ إلى ٣٠٠٠ وفيما بعد إلى ٤٠٠٠ ق.م.، وبروز حضارة أخرى لم يجر تصورها من قبل في ساحل عمان وفي أبو ظبي، وبروز نفس الحضارة على بعد مائة ميل إلى الداخل على سفوح جبال مسقط، شكل كل ذلك النقاط الأكثر إشراقاً في قصة البعثة، وكان مبعثاً على كثير من الرضى(٣).

غير عمليات البحث والتنقيب برزت العديد من العلاقات التي قامت لتشد مختلف أجزاء تلك المنطقة إلى بعضها البعض ومنذ أقدم العصور. تلك الروابط التي قامت بين البحرين وسواحل عمان وداخليتها قبل قيام دولة ديلمون، والروابط التي قامت بين سواحل الجزيرة العربية (السعودية حالياً) وأقدم الحضارات الرافدية وهي حضارة العبيد، وقيام دولة ديلمون وربطها بين البحرين وسواحل الجزيرة الشرقية والكويت (جزيرة فيلكا)، وهناك الترابط العام والمستمر بتوالي القرون بين البحرين والحضارات الرافدية والعلاقة بين خرائب ثج واليمن. وسنستعرض فيما يلي بعضاً من تلك الجوانب:

أولاً: حضارة العُبيْد:

يذهب بيبي في عام ١٩٦٨ إلى السعودية في أول زيارة لها تتم تحت إشراف دائرة الآثار السعودية المقامة حديثاً وفي أحد الأيام يعود مع بعثته من مكان أطلق عليه اسم «جرها» بشكل مؤقت، ويروي كيف وجد في الظهران «الاكتشاف غير المتوقع» على النحو التالي:



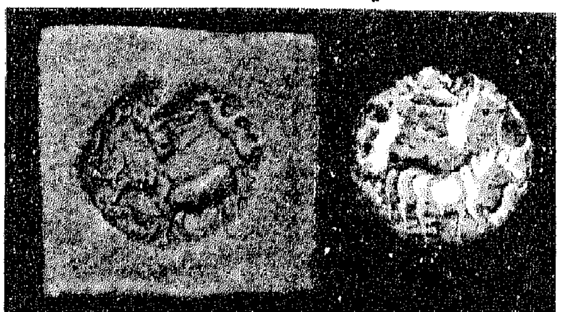
أحد المنقبين البحرانيين يعمل وسط طريق يشق بين آكام القبور

في ذلك الحين إنفجر الاكتشاف غير المتوقع، وهو اكتشاف كان علينا بأية حال أن نكون مرنين جداً لمواجهته ــ بالرغم من أننا لم نكن نعرف ماذا كان عليه بالضبط. لقد كانت هناك ملاحظة تنتظرني من جريس وهي مدرسة واحدى أكثر جامعي الفخار حماسة. تساءلت الملاحظة فيما إذا كنت مهتماً برؤية موقع يحتوي على رؤوس سهام صوانية، أو فخاريات ملونة.

ويواصل بيبي قائلاً أن اللقيات كانت منثورة على طاولة حينما وصل لرؤيتها بعد دقائق ويقول: أنها كانت مجموعة تبلغ العشرين من رؤوس السهام اللاذعة ذات الشوكة ومجموعة من أدوات صوانية مثل السكاكين والقواشط والمخارز. وكان هناك ما يقارب المائتين من كسر الفخار، من آنية رقيقة وصفراء مخضرة،

زخـرفت بأنماط هندسية باللون البني الغامق. لقد وقفت غير قادر على النطق فلقد كان ذلك خارج كل أحلامنا، ولقد عرفت فجأة ماذا كانت عليه السوية السفلى بتاروت، بكسرها الصفراء غير المصنفة، وبقـطعها الثـلاث من الصوان المصنع، لقد كانت جريس تنظر إلي بقلق خوفاً من أن أهـز كتفيّ وأقـول «إنها إسـلامية»، ولكنني قلت متمتماً، «ولكنها... ولكن تلك تعود للعبيد».

وبعـدها يتحـدث ببي عارضـاً أهمية ذلك الاكتشاف وخلفيته فيقول: أنه في وقت مضى من حـوالي ٥٠٠٠ ق.م. قـدمت أوائـل عنـاصر الاستقـرار الزراعي إلى منـاطق المستنقعـات البور، على طول وادي دجلة والفرات الأسفل، تلك المنطقة التي ستكـون فيما بعـد سومـر،



ختم لأحد تجار ديلمون يحمل صورة غزال

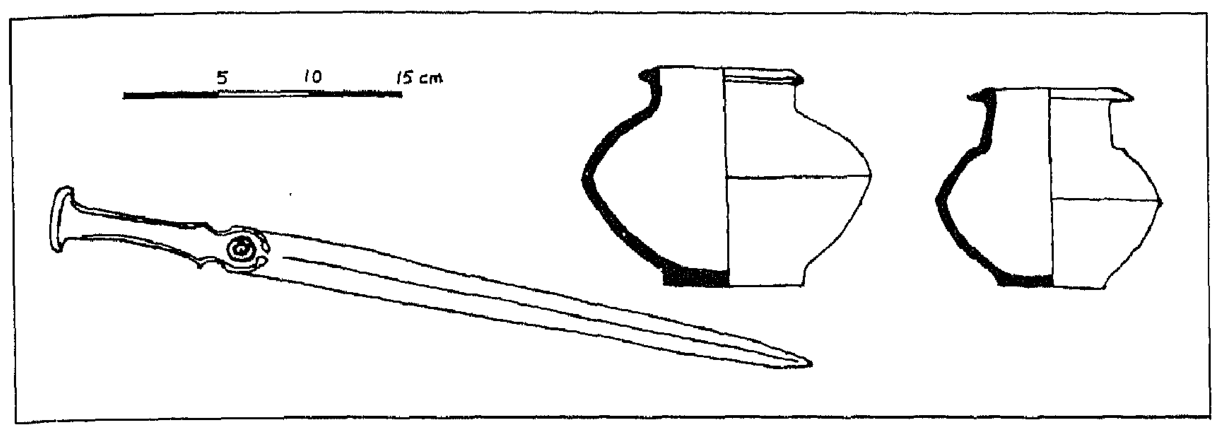
وستستمر لتكون فيما بعد بابل أيضـاً. ولقد صنع أولئك القادمون الأول والعـائدون للعصر الحجري فخاراً من طين أصفر مخضر مزخرف بأشكال هندسية بلون بني غامق ولم يعرف أحد من أين قدموا، فلربما قدموا من الجنوب أو من الشرق، وخلال ألف سنة تمكنوا من استئناس بـلاد الرافدين السفـلى، وانتشر فخـارهـا إلى المناطق التي كانت مسكونة حينئذ من شمال العـراق وحتى إلى سوريـا. ولقـد أطلق عـلى حضـارتهم إسم العُبيدْ.

ويصف ببي الموقع نقلاً عن جريس بأنه كان موقعاً سطحياً، وهو عبارة عن تل واطىء وسط كثبان الرمال على مبعدة ميل واحد من هـذا الامتداد من الساحل. فهنا وكما في الجنوب من حيث قدمنا عـلى التو كـان هنا امتـداد كبير للسبخة بين الأرض والبحر، وقد استقام امتداد من تـلال واطئة تحجـز السبخة عن البحـر. وفكرت أنه لابد إنها كانت عبارة عن سلسلة جزر لستة أو سبعة آلاف سنة خلت، وحينما كانت السبخة بحراً. وقالت جريس أنه لم تكن هناك أية آثار لمباني، ولكن كانت هناك قطع من الجص تظهر واجهة ناعمة على أحد الجوانب، ودمغة ربطات معصوبة من القصب على الجانب الآخـر. وأرتني نصف دزينة من تلك القـطع والذي كان برهاناً واضحـاً على نمـط البيوت العـائدة لأولئـك العرب من العصر الحجـري، وقريبة إلى التجصيص الطيني الذي يظهر بدوره دمغـات القصب على الجـانب الحجـري، والتي وجدت بمواقع العبيد الأخرى. واحتوت القطعة الكبرى على أشياء أخرى تحاكيها. لقـد تغطى جانبها الناعم بطبقة من قشر حيوانات بحريـة. وقالت جريس، نعم لقد وجدت ذلك عـلى جانب الموقع الأسفل.

إلى هنا وينتهي حديث ببي. وعند ذلك الحد تقريباً يشير المؤلف إلى التساؤل الطبيعي وهو مدى إمكانية بـروز الاحتمال القائل بأن تكون تلك المنطقة من جزيرة العرب هي المنطقة التي إنـطلقت منها المـوجات البشـرية الأولى التي حـرثت التربـة ومهـدتهـا لقيـام الحضـارات الرافدية، ويضع في الواجهة التساؤل المشروع حول مدى الاتصال القائم بين سكان جـزيرة العرب ومناطق العراق المختلفة في تلك الفترة السحيقـة من الزمن. ولقد طرح العـديد من التساؤلات والنظريات من قبل، حول طبيعة تلك الاتصالات والروابط، ولكن ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي يتم فيها إيراد أدلة ماديـة ملموسة، ولقيات عثر عليها منقبون في مناطق شـرق جزيـرة العـرب. ولقـد عثـرت البعثـة الدنمـاركيـة عـلى مـوقعـين من تلك المـواقـع بالسعودية، وأحدها بتاروت وهي جزيرة منفصلة عن البر الرئيسي.

ثانياً: حضارة ما قبل ديلمون:

تذهب البعثة الدنماركية بهدف أساسي وهو محاولة العثور على مدينة ديلمون، وهي المدينة أو الدولة التي احتلت موقعاً أسطورياً ودينياً وتجارياً هاماً في التراث الرافدي. وأثنـاء ذلك



سيف لورستان من مجموعة ركام الأحجار بمنحدرات جبل جفيت بالبريمي حوالي ١٣٠٠ق.م. مع إناءين نموذجيين واللذين ظهر أنهما أقدم بـ ١٥٠٠ سنة أو ما يقارب ذلك.

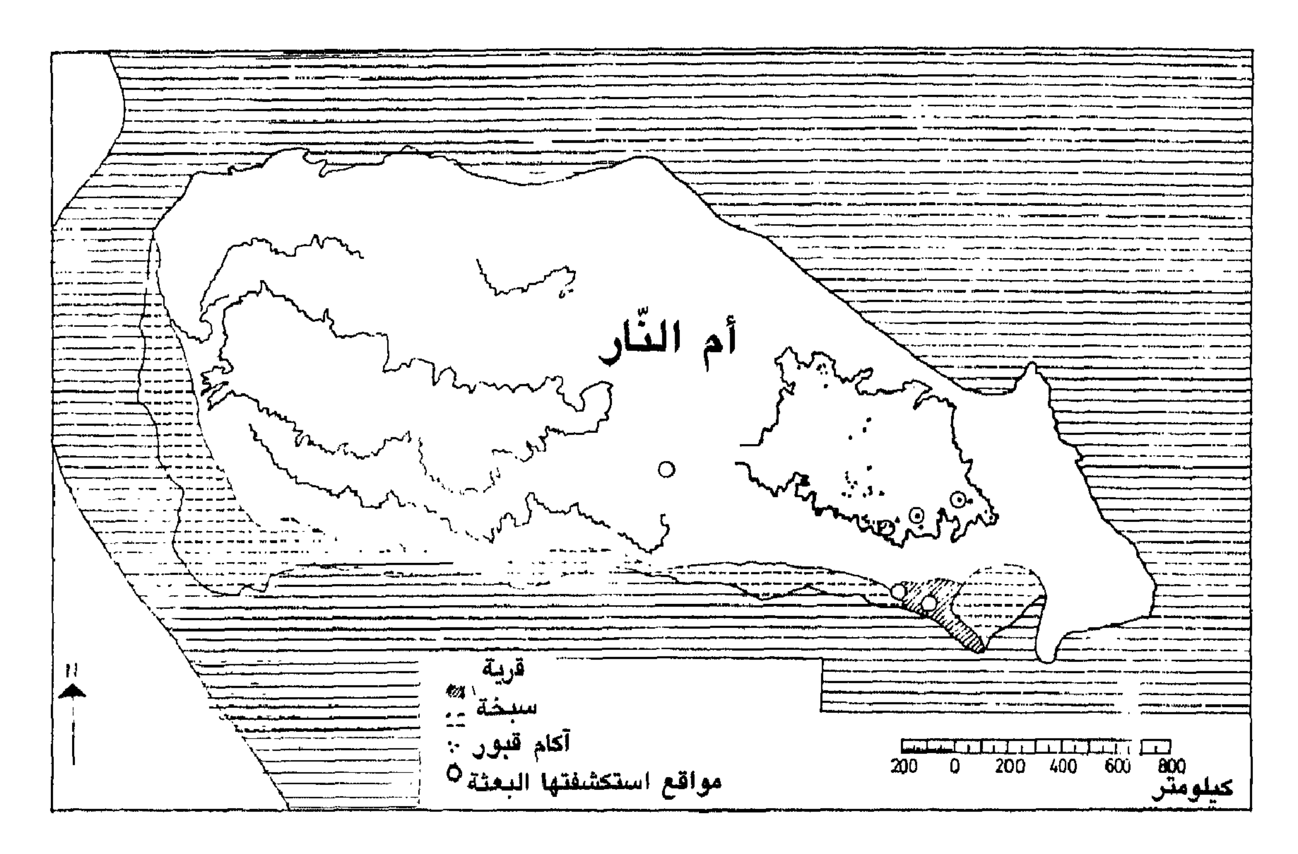
العمل وكنتيجة له تصل البعثة إلى الاستنتاج بوجود سياق لسبع مدن أو حضارات تتابعت بين بداية القرن الثالث ق. م. وحتى بداية القرن السادس عشر وهي الفترة التي قدم فيها البرتغاليون وذلك على النمط التالي وبالاعتماد على أنواع الفخار المكتشف: المدينة الأولى ــ المدينة بالفخار ذي الحواف المتسلسلة، المدينة الثانية ــ حضارة باربار وبها أختام وآكام قبور، المدينة الثالثة ــ الآنية الكاشية، المدينة الرابعة ــ «القصر الآشوري»، المدينة السادسة ــ الفترة الاسلامية، المدينة السابعة ــ البرتغاليون.

وحينما ذهبوا إلى أبو ظبي للتنقيب في جزيرة أم النار لوجود آكام قبور بها خرجوا بالاستنتاج في البداية بأن أهالي أم النار والذين عاشوا في الفترة بين ٣٠٠٠ ق.م. و٢٧٥٠ ق.م. تقريباً كانوا الجيران الغربيين لشعب الكولي وهم الذين كانوا الجيران الغربيين لشعب وادي السند، وأنه يمكن للجدال أن يمتد فيقال بأن أم النار تعاصرت والكولي، وأن حضارة الكولي تعاصرت وحضارة وادي السند أو سبقتها قليلاً. وحيث أن حضارة السند كانت معاصرة لحضارة باربار، وديلمون المبكرة، أو المدينة الثانية في البحرين. وعلى ذلك فلا بد لأم النار أن تكون قد عاصرت حضارة باربار أو سبقتها قليلاً. ويستمر بيبي في عرضه لنتائج البعثة الأثرية فيقول أنه بالمقابل كان من المؤكد أنها **ليست** حضارة باربار. فلم توجد آنية فخارية مثيلة لتلك التي وجدت بأم النار مثلاً في البحرين. وتبين بجلاء أن الاختلاف في نوع القبور، وممارسات الدفن كان جذرياً. وهكذا تستنتج البعثة أنه وعلى مبعدة مائتين وخمسين ميلاً جنوب ــ غربي البحرين،فان الحضارة التي تعاصرت وديلمون كانت مختلفة تماماً. ومهما كانت أم النار فانها لم تشكل جزءاً من ديلمون. وحينما كان بيبي يجمع الآنية يودعها الصناديق تمهيداً لشحنها تزايد لديه الاحتمال إلحاحاً بأن البعثة قد صادفت بأم النار أولى تخوم «الحضارة المفقودة» الثانية في البحر الأدنى، وهي حضارة ماجان النحاسية.

كان ذلك هو الوضع السائد والاقتناع الأكثر قبولاً من أوساط البعثة حتى شارفت البعثة على إنهاء أعمالها والتوجه إلى الدانمارك. غير أن البعثة تكتشف اكتشافاً في نهاية أعمالها بالبحرين يشكل إضافة هامة إلى سياق المدن السبع، وبعد العودة إلى الدانمارك وبحثه بهدوء وعمق في متحف آرهوس ارتدى ذلك الاكتشاف بعداً جديداً. ففي عام ١٩٦٤ اختارت البعثة منطقة جديدة للحفر وهي عبارة عن امتداد من جدار المدينة القائم على مسافة عشرين متراً إلى الشرق من المنطقة التي عثرت فيها على جدار ديلمون الشمالي، مستهدفين توسيع معرفتهم ومعلوماتهم عن الفترات الأولى للاستيطان البشري والتطور الحضاري في ديلمون. ولقد حصلوا على جوانب هامة في هذا الاتجاه. ولكن ما يهمنا هنا هو ذلك الجانب الذي بدا خارج

نطاق سياق السبع مدن. يروي بيبي أنهم داوموا على الحفر حتى وصلوا إلى ديلمون وهي أولى المدن المحصنة في البحرين وداوموا على الحفر مرة أخرى فوجدوا جدران منازل تمتد تحت الجدار، وبين تلك الجدران وجدار المدينة تستلقي مرة أخرى الشريحة المحروقة، والتي سبق لهم أن صادفوها في مجساتهم السابقة، والتي تظهر أن المدينة غير المحصنة قد دمرت بالنار. ثم يصلون إلى الرمل في النهاية. ولكنهم عندما قاموا بتصفية السطح الصخري تماماً تمكنوا من أن يروا بأنه يتكون من الفروش وهي عبارة عن نوع من الصخور من الكلس

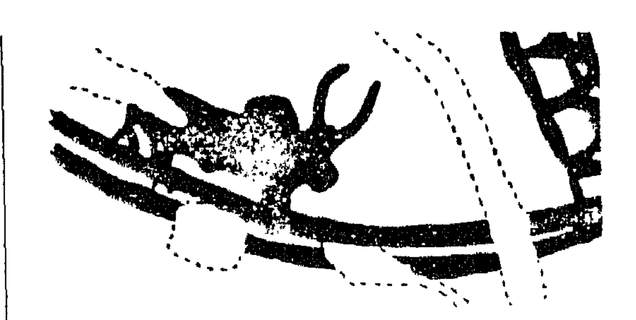
واصلت البعثة الحفر، وبعد قدمين عثرت على شرائح متبادلة من الفروش والرمل، وكلها تحتوي على كميات من كسر الفخار، حتى وصلوا إلى طبقة من الطين المجدب وتحته رمل، لم يكن يحتوي على أية كسر من الفخار. ولقد شكل ذلك النهاية، ولكن بعد أن حصلت البعثة على ستة صناديق من كسر الطبقات، والتي كما يقول بيبي لابد أنها كانت أبكر من أية كسر عثرت عليها البعثة حتى ذلك الحين في البحرين ويصفها على النحو التالي «فغالبيته (أي الفخار) كان اسمك ومن آنية بلون القش، وبأطراف فتحات وقواعد لنوع جديد ومختلف تماماً. ها



الأولي الذي يتكون على ما يبدو بسرعة كبيرة في مياه الخليج الضحلة المالحة، من كتل الأصداف والمرجان والأنواع الأخرى من الحطام، ويمكن أن يقص في ألواح رقيقة ويستخدم حالياً بكميات كبيرة كمادة بناء. وحينما قاموا بتنظيف تلك الطبقة وجدوا أن هناك كسر فخار مطمورة فيها. فقاموا بكسر الفروش على مسافة أقدام عدة مربعة، فوجدوا الرمل تحتها، وبوسطه كانت كسر الفخار لا تزال هناك.

قد عثرنا على حضارة جديدة ولم تكن متوقعة أبداً، وهي أقدم من الحضارات التي أطلقنا عليها ديلمون المبكرة، قبل الأوان».

تعود البعثة إلى الدانمارك، وتصل بعدها الصناديق الحاوية لتلك الكسر. ويستعيد بيبي كيف أنه قد قام بعد الانتهاء من ترتيب الشحنة ووضعها على الرفوف بجذب الستة صناديق من الكسر الموجودة ضمن طبقات الفروش الواقعة ضمن البوابة الشمالية لمدينة البحرين، لفحص



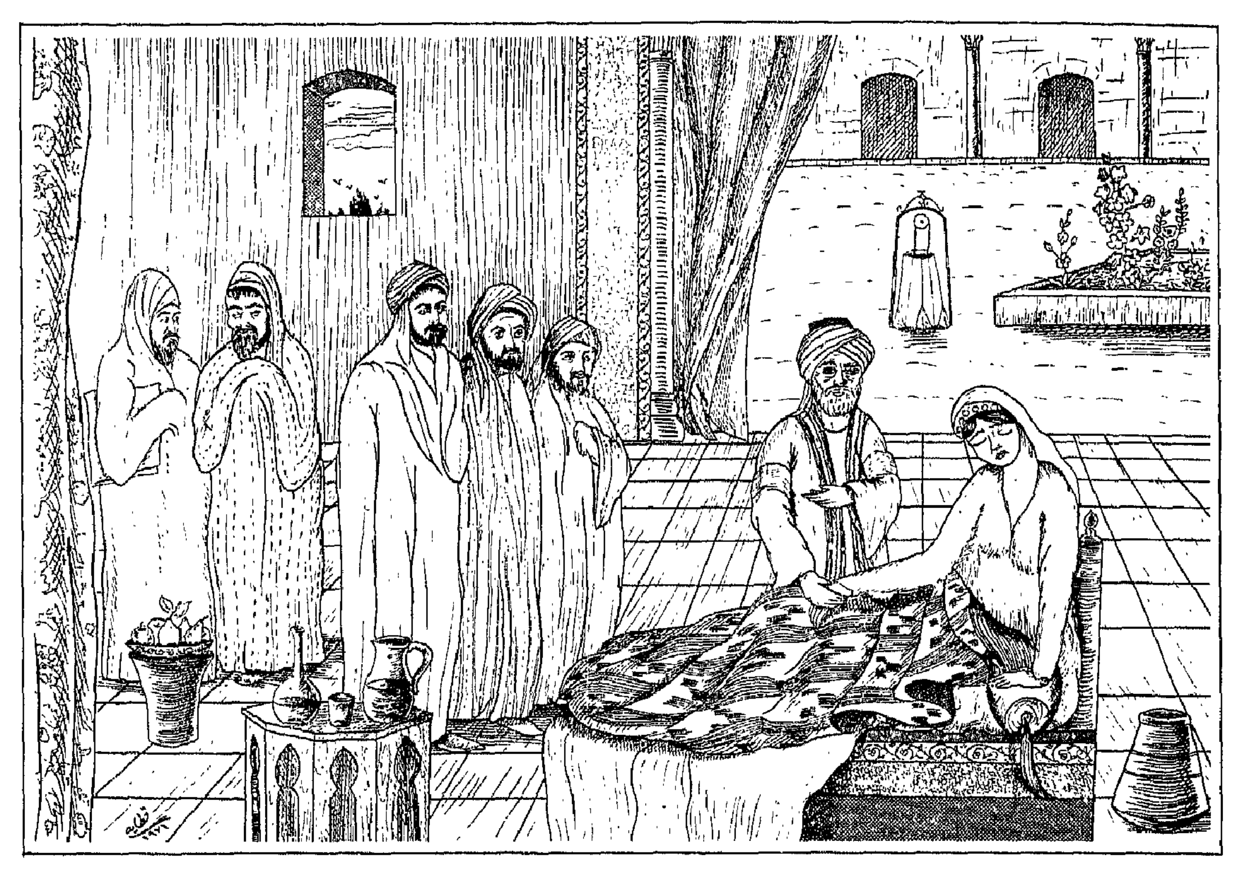
ثور الزيبو، وهو يدمغ عادة على الآنية السندية والكولية، ويرى هنا يزين رقبة زهرية من أحد مدافن أم النار.

ذلك الفخار والذي يفوق كل الفخار قدماً بمزيد من الامعان، بينما يقوم فان ويورغن في الغرفة المجاورة في نفس الوقت بالعمل على فخارها العائد لآخر ثلاثة مواسم من العمل على موقع القرية بأم النار.

ولقد استغرقهم العمل أسبوعاً قبل أن يعرفوا أنهم إنما كانوا يبحثون في نفس الحضارة. فما أن بدأوا في النظر إلى الكسر معاً، وجنباً إلى جنب لم يعد هناك أي شك حول ذلك. فلقد تكونت الغالبية الساحقة من الآنية الفخارية من آنية كبيرة كروية أو على شاكلة البيضة، من مادة سميكة بلون برتقالي مصفر، أو بلون القش. لقد كانت حواف ثقيلة ومحكمة الصنع، وقد أنثنت بحدة للخارج، دون أي رقبة على الاطلاق. ولقد كانت القواعد غير عادية، حيث تشكلت على شكل قاعدة دائرية عميقة لصقت بسافل الاناء المستدير. ولقد زخرفت العديد من الآنية بحواف ألصقت بها، اوبحافة مستديرة منفردة أو مضاعفة تتلوى متعرجة على جزء الاناء الأعلى. لقد كانت تلك العلاقة هي أول علاقة من أي نوع تعثر عليها البعثة بين تنقيباتها في البحرين، وتلك القائمة بأبو ظبي. لقد كانوا حتى ذلك الوقت يرون تلكما المجموعتين من التنقيبات كما لو كانتا في أقصى طرفين متعاكسين في العالم بدلاً من أن تكونا على مبعدة مائتين وخمسين ميلاً كلا منها عن الأخرى، وقد فصلت بينما ألوف السنين، بدلاً من أن تكونا متعارضتين حقاً، كما كانوا يميلون للإعتقاد. والآن وقد برزت العلاقة، يذكر ببيي أنه تبقى عليهم أن يحاولوا تبيان مضامينها.

يذكر ببيي أن ذلك لايجب أن يعني تطابق الحضارة التام كما كانت عليه الحال في «حضارتي باربار» في البحرين والكويت حيث كان هناك تطابق تام في الآنية الفخارية والأختام والآنية الحجرية وفي الأسلحة. أما هنا فتوجد اختلافات بارزة. ففي كل الطبقات المبكرة في البحرين تواجدت الآنية ذات الحواف المتسلسلة جنباً إلى جنب مع الفخار الجديد، وحتى في أعمق الطبقات بين الكل، لا تزال تكون عشرة بالمائة من كل كسر. ولكن لم توجد حتى كسرة واحدة من الآنية ذات الحواف المتسلسلة والعائدة للمدينة الأولى التي سبقت مدينة ديلمون بالبحرين، بمستوطنة أم النار. وبرزت في كل الثلاث طبقات العائدة لمستوطنة أم النار كسر من الآنية المطلية التي عثرت عليها البعثة بوفرة في غرف المدافن هناك. ولكن بالرغم من أن مواد البحرين قد احتوت بالفعل على كسر ملونة متفرقة، إلا أنها لم تشبه تلك العائدة لأم النار على الاطلاق. لقد بدا كما لو أن الذين انتثرت كسرهم الفخارية قبل أن تبنى المدينة الأولى وعلى ساحل البحرين الشمالي ربما كانوا من خليط من الحضارات. ويقول ببيي أن الأوزان السندية التي اكتشفت في البحرين المبكرة كانت تشير إلى أن البعثات التجارية الأولى قد قدمت من الشرق، ويتساءل هل يمكن أن يكون مهاجرون من عمان قد قدموا، وهم يستعملون آنية أم النار الفخارية ويضعونها، وقد وجدوا سكاناً هناك من قبل يستعملون الآنية ذات الحواف المتسلسلة ويصنعونها، وبالتالي أسس الشعبان في ألفة أول محطة تجارية هناك على شاطىء البحرين.

وعند هذا الحد يتوقف تقرير البعثة الدنماركية. وهكذا يتضح أن العلاقات البشرية بين ساحل عمان والمسمى حالياً باتحاد الامارات والبحرين تقرب من الخمسة آلاف سنة، وهي تتوازى مع محاولات الاستيطان الأولى للبشر في كلتا المنطقتين. وأن تلك العلاقة قد تداخلت إلى حد المشاركة في النشاط الاقتصادي الذي كان سيقوم وسيتعاظم والمتمثل في التجارة. ■

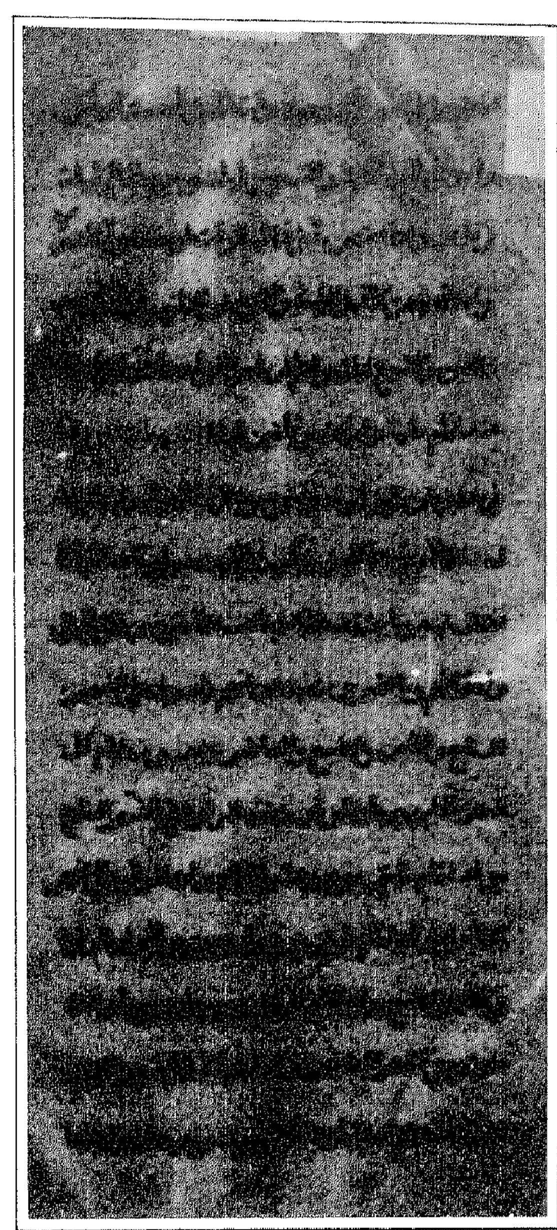


مساهمات الأطباء العرب في الأمراض النسائية والتوليد

د. محمود الحاج قاسم محمد

لقد كتب الكثيرون من الأطباء العرب والمسلمين في هذا الباب كتابات رائعة وكان علي ابن ربن الطبري أول من كتب في فسلجة الأعضاء الأنثوية وخلق الجنين وطبيعة الحبل والولادة. أما أول من نهج منهج الاختصاص في ذلك فكان ابن ماسويه في مؤلفه (لمَ أمتنع الأطباء من تطبيب الحوامل في بعض شهور حملهن). وخصص الرازي جزءا كبيرا في موسوعته حول امراض النساء والولادة وكذلك علي بن العباس والزهراوي وابن سينا، واضافة لهؤلاء نكاد لا نجد كتابا يبحث في طب الأطفال لأحد منهم الا والحديث عن الأمراض النسائية والعناية بالحامل والولادة يسبق ذلك، فعريب بن سعد في كتابه الجنين وتدبير الحبالى والمولودين، وأحمد بن محمد الطبري في كتابه المعالجات البقراطية، وأحمد بن محمد البلدي في كتابه تدبير الحبالى والأطفال والصبيان، هؤلاء كلهم وآخرون غيرهم خير دليل لما نقول، حيث نجد لهم كلاما جميلا وافيا يدل على اطلاع وخبرة ليست بالقليلة في هذا الباب ولا يمكننا الاحاطة بكل ما جاء ذكره لديهم في هذه العجالة، لذا سوف نكتفي بذكر أبرز وأهم النقاط التي تعكس عمق معرفة الأطباء العرب لهذا الحقل.

د. محمود الحاج قاسم محمد: طبيب مختص بطب الأطفال، مستشفى الأطفال ــ الموصل ــ العراق.



صفحة من كتاب «تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومعالجة الأمراض العارضة لهم» لأحمد بن محمد بن يحيى البلدي (المخطوطة في الكلية الطبية الملكية ـ لندن ـ وقد نشر الكتاب من تحقيق د. محمود الحاج قاسم محمد ١٩٨٠).

١ ـ الناحية التشريحية:

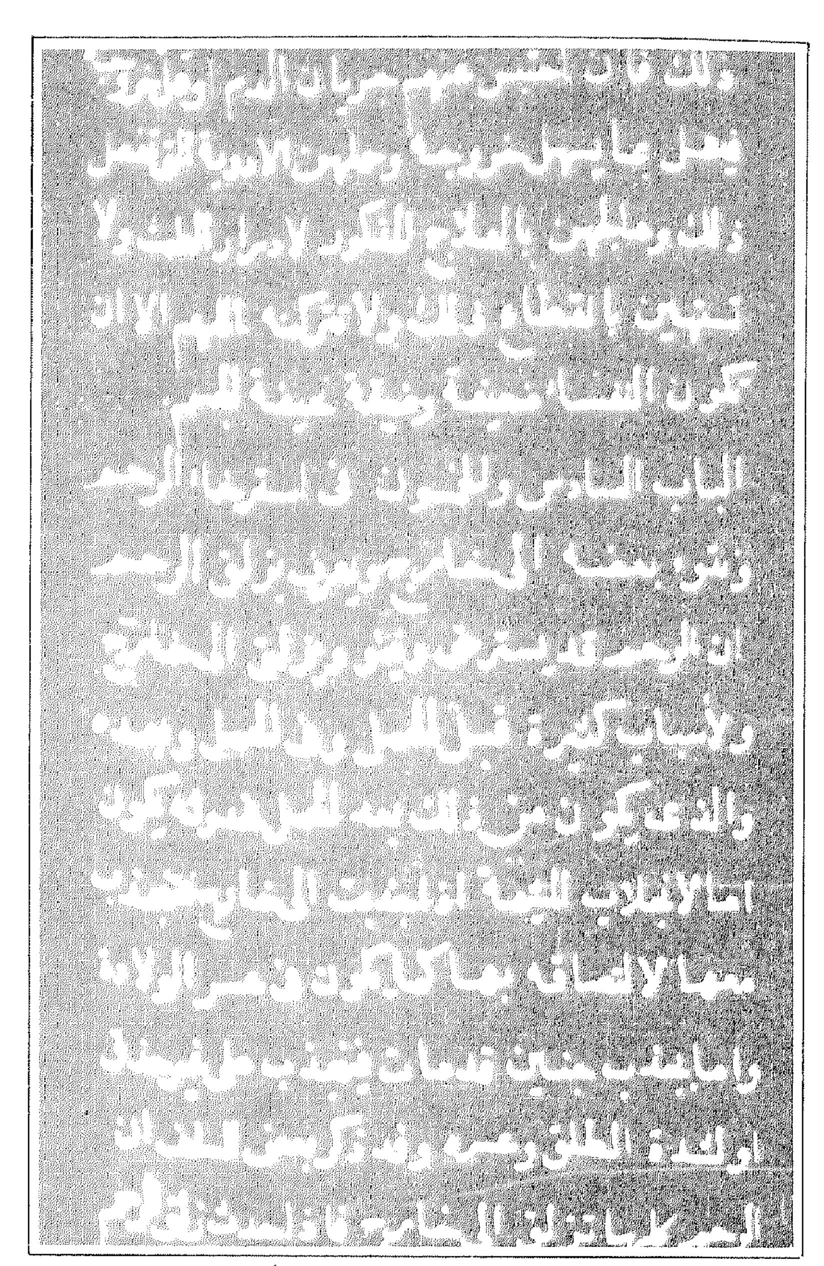
أعطى الأطباء العرب والمسلمون وصفاً «تشريحياً» يكاد يكون كاملاً للأعضاء التناسلية للمرأة، على سبيل المثال يقول علي بن العباس المجوسي في ذلك «الرحم فوق المعي المستقيم ومن فوقها المثانة، والرحم مربوطة بما يليها من الأعضاء برباطات سلسة ليمكّن فيها التمدد كل الجهات في وقت الحمل... وان بها تجويفين عظيمين، أحدهما في الجانب الأيمن والاخر في الجانب الأيسر، وهذان التجويفان ينتهيان الى عمق واحد عام لهما ويقال له رقبة الرحم. وفي كل واحد من التجويفين مواضع مقعرة يسيرة التقعر يقال لها النقر وهي أفواه العروق التي يعبر فيها دم الطمث الى الرحم. وتنتهي رقبة الرحم إلى الفرج، وهو الفضاء الذي بين عظمي العانة وهو موضوع على المقعدة وله من الخارج زوائد من الجلد يسمى البظر» ثم يذكر ألياف الرحم الداخلية في تكوينه فيقول «منها ذاهب بالطول وهذا الليف أقل ما فيه، وليف ذاهب ورابأ وليف ذاهب بالعرض» وعن المبيضين يقول «الانثيان من النساء موضوعتان عن جنبي الرحم، وبيضتا الأنثى أصغر من بيضتي الذكروشكلهما مستدير ومفرطح وجوهرهما غددي وهما أصلب من بيضتي الذكر»(١).

٢ ـ طرق الفحص:

كان الأطباء العرب والمسلمون لا يفحصون النساء بأنفسهم بل يعطون تعليماتهم للقابلات ليقمن بذلك بتوجيه منهم، وكانت القوابل تصف ما يرَيْنه فيعتمد الأطباء على هذا الوصف في التشخيص والعلاج. ومن أعجب وسائل الفحص التي ذكرها الرازي وضعه مرآة تحت المرأة ليرى كل شيء على هيئته(٢). واخترع الزهراوي منظاراً خاصاً لفحص المهبل(٢). وهو ايضاً كان أول من مارس الفحص المقعدي على الباكرات (P. R.)(٤).

٣ ـ مسألة الطمث (الحيض):

تكلم غالبية الأطباء العرب عن الطمث، أوقاته، مدته، السن الذي به يبتدىء وينتهي، وفائدته الفسلجية للمرأة. جاء في كتاب كامل الصناعة لعلي بن العباس «ان دور الطمث عند ثمان سنين، وأكثر من ذلك في اربع عشرة سنة واما انقطاعه فقد ينقطع في بعضهن في السنة السادسة والثلاثين وفي بعضهن في تمام الستين، وبعض النساء لا تطمث. واما مكوث الطمث



صفحة أخرى من الكتاب نفسه.

فأقله يومان وأكثره سبعة أيام، وما زاد على ذلك فليس طبيعياً. واما الزمان الذي يكون بين كل دورين فهو من عشرين يوماً وما فوق ذلك إلى شهرين. وما كان حدوثه بعد ذلك فهو خارج عن المجرى الطبيعي ويقال لذلك احتباس الطمث»(٥) وفرق ابن سينا بين الدم الذي يأتي نتيجة الطمث أو من اسباب إخرى فقال «ان كان النزف على سبيل دفع الطبيعة فعلامته ان لا يلحقه ضرر بل يؤدي إلى المنفعة. واما ما كان سببه الامتلاء فعلامته امتلاء الوجه والجسد ويكون معه وجع أو لا يكون وأما ما كان سببه ضعف الرحم وانفتاح العروق فيدل عليه خروج الدم صافيا، وأما الكائن لرقة الدم عن مادة مائية ورطوبة فيكون الدم مائيا غير حاد، وأما ما كان عن قروح فيكون معه مدة ووجع وأما الكائن عن الأكلة فيكون قليلا وأسود، وان كان عن البواسير فيكون له أدوار غير أدوار الحيض»(٦).

وعن احتباس الطمث يقول الزهراوي قولا موجزا وصحيحا «احتباس الحيض يكون على وجهين اما طبيعي واما عرضي، والطبيعي يكون على ثلاثة أوجه أحدهما لا تحيض لأنها لم تبلغ أربع عشرة سنة، والثاني لا تحيض وهي حامل أو مرضع، والثالث لا تحيض فهي عجوز. وأما السبب العرضي فهما اما بسبب المادة أو القوة أو الآلة»(٧).

٤ ـــ أمراض الرحم:

تكلم الأطباء العرب والمسلمون عن أكثر أمراض الرحم كالرتق (Atrasid) في المهبل وعنق الرحم، وسيلان الرحم، الشقاق والثآليل والتوت والنفخ والبثور والناصور والسرطان والسيلان والاعوجاج والاختناق ونتؤه وخروجه وغير ذلك من الأمراض. على سبيل المثال نورد بعضاً من أقوالهم في بعض الأمراض:

يقول الرازي عن البواسير «دم البواسير يخرج بوجع وانه يخرج من غير أدوار دم الطمث»(٨).

ويضيف الزهراوي «البواسير ما هي إلا انتفاخ أفواه العروق حتى يسيل منها الدم، فإذا قدمت صارت ثآليل، وان كانت في فم الرحم فعالجها وان كانت في عمق الرحم فليس لها علاج بالحديد»(٩).

ويقول مهذب الدين البغدادي عنها ايضاً «تنبت البواسير في الرحم اما في بطونه او في عنقه، وما كان في العنق فلا يمكن علاجه لأجل شدة عصبية هذا المكان وحسه فلا يحمل الأدوية الكاوية»[١٠].

وعن ناصور الرحم يقول ابن سينا «يعرض للرحم ناصور وربما جاوز الرحم وظهر فيما يجاورها من الأعضاء حتى تفسد عظمة العانة وعنق الرحم، وربما ادى إلى حلق شعر العانة وربما اتجه إلى المقعدة او إلى المثانة، وعلامته طول التعفن ولزوم الوجع وتقدم قروح لم تبرأ بالمعالجات، ويعرف مكانه بالمرود»[١١].

ووضع ابن سينا الفروق الأساسية بين انقلاب الرحم (Inversion) وبين سقوط الرحم (Prolaps) والتي لا زالت متبعة حتى الآن. واستعمل الزهراوي الكي لعلاج إلتهابات عنق الرحم.

وجاء وصف الرازي لسرطان الرحم وصفاً مجملاً ليس لدينا اليوم ما نضيفه على قوله إذ يقول «يكون ورماً جاسياً له بنك (قاعدة) متحجرة إلى الحمرة، ويكون ــ أي السرطان ــ في عنق الرحم. ويعرض منه وجع شديد بالأربتين وأسفل البطن والعانة والصلب. ويشق عليه (يحزقه) لمس اليد، فإن كان ذلك متعفناً قرحاً سال منه صديد... ولا يزال»[١٢].

وهناك من يقول بأن ابن سينا كان أول من اشار إلى الأورام الليفية في الرحم، او على الأقل كان اكثر من استوعب فهم طبيعتها وموقعها في الرحم وتأثيرها عليه فشبهها بالمسامير واطلق عليها اسم (مسامير الرحم).

ويقول ايضاً «الورم في الرحم ربما كان في الرحم كلّها، وربما كان في فمها وقد يكون في نواحيها. والعلامات الدالة على الورم على الإطلاق وجع في المفاصل وحرارة وتمدد وثقل في الصلب والفخذين والعانة وعسر البول واحتباس البراز»[١٣].

ويضيف علي ابن العباس «ربما كان السرطان مع تقرح او من غير تقرح، فمن كان من غير تقرح فيستدل عليه بالوجع الشديد أسفل البطن والعانة. واما اذا كان مع تقرح فتعرض نفس الأعراض السابقة وكثيراً



جرّاح أثناء إجراء عملية

ما يسيل منها رطوبة مائية»[١٤].

اما ابن سينا فيقول «السرطان ورم صلب غير مستوى الشكل متفرع كالدوالي يؤلمه اللمس رديء اللون ويزداد الألم»[١٥].

٥ ــ علامات الحمل وقرب الولادة:

ان الأعراض التي ذكرها البلدي للحامل قبل الف سنة تقريباً ما زالت معظم النساء يعانين منها وهي عنده ١ ــ انقطاع الطمث ٢ ــ شهوة المطاعم الردية كشهوة الطين وغيره. ٣ ــ التبزق والقياء. ٤ ــ وجع فم المعدة. ٥ ــ الغشي والخفقان[١٦].

اما استدلالاته على قرب الولادة فهي في غاية الصحة حيث يقول «فأما الأعراض الدالة على قرب الولادة الطبيعية وقوتها لا محالة كمال شهور الحمل وبلوغها في النهاية في المدة، فثقل يكون في المعدة والخواصر وانخفاض الرحم إلى أسفل حتى ان القابلة اذا رامت لمسته بأهون سعي وأيسره. ودليل على الولادة وقربها انجذاب الصفاق المغشي للأمعاء وانتفاخ الأربتين والعانة وكثرة النزف واتصاله إلا ان لهذين ما يمنعهما فاذا كان ذلك سالت رطوبة لزجة وأعقب ذلك سيل من الدم وتشقق عروق المشيمة»[١٧].

وكان الزهراوي اول من وصف الوجع المسمى بأسم والخر (Walcher Position) وهو استلقاء

المرأة على ظهرها وفخذاها على حافة الكرسي والرجلان متدليتان وهو الوضع الصحيح عند الولادة[١٨].

٦ ــ اسباب الإسقاط وعلامته:

يقول علي ابن العباس عن اسبابه «الإسقاط اما من قبل اسباب من الداخل مثل رطوبة لزجة في الرحم او من رداءة مزاج الرحم او لدور الطمث في وقت الحمل، واما من الخارج بمنزلة الوثبة والصوت الشديد والفزعة والغضب الشديد والفرح والعطاس والضرب على الظهر او دواء مسهل او من فصد»[١٩].

ويقول ابن سينا في ذلك «قد يكون الإسقاط عن اسبابه من قبل الجنين مثل موته، او لأسباب من قبل الرحم من سعة فمها وقلة انضمامها، وقد يكون من ريح في الرحم او من ورم او صلابة او سرطان، وقد يكون من قروح في الرحم».

وقال عن العلامات الدالة على الإسقاط يأخذ الثدي في الضمور بعد الإكتناز ودرور اللبن وكثرة الأوجاع في الرحم وثقل الرأس وحمى وتحس بوجع في قعر العين»[٢٠].

٧ ــ اسباب تعسر الولادة:

تكلم عن ذلك أغلب الأطباء العرب والمسلمون إلا ان البلدي ذكرها بالتفصيل وفي غاية الصحة والدقة العلمية نلخص أقواله بما يلي خشية الإطالة[٢١]:

اولاً: اسباب من قبل المرأة الحامل:

١ ـ سمينة كثيرة اللحم جداً.

٢ ــ صغيرة الرحم.

٣ ــ الورم يكون في رحمها او عضو آخر.

٤ ــ لمرض آخرمن انواع الأمراض.

وهذه الأسباب ندخلها في تقسيمنا الحديث لعسر الولادة ضمن ما نسميه شذوذ طريق الطفل (او شذوذ ممر الولادة).

٥ ــ اذا كانت جبانة فزعة.

٦ ــ اذا كانت لم تعتد الولادة.

٧ ــ الولادة قبل الوقت.



طلاب يتلقون العلم على شيخهم.

ولا زال العلم الحديث يؤكد بأن العوامل العاطفية ولا سيما الخوف يمكن ان تؤثر تأثيراً سيئاً في مجرى الولادة.

٨ ــ الضعف الطبيعي (وهو ما نسميه اليوم بشذوذ القوة الدافعة او قوة الدفع الرحمي).

ثانياً: اسباب من المولود (وهو ما نسميه شذوذ حجم الجنين):

١ ــ اما لكبره وعظمه او لصغره وخفته (ثابت علمياً ان وزن المولود يؤثر في الولادة الأولى ولا يؤثر في الولادات التالية).

٢ ــ كبر رأسه.

٣ ــ لأن خلقته عجيبة (كالذي له رأسان).

٤ ــ لأنه ميت.

٥ ــ لضعفه وعدم قدرته على الخروج.
٦ ــ لأن عددهم كثير.

ثالثاً: شذوذ وضع الجنين عند الولادة:

١ ــ في خروج الطفل وولادته يكون منقلباً على رأسه فيكون خروج رأسه ويديه ممدودتين على فخذيه ولا يميل رأسه على فم الرحم.

٢ ــ ان تخرج رجلاه اولاً من غير ميل إلى أحد الجانبين وساير الأشكال المخالفة لهذين فخارجة عن الطبيعة.

اما كيفية التعامل مع الولادات غير الطبيعية فإن الزهراوي يعتبر افضل من كتب في ذلك حيث يقول في باب «تعليم القوابل كيف يعالجن الأجنة الحية اذا خرجوا على غير الشكل الطبيعي، ومنها اذا خرج على رجليه وذلك باستخدام استدارة الجنين او ولادته كما هو وكذلك خروج الجنين معترضاً مدلياً لاحدى يديه وذلك برد يديه وتسوية الجنين على الشكل الطبيعي. وكذلك في خروج التوأمين او الأجنة الكثيرة»(٢٢).

ومن مبتكرات علي بن العباس برهانه على ان الجنين لا يخرج من تلقاء نفسه بل بفضل تقلصات عضلات الرحم(٢٣).

٨ ــ العمليات الجراحية في التوليد:

لم يمارس الأطباء العرب والمسلمون الجراحة في التوليد بشكله الحالي، وكل ما قاموا به كان عبارة عن عمليات السحب على الجنين باليد او بالأدوات الجراحية، وتدويره او تقطيعه في حالة كون الجنين ميتاً.

نذكر فيما يلي وصف علي ابن العباس في استخراج الجنين الميت حيث يقول «متى كانت قوة المرأة قوية ويمكنها ان تحمل نفسها... فينبغي ان تقدم على علاجها بأن تأمر القابلة ان تلقيها على ظهرها فوق سرير ويكون رأسها مائلاً أسفل وساقها مرتفع تمسكه بعض النساء... ثم تفتح بعض النساء فم الرحم ورقبته وتمسح اليد اليسرى بدهن بنفسج وتجمع الأربع اصابع وتمدها إلى فم الرحم... وينبغي ان تدخل السنارات التي يخرج بها الجنين وتغرزها في عينيه او في فيه او تحت اللحى والترقوة والمواضع القريبة من الأضلاع... ثم ان القابلة تمد السنارات مداً مستوياً ويكون مدها اياه مع ميل قليل إلى الجوانب... واذا كان الجنين يجيب إلى الخروج على ما ينبغي فانقل السنارات إلى المواضع التي هي أرفع وتجذبه جذباً معتدلاً حتى يخرج كله... وان كان رأس الجنين كبيراً وعرض له ضغط في الخروج فينبغي ان تدخل ما بين الأصابع مبضعاً وسكيناً يصلح للقطع وتشق بها القمة وتدخل الكلبتين القحف وترضه بهما ثم تخرج»(٢٤).

وكان الزهراوي اول من عمل على استخلاص الجنين المتعسر بواسطة الملقط الذي صنعه من الخشب (ملقط التوليد) قبل جمبرلن الإنكليزي بمئات السنين، كما انه صنع آلة لتوسيع باب الرحم (٢٥).

وسائل منع الحمل:

(أ) الأدوية: كان لدى الأطباء العرب اعتقاد بتأثير بعض العلاجات في منع الحمل، من ذلك، اوصى ابن ماسويه بتحميلة مهبلية من الفلفل تستعمل بعد الجماع مباشرة او جرعة من السذاب. اما لمنع الحبل الأبدي فأوصى باستعمال تحاميل مهبلية من روث الفيل(٢٦).

ومن ذلك ايضاً ما قاله علي بن العباس عن الأدوية المانعة للحبل «واما الأدوية المانعة من الحبل فإنها وان كانت مما يجب ان لا تذكر لئلا تستعملها من لا خير فيها من النساء، فانه قد يضطر الأمر في بعض الأوقات إلى ان يعطيها لمن كانت من النساء صغيرة الرحم او بها علة يخاف عليها متى حملت ان تهلك في وقت الولادة. واما غير هؤلاء من النساء فينبغي ان لا يصفها لهنّ»(٢٧).

(ب) وضع جسم غريب في الرحم: ان فكرة وضع جسم غريب في الرحم كوسيلة لإبطال الحمل ليست وليدة عهد جديد فلقد كان العرب الأولون يستعملونها قبل أكثر من الفي سنة بوضع حجارة في أرحام نوقهم، غايتهم في ذلك منع الحمل الذي كان يعيقهم اثناء ترحالهم(٢٨).

(ج) العزل كطريقة للوقاية من الحمل: العزل هو الحيلولة دون وصول مني الرجل إلى

رحم المرأة وقد كانت هذه الطريقة متعارفة عند العرب وفي الصدر الأول للإسلام «روي عن جابر بن عبد الله انه قال كنا نعزل على عهد رسول الله (ص) فبلغ ذلك رسول الله (ص) فلم ينهنا، ولو كان شيئاً ينهى عنه لنهانا عنه القرآن» وهذا الحديث يؤكد شرعية هذه الممارسة. وقد تكلم في ذلك معظم الأطباء والفقهاء في العصور الإسلامية المتعاقبة.

فبعد ان يقول الرازي «قد يكون من المهم جداً في بعض الأحيان ألا يدخل المني الرحم مثل الحالات التي يكون الوضع بالنسبة لها خطراً على الأم» يصف وسائل لمنع الحمل أولها ان يتم القذف خارج المرأة. ويتكلم ابن سينا في القانون عن منع الحمل في امرأة صغيرة حيث يكون الوضع بالنسبة لها خطراً فيوصي من بين الوسائل بالفصل السريع بين الشخصين. كما ان اسماعيل الجورجاني في كتابه (ذخيرة خوارزم شاهي) الذي ظهر بعد قرن من قانون ابن سينا يشرح نفس الطريقة(٢٩). ■

الهوامش

(١) المجوسي ـ علي ابن العباس: كامل الصناعة الطبية ج ١ ص ١١٦، ج ٢ ص ٥٥٦.
(٢) حسين. د. محمد كامل: طب الرازي، دراسة تحليلية، ص ٤٠١.
(٣) خير الله. د. أمين أسعد؛ الطب العربي، ص ١٧٥.
(٤) السامرائي. د. كمال: مقال الأمراض النسائية في الطب العربي القديم. مجلة المهن الطبية العراقية ج ١ (١٩٦٤).
(٥) المجوسي. علي ابن العباس: كامل الصناعة الطبية ج ١ ص ٢٥١.
(٦) ابن سينا: القانون ج ٢ ص ٥٨٦.
(٧) الزهراوي. أبو القاسم: التصريف لمن عجز عن التأليف ص ١ ص ٩٠.
(٨) الرازي: الحاوي ج ٩ ص ١٩.
(٩) التصريف: ج ٢ ص ١١٤.
(١٠) البغدادي. مهذب الدين: المختارات في الطب، ص ٤١ ـ ٤٣.
(١١) ابن سينا: القانون ج ٢ ص ٥٩١.
(١٢) الحاوي ج ٩ ص ٣٧ ـ ٣٨.
(١٣) المصدر نفسه ص ١٢ ـ ١٣.
(١٤) المجوسي. علي ابن العباس: كامل الصناعة الطبية ج ١ ص ٣٨٧.
(١٥) القانون ج ٢ ص ٥٩٨.
(١٦) البلدي. أحمد بن محمد: تدبير الحبالى والأطفال والصبيان ص ٩٨.
(١٧) المصدر نفسه ص ١٦٢.
(١٨) السامرائي. د. كمال: المقال.
(١٩) المجوسي. علي ابن العباس: كامل الصناعة ج ١ ص ٣٩.
(٢٠) ابن سينا: القانون ج ٢ ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣.
(٢١) البلدي. أحمد ابن محمد: تدبير الحبالى والأطفال والصبيان ص ١٦٤ الحاشية.
(٢٢) الزهراوي: التصريف ج ٢ ص ١١٦ ـ ١١٩.
(٢٣) م. م. شريف: ترجمة أحمد شلبي: دراسات في الحضارة الإسلامية ص ٨٢.
(٢٤) المجوسي. علي ابن العباس: كامل الصناعة ج ٢ ص ٤٨٩.
(٢٥) السامرائي. د. كمال: المقال.
(٢٦) الرازي: الحاوي ج ٩ ص ١٥١.
(٢٧) المجوسي: كامل الصناعة ج ٢ ص ٤٤٠.
(٢٨) J.A. Caraine and Bell 1968 Fertality and Cantraception in fema
(٢٩) العوضي. د. سعيد محمود: بحث الجوانب الطبية للعزل في الفقه الإسلامي. من أبحاث مؤتمر الطب الإسلامي، الكويت ١٤٠١ ـ ١٩٨١.



على رأس الخطابات التي تبعث بصفة دورية إلى مديري فروع إحدى الشركات طبعت هذه العبارة:
ان تنظر.. هذا شيء.
وان ترى ما نظرت إليه.. هذا شيء آخر.
وان تفهم ما رأيته.. هذا شيء ثالث.
وان تتعلم مما فهمته.. هذا شيء يختلف تماماً.
ولكن ان تتصرف بناء على ما تعلمته.. فهذا هو الأمر الذي يهم حقاً..

(مالكولم ماك فير)

إجازات العُلماء السّودانيين في عصْر الفونج

ظاهرة «ان يكتبوا في ذيل الكتاب أو صدره أسماء الذين سمعوه على مصنفه أو على شيخ آخر(٥).

والاجازة أنواع(٦) تصدى علماء الحديث لمناقشتها وترجيح بعضها على البعض الآخر، وهي:

١ ــ إجازة معين لمعين. كأن يقول المجيز. أجزت لك كتاب البخاري أو أكثر. أو ما اشتمل عليه فهرستي(٧).

٢ ــ إجازة لمعين في غير معين: ومثالها ان يقول: أجزت لك أو لكم جميع مروياتي أو مسموعاتي. وهذا النوع وان فقد أحد أركان(٨) الاجازة إلا ان جمهوراً من العلماء والمحدثين جوزوا العمل به.

٣ ــ إجازة لغير معين في غير معين. وصورتها: أجزت للمسلمين، أو أجزت لكل من أدرك زماني هذا. وقد جوز العمل بها البعض، بينما اشترط البعض الآخر ان يقتصر على الموجودين عند الاجازة(٩).

٤ ــ إجازة للمجهول بالمجهول. كأجزت لفلان ان يروي عني كتاب السنن، وهو يروي مجموعة من كتب السنة ثم لا يعين(١٠).

٥ ــ المناولة: وهي اما ان تكون مقرونة بالاجازة، وتعد حينئذ أعلى مراتب الاجازة. وصورتها ان يناول الشيخ الطالب الأصل العلمي، ويبيح له روايته ان تمليكاً أو إعارة أو نسخاً. ويسمى هذا عرض المناولة. كما يسمى القراءة(١١)، وهي أقل من السماع عند أكثر العلماء.

وأما ان تكون غير مقرونة بالاجازة، كأن يناول الشيخ تلميذه كتاباً ويقول: هذا سماعي أو روايتي دون ان يشير له بالرواية عنه، أو دون ان يجيز له بذلك، وأكثر العلماء على عدم جواز الرواية بها.

٦ ــ إجازة بالمكاتبة أو المراسلة: وهي ان يكتب الشيخ إلى الطالب شيئاً من حديثه، ويسمح له ان يرويه. وتعد في درجة المناولة المقرونة بالاجازة.

ولئن كان ما سبق يعد أشهر أنواع الاجازات فهناك أنواع أخرى أقل منها أهمية، مثل الاجازة بعراضة الكتب(١٢) ومثل الاجازات الفخرية(١٣). وهناك إجازات كانت تكتب شعراً، من ذلك إجازة التلماني المقرى صاحب «نفح الطيب» إلى الأديب أحمد بن شاهين الشامي وهناك حالات نادرة كان يشترك فيها أكثر من عالم في منح الاجازة لمودة قائمة أو صداقة راسخة تربط بينهما.

وهذا النوع من الاجازة المشتركة لم يقع عليها نظري، ولكن مما أورده مؤلف كتاب تاريخ الجامعات الاسلامية نقلاً عن (الحلل السندسية) نعلم ان عالمين اندلسين أجازا بخطهما من سألهما ذلك. وكان لهذين العالمين حلقة واحدة في المسجد الجامع بقرطبة.

على ان الاجازات خضعت لتغيرات كثيرة. فبعد ان كانت في بدئها موجزة العبارة. سهلة الأسلوب صارت في العصور المتأخرة تلجأ إلى العناية بالزخرفة اللفظية والاطالة والاسهاب(١٤) وبعد ان كانت قاصرة على ضبط الرواية وإقرار الحقائق صارت تمنح لمن أراد العمل بها في مجالات أوسع كأن يتصدى للفتيا والتدريس والقضاء(١٥).

كذلك حرص بعض الطلاب على الحصول عليها بوسائل مختلفة. حتى ان بعضهم كان يفاخر بكثرة عدد شيوخه الذين أجازوه، ولكن هذا لم يكن على إطلاقه. ورغم كثرة الاجازات وتعدد الشيوخ فإننا نطمئن إلى صحة أكثرها استناداً على أن أكثر الشيوخ كانوا يحرصون ــ في الغالب ــ على الدقة عند منح الاجازات.

على اننا عندما ننظر إلى الاجازات فيما مضى لا بد ان نعرف كل جوانبها، ليكون تقويمها على أساس موضوعي. لأن الحرص على الحصول عليها لم يكن وقفاً على الطلاب، ولو كان الأمر كذلك لكان لنا ان نطمئن اليها، لأنها حينئذ تكون صادرة من شيوخ لطلابهم وهم على علم بمستواهم. ولكن كان للملوك والأمراء اهتمام أيضاً بالحصول عليها(١٦). كما كان البعض يترقبون تنقل العلماء بينهم فيطلبون منهم الاجازة بمؤلفاتهم. فيلبي هؤلاء فيمنحونهم. وقد مضى بنا من أنواعها ما يدل على مثل هذا التساهل.

ومما يستحق الملاحظة ان الاجازة لا يشترط

فيها قابلية الفهم. فقد تمنح لصبي لم يدرك ولأشخاص لم يولدوا بعد. وهي في هذا تختلف عن السماع والقراءة والعرض. وكلها يشترط فيها اللقاء بين الطالب والأستاذ. ومن أجل هذا رجح الرواية سماعاً أو قراءة أو عرضاً على الرواية اجازة. وإذا كان احد الراوين يروي سماعاً وقراءة، والآخر يرويه اجازة فتقدم رواية السامع على رواية المستجيز. اللهم الا ان يروي المستجيز أصلاً معروفاً. أو مصنفاً مشهوراً فحينئذ يسقط الترجيح. وهناك من يتم الرواية عن طريق الاجازة عندما تكون مقرونة بالسماع على السماع المجرد.

والاجازة وان عدت في مرتبة أقل من السماع لافتقارها لعنصر المباشرة التي هي الأساس في السماع. فانها أي الاجازة صارت بعد شيوع التدوين وثبوت الجرح والتعديل للرواة من الطرق المقبولة لنقل الحديث وتحمله[١٧]. وهي تعدو وثائق صحيحة تدل على ثقافة العلماء والطلاب. كما انها حفظت لنا أسماء بعض الكتب والرواة وبعض معلومات ما كان ممكناً الوقوف عليها لولا ورودها في نصوص الاجازات.

بقي ان نعرف ان الاجازة كانت تصدر من الشيخ لا من المعهد أو المدرسة. إذ انها لم تكن شهادة بالمعنى الذي نعرفه. وانما كانت إقراراً من الشيخ بأن الطالب بلغ مرتبة تؤهله لتدريس المادة وروايتها. أي انها لم تجز له إلا تدريس المادة أو المواد التي أجيز فيها.

عرفنا نبذة عن الاجازات وأنواعها وتطورها لنفهم على ضوئها ما سنعرضه من اجازات علماء السودان في عصر الفونج. وقبل ذلك نرى من المناسب ان نذكر طرفاً عن الاجازات في الأزهر، لأن أكثر اجازات هؤلاء العلماء كانت تصدر منه.

كانت الدراسة بالأزهر تقوم على نظام الحلقات، وكان الطالب اذا أراد ان يجلس للتدريس وتيقن انه استوعب مادته إستأذن تأدباً، وعقد حلقة تضم طلاباً من أنصاره وخصومه. وهؤلاء كانوا يحرصون على مجابهته بسيل من الأسئلة الغامضة بغية تعجيزه فاذا وفق في الاجابة، وقارع الحجة بمثلها أو بأحسن منها، واقتنع الحاضرون بذلك سمحوا له بالاستمرار وهذا كان بمثابة إذن له بصلاحيته للتدريس، اما اذا تعثر أو تلعثم فانه عندئذ كان يفض حلقته ويعود طالباً يتلقى العلم في مجالس الشيوخ[١٨] ولهذا ما كان الطالب ليقدم على عقد حلقة الا بعد استيعاب كامل للمادة.

ولئن كان هذا ضرورياً لمن أراد مواصلة العلم فإن من أراد الرجوع إلى بلده كان عليه ان يحصل من شيوخه على إجازات تثبت كفاءته في الفتيا أو التدريس، وفيها كان الشيوخ يشيدون بعلم صاحبها واتصال سندهم، ويوصونه بالتقوى وتحرّي الدقة وعدم الإقدام على أمر دون ان يعلم حكم الله فيه.

على انه في الفترة التي نتحدث عنها كانت الدولة العثمانية قد ظهرت كقوة كبرى وفرضت إرادتها على بلاد الشرق. ومن بينها مصر بأزهرها وهو النبع الذي استقى منه السودانيون علمهم، وقد اصطبغت الثقافة الدينية التي كانت تنبعث من حلقات الأزهر بصبغة التقليد، نتيجة عزلة العالم الاسلامي، حتى انحصرت الدراسة في علوم اللغة والدين بعد ان توارت علوم الرياضة والفلك التي كانت ضمن مناهج الدراسة من قبل. وانصرف العلماء إلى العناية بالمحسنات اللفظية، والحواشي والتقارير والمختصرات، حتى اذا جئنا إلى مؤلفات علماء الأزهر وبعضهم كانوا أساتذة لطلبة السودان، فاننا نجدها لا تخرج عن اطار التقليد ولا نجد أثراً لأعمال الفكر، كما ان الاجازات بدورها شابها نوع من التساهل، ولكن هذا لا يمنع ان بعض الشيوخ ظلوا على حرصهم لعدم منح الاجازات الا بعد التيقن من كفاءة المستجيزين.

وجدير بالذكر ان ما انتهى الينا من الاجازات التي نالها السودانيون في فترة الفونج قليلة جداً بالقياس إلى شيوع الاجازات فيها، ونحن مضطرون إزاء هذا إلى التماس أدلة أخرى تعيننا على إلقاء مزيد من الضوء عليها، من هذه الأدلة نظم الدراسة في الأزهر، حيث كان طالب الأزهر يتمتع بحرية كاملة في اختيار أستاذه ومادته ومدة تعليمه، وفي الانتقال من حلقة إلى أخرى، غير مقيد بزمن، وعندما يلمس في نفسه القدرة على استيعاب المادة أو المواد ويريد

الـرجـوع إلى بلـده كـان يستجيـز شيخـه أو شيوخه.

ولدينا مثال في الشيخ احمد بن عيسى الذي قضى في صحبة أستاذه الشيخ احمد الدرديري أكثر من ثلاثين عاماً هي مدة نعتبرها كافية لأن يتقن فيها الطالب الكثير من مواد الدراسة.

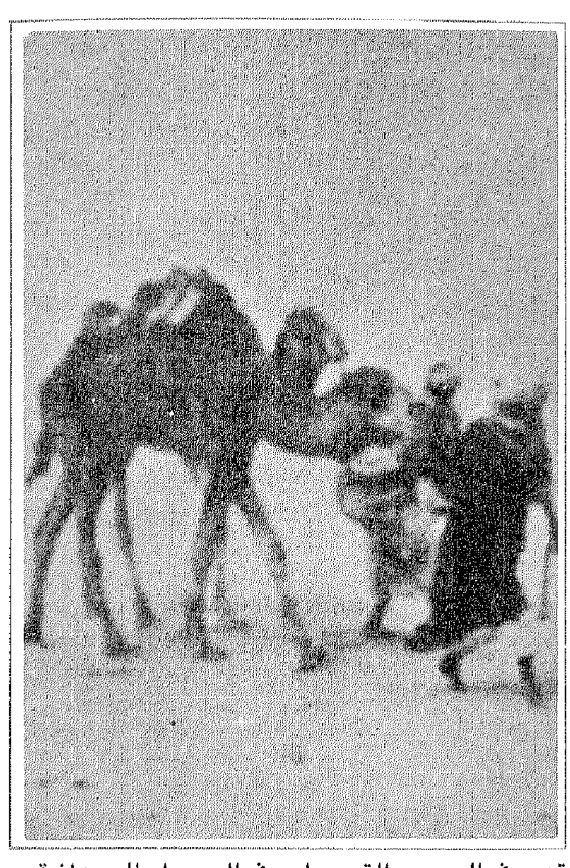
كـذلـك وافق رحيـل الـرعيـل الأول من السودانيين للأزهر وجود مشاهير علمائه ممن كان أثرهم واضحاً في نشر علوم اللغة والدين، وليس من شك في ان يكون هذا الأثر قد انعكس على تلاميذهم الذين ارتكزت النهضة الـدينية والعلمية عليهم في السودان.

الاجازات في عهد الفونج (١٥٠٥ ـ ١٨٢٠):

عرف السودان الاجـازات العلمية في هـذا العصر، ومن الدلائل ما تؤكد ان الرعيل الأول الذين درسوا في الأزهر والحجاز نالوا اجازات تثبت كفاءتهم واهليتهم للفتيا والتدريس، وإليك تلك الأدلة.

أولاً ـ تقدم بنا ان الطالب ما كان يقدم على الاستجازة الا بعد ان يأنس في نفسه الأهلية وكان الأستاذ يحرص على ذلك لضمان صحة مروياته.

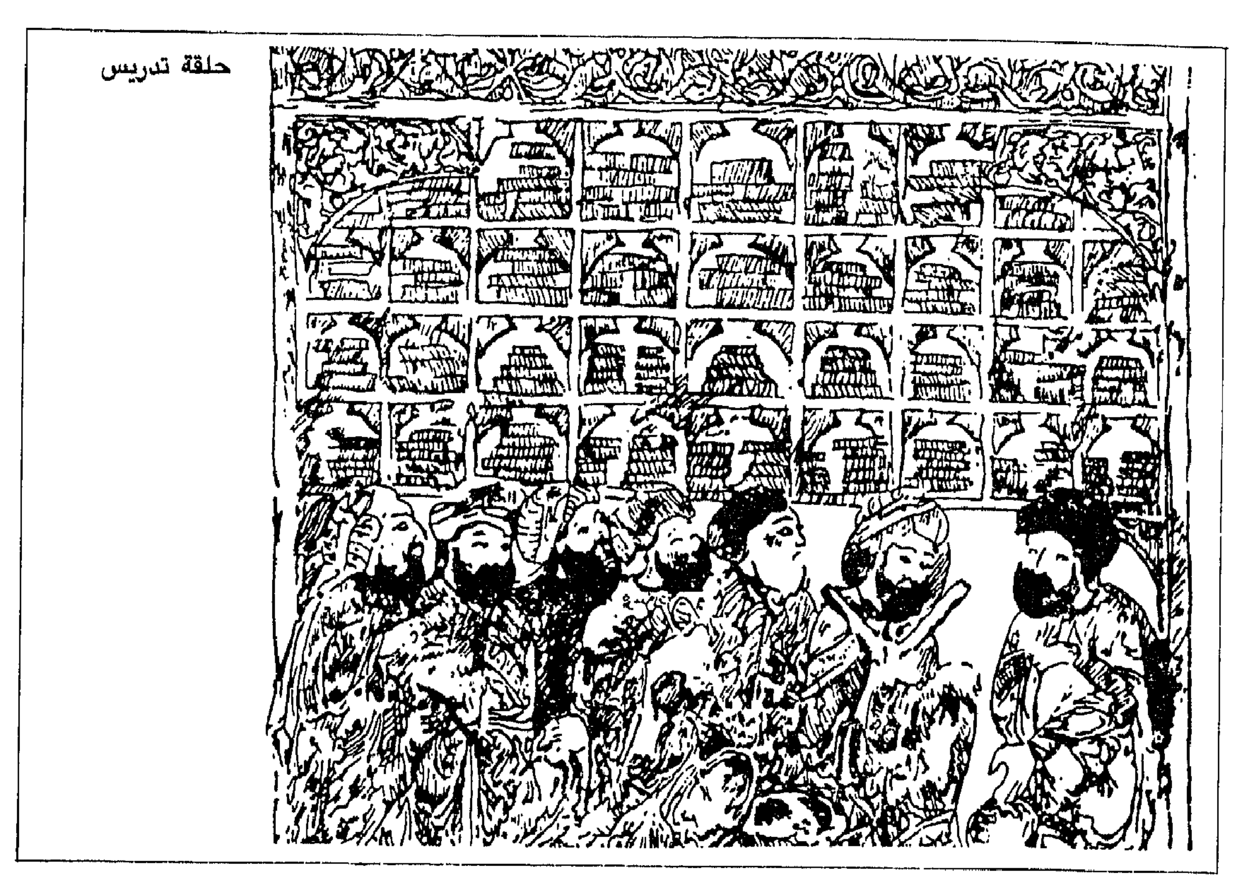
ثانياً ـ درس هؤلاء على النيوفري واللقانانيين وزكريا الأنصاري، وهم إذ ذلك مشاهير علماء الأزهر وكبار أعلامه. وليس ما يمنع ان يكون هؤلاء قـد منحوا تـلاميذهم من الـسـودانيين إجازات في العلوم التي درسوها عليهم جرياً على عادة علماء العصر، بدليل ان هؤلاء عندما عادوا للسودان قاموا بتدريس العلوم التي درسوهـا عـلى شيـوخهم كمـا ذكـر ود ضيف الله ان اسماعيل بن جابر دخل مصر واجتمع بالشيخ النيوفري فأجازه(١٩) كما أشاد النيوفري الذي كان أستاذاً لكثير من السودانيين ببعضهم، فذكر عن عبد الرحمن بن حمدتو انـه يصلح للفتوى لكونه يسأل عن معاني الشراح، وأشاد بزميليه محمد بن سرحان فقال عنه أنه يصلح للتدريس لكـونـه يسـأل عن تحقيق صـورة المتن(٣٠) وليس ثمـة ما يمنـع ان يكـون قـد منحهما إجازات تلبية لرغبتهما بعد ان وثق من علمهما وأهليتهما كل في مجال اهتمامه.



تعب في السعي والتحصيل.. في الصحراء السودانية

ثالثاً ـ نفهم مما ورد في طبقات ود ضيف الله ان إعادة طلب الاجازة بالمكاتبة أو المراسلة كانت معروفة، فالشيخ حسن عبد الـرحمن بن الشيخ صالح ود بانقاً كان في صحبة الشيخ احمد ود عيسى، عندما استجاز الشيخ احمد الدرديري، في قراءة كتب الحديث ومصطلحـه بالمكاتبة، كذلك حصل الشيخ محمد المجـذوب عـلى اجازة بـالمكـاتبـة(٢١) من الشيـخ عـلي الصعيدي العدوي احد علماء الأزهر.

رابعـاً ـ يكثر في الطبقـات أسمـاء علماء أجـيـزوا من الأزهـر، وأجيـزوا كـذلـك من السودانيين الذين درسوا في الأزهر أو تصدروا حلقات الدروس بعد ان عادوا لبلادهم، من ذلك ان الشيخ عبد الرحمن بن بلال كان مأذوناً(٢٢) لـه في الفتـوى والتـدريس، وعـلي بن ديـاب القريشابي كان علامة مأذوناً له في التدريس كشيخه أبي الحسن، وحضر حلقته خلق كثير(٢٣) وأجيز الشيخ عبد الرافع القنديل في التدريس، وكان رحالة شدت اليه الرحال من سائر الأقطار،



حلقة تدريس

درس خلائق لايحصى لهم عدد، ويقال ان الشيخ حمد النحلان شهد له بالتدريس في حال سفره، ويبدو انها كانت اجازة شفهية بدليل قوله (يا فقيه شكر الله تقرى أولاد الحلفاية انت حي أبوعيونا حمر هذا يقرى في مسجدك»(٢٤). وكان الشيخ يوسف الطريفي ممن جمعوا بين اجازة التدريس وإجازة السلوك، حيث إذن له أبوه بذلك، وهو بدوره مكث بعد أبيه في التدريس وتربية المريدين نحو خمس وستين سنة(٢٥) والشيخ أبوبكر ود توير اذن له شيخه الزين ود صغيرون في التدريس و«تفقه عليه مشايخ صالحون وأفتى دهراً طويلاً» والشيخ المسلمي ولد أبونيسة جمع بين العلم والعمل، واذن له أستاذه الشيخ عبد الرحمن بن جابر في التدريس وإرشاد الخلق(٢٦) كما ان حميدان الجعلي كان مأذوناً له في التدريس فدرس في مسجد الحلفاية وقرأ عليه أئمة صالحون(٢٧).

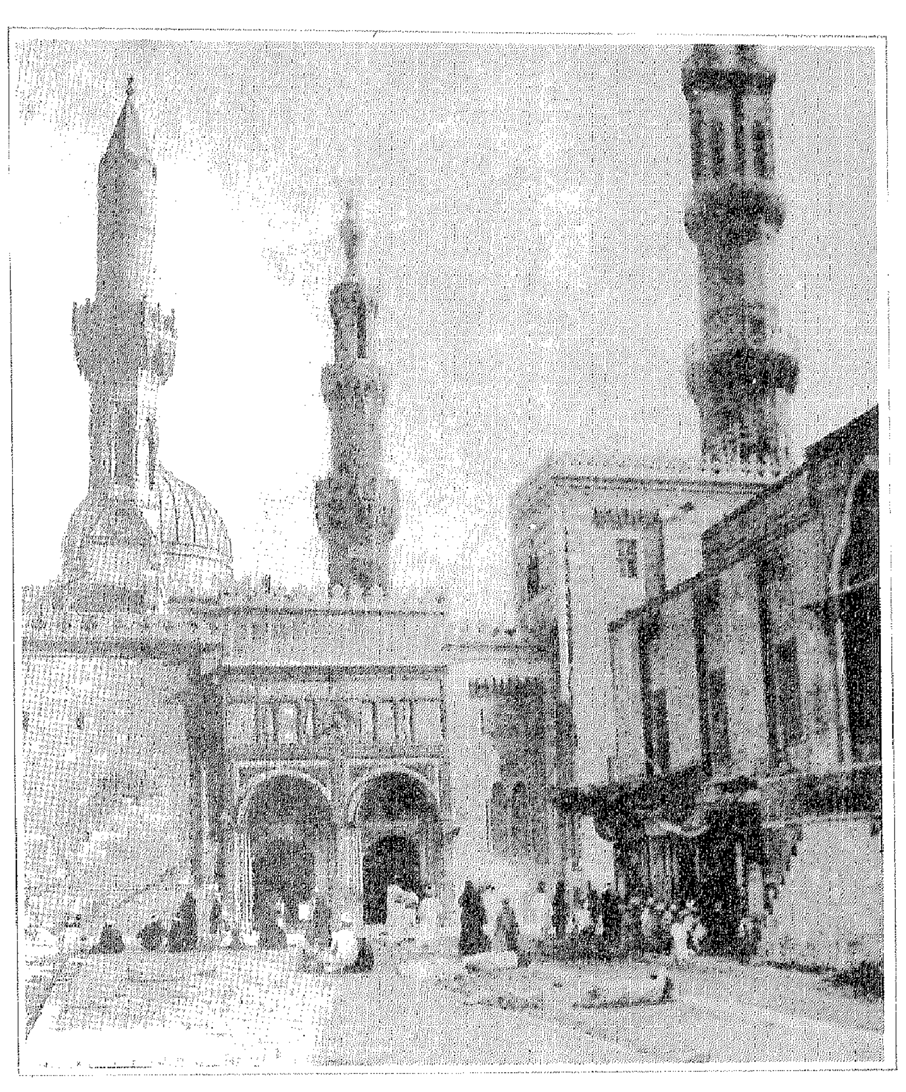
خامساً ــ ذكر ود ضيف الله أنه وجد بخط الشيخ عبد الله العركي إجازة منحها للشيخ محمد بن دفع الله في ذكر كلمة التوحيد. واجازة مطلقة تمكن حاملها ان يروي عن شيخه أسماء الله الحسنى والحزب السيفي وغيرها من الدعوات والأفكار المأثورة، كما أجازه في لباس الخرقة(٢٨) ويعرف هذا النوع من الاجازة بالوجادة، وهي ليست من طرق الرواية ولا نوعاً منها، وإنما ذكرها العلماء في طريق الرواية إلحاقاً بها، لبيان حكمها وبين جمهور المحدثين خلاف في جوازها وعدمها(٢٩).

سادساً ــ اشتهر أولاد جابر بتدريس الفقه وعلوم أخرى، وبلغت ختماتهم في «مختصر خليل» أربعين ختمة وتزيد. وهذا يؤكد انهم أجيزوا فيما ختموه.

سابعاً ــ يروي عن الشيخ المجذوب انه سافر للحجاز، والتقى هناك بالسيد احمد بن ادريس، ثم أقام بالمدينة، ودرس في الحرم النبوي لطلاب من أهل المدينة وغيرهم(٣٠).

ومن المحتمل ان الذين سبقوه سلكوا واستجازوا فأجيزوا من علماء مكة والمدينة الذين كانوا اذا التمسوا في في تلاميذهم الكفاءة في التدريس يعطونهم شهادات خاصة بصلاحيتهم للتدريس(٣١).

الجامع الأزهر



ثامناً ــ تلقى كثير من علماء قرية كترانج العلوم الدينية بالأزهر، وتفقهوا على شيوخه. وحصلوا منهم على إجازات كانت محفوظة عند أحد أفراد الأسرة في عهد الحكم التركي المصري، ثم فقدت أيام المهدية(٣٢).

يتضح مما سبق ان السودان عرف الاجازات العلمية التي كان الحرص على الحصول عليها شديداً، وهذا يساعدنا على اقرار ان علماء ذلك العصر الذين نشروا الثقافة الدينية في مساجد السودان كان لهم صلاحية للتدريس والفتيا.

وبين أيدينا اجازتان أورد نصهما ود ضيف الله في طبقاته، احداهما من عالم أزهري إلى تلميذه السوداني، وثانيتهما من عالم سوداني درس في الأزهر لتلميذه السوداني أيضاً.

ويبدو ان إجازات تلك الفترة لم تكن قاصرة على العلوم الدينية والعربية، فقد ذكر ود ضيف الله ان عبد الرحمن ولد طراف صحب الشيخ ادريس بن الأرباب وسلك عله الطريقة فأذن له في الطب ودل الناس عليه وكان حجازي بن أبي زيد طبيباً ماهراً «كأنه ابن سينا» وواضح ان المقصود بالطب هنا مداواة الناس من بعض الأمراض النفسية بالاستعانة بكتب الطب والحكمة والأعشاب، ويؤيد هذا ما ورد في ترجمة الفقيه سرحان ولد صباحي من أنه «كان طبيباً، للجان، صرعى ووسواسي مثل أبيه، كما ان عبد الرحمن ولد طراف المتقدم ذكره كان يطب الشيطان بألف ب ت ث مع انه لم يحفظ إلا ربع يس فقط.

ويؤيد انتشار هذا النوع من الطب في دارفور ما ذكره التونسي في رحلته إذ قال ان أكثر

مايعانونه الروحاني والسحر، ويسمون علم السحر علم الطب، ومن مهر فيه سمي طبابي، وهذا العلم يوجد عند الفلان (الفلاتة) أكثر من غيرهم.

الخلاصة: ان السودان عرف الاجازات العلمية بكافة أنواعها في عصر الفونج، وهي تلقي الضوء على ثقافة علمائها، وقد رأينا الاذن بالسماع، وهي اعلى مراتب الرواية، ورأينا اجازة المكاتبة والاجازة الشفهية والاجادة، وإجازة... المريدين في التصوف، وقد تميزت بأنها من اجازات السماع مما يؤكد ان الحاصلين عليها كانوا على درجة من العلم، وهذا يزيد من ثقتنا في علمهم الذي نشروه في البلاد.

■

الهوامش

(١) طرق نقل الحديث وتجمله ثمانية: السماع من لفظ الشيخ، والقراءة عليه، والاجازة، والمناولة، والمكاتبة، والاعلام، والوجادة، والعرضة بالكتب (تدريب الراوي: ٨).

(٢) محمد عبد الرحيم غنيمة: تاريخ الجامعات الاسلامية: ٢٢١.

(٣) الخطيب البغدادي: تقييد العلم: ١٠١.

(٤) من ذلك اجازة بخط أبي بكر بن أحمد بن أبي خيثمة لأبي زكريا يحي بن مسلمة ليروي عنه ما أحب من كتب التاريخ (من تأليفه). ويذكر احمد شلبي نقلاً عن الشيخ أغا يزركي (من علماء النجف) ان أقدم شهادة معروفة هي الصادرة في سنة ٣٠٤هـ منحها محمد بن عبد الله الحميري إلى أبي عامر سعيد بن عمر عن كتاب قرب الأسناد تايخ التربية الاسلامية ٢٦٣ ــ ٢٦٤).

(٥) صلاح الدين المنجد: اجازات السماع في المخطوطات القديمة، مجلة معهد المخطوطات العربية: مج ١ عدد نوفمبر ١٩٥٥.

(٦) يراجع للتوسع: ابن الصلاح: المقدمة، السيوطي: تدريب الراوي، عياض: الالماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع. وعند أغايزركي تنقسم الاجازة طولاً وقصراً إلى ثلاث أقسام: كبيرة مبسوطة ومتوسطة مقتضرة ومختصرة.

(٧) التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون: ٢٠٨.

(٨) أركان الاجازة كما نص عليها التهانوي في المصدر السالف الذكر: المجيز والمجاز ولفظ الاجازة.

(٩) التهانوي: نفس المصدر: ٢٠٨.

(١٠) ابن الصلاح: المقدمة: ٧٤.

(١١) ابن الصلاح: المقدمة: ٧٩.

(١٢) كان الطالب اذا حفظ كتاباً في علم من العلوم يعرضه على الشيخ فيقرئه أي موضع منه، فان قرأه دون تلعثم أو توقف دل ذلك على حفظه لجميع الكتاب (صبح الأعشى ١٤/٣٢٢).

(١٣) هي نادرة الحدوث، ولكنها مع ذلك كانت تمنح من المجيز بدافع المجاملة، ومن المستجيز للمباهاة والتفاخر ولم يكن لها أية صفة أو قيمة علمية.

(١٤) غنيمة: المرجع السابق، وانظر حسين أمين: المدرسة المستنصرية: ٩٤. دائرة المعارف الاسلامية (مادة الاجازة).

(١٥) يوضح القلقشندي الغرض من الاجازة للفتيا والتدريس فيقول: «اما الاجازة للفتيا فقد جرت العادة انه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس ان يأذن له شيخه في ان يفتي ويدرس وكتب له بذلك. وجرت العادة ان يكون مايكتب في الغالب في قطع عريض، أما في فرخة الشامي أو نحوها من البلدي، وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطر متوالية بين كل سطرين نحو اصبع عريض (صبح الأعشي ١٤/٣٢٢).

(١٦) أنظر مقدمة ابن الصلاح.

(١٧) دائرة المعارف الاسلامية (مادة الاجازة).

(١٨) أحمد شلبي: تاريخ التربية الاسلامية: ٢٦١.

(١٩) الطبقات: ٤٦.

(٢٠) الطبقات: ٢٥٦.

(٢١) الاجازة بالمكاتبة هي ان يكتب الشيخ إلى الطالب شيئاً من حديثه أو روايته، ويجيز له ان يرويه دون ان يكون قد التقى به. وقد ضعف البعض هذا النوع بينما رأى آخرون جوازها. وعندنا ان المجذوب كان عالماً مشهوراً مما يضفي على هذا الاجازة قيمة ،ويبدو ان الشيخ العدوي كان قد سمع عن علمه على الأقل كأحد مريدي الطريقة الشاذلية في السودان، إذ يفهم من نص الاجازة ان العدوى كان صوفياً شاذلياً والمجذوب كذلك.

(٢٢) الإذن والاجازة بمعنى واحد.

(٢٣) الطبقات: ٢٨٦، ٢٨٧.

(٢٤) الطبقات: ٢٩٠.

(٢٥) الطبقات ٣٧٤.

(٢٦) الطبقات ٧٨، ٧٩.

(٢٧) الطبقات ١٥٣.

(٢٨) الطبقات ٦٥، ٦٦.

(٢٩) محمد المبارك عبد الله: الناقد الحديث: ٨٧، ٨٩. الرحمن الشامخ: التعليم في مكة والمدينة: ٦٥.

(٣٠) الوسيلة إلى المطلوب: ١١٤.

(٣١) محمد عبد الرحمن اشامخ: التعليم في مكة والمدينة: ٦٥.

(٣٢) محمد عبد المجيد السراج: إرشاد الساري: ١٦.

عوامل اقفار بلاد الشام في العصر العثماني

حسين سلمان سليمان

يطلق إسم بلاد الشام على الوحدة الطبيعية التي يعرفها الجغرافيون باسم (سورية الطبيعية) وتقوم إلى الغرب من اسيا ممتدة شرقي البحر المتوسط، من جبال طوروس شمالا إلى صحراء سيناء جنوبا، ومن الجزيرة والفرات وبادية الشام شرقا إلى البحر المتوسط غربا. أي أن سوريا في بحثنا هذا، تضم في نطاقها، إلى جانب الجمهورية العربية السورية لبنان وفلسطين وشرقي الأردن وكيليكية.

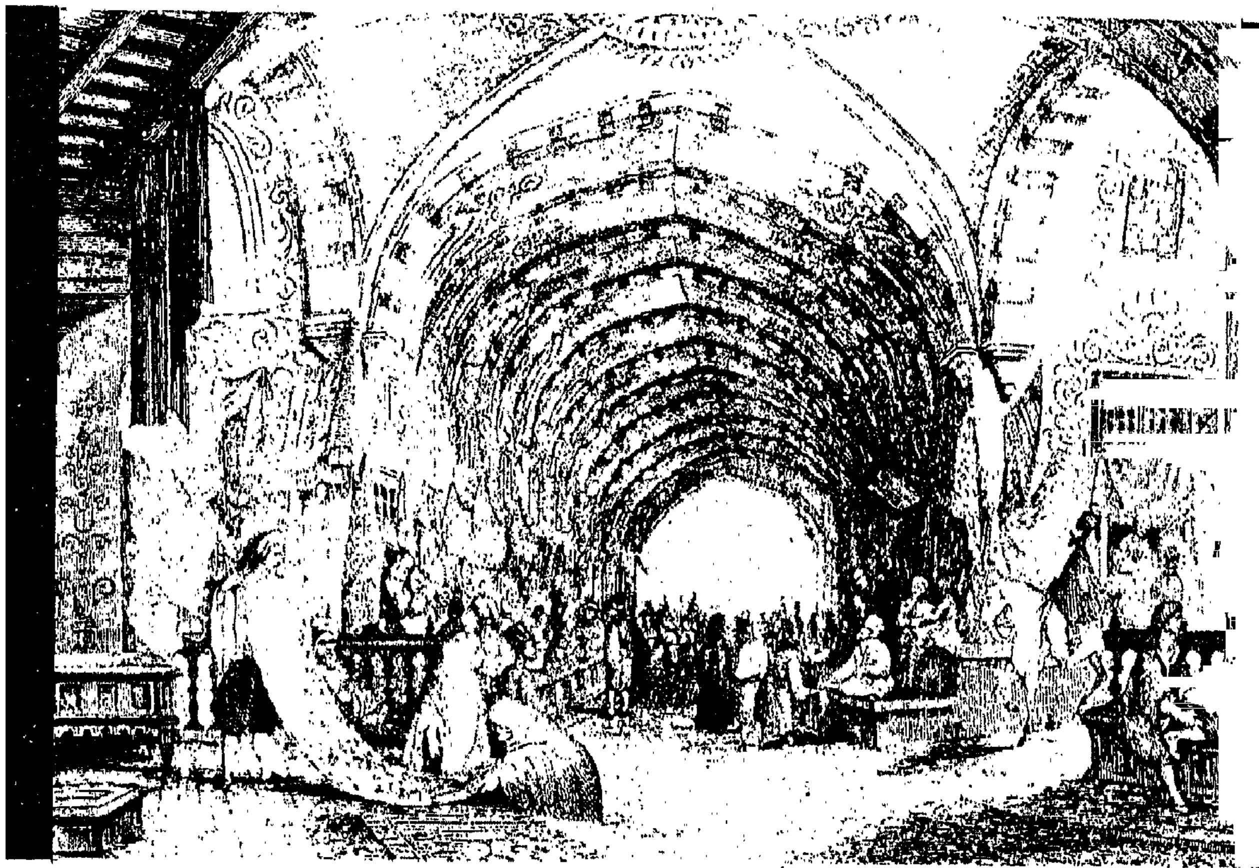


وقد اعتاد الكثير من مؤرخي العصور الحديثة أن يعزو، أسباب التدهور الاقتصادي والفقر الزراعي الذي أصاب البلاد العربية عامة وسورية خاصة، إلى السياسة الفاسدة التي انتهجتها الدولة العثمانية في هذه البلاد، من فوضى في الادارة وانعدام للمشاريع الاقتصادية البناءة. فالواقع أن الأتراك العثمانيين كانوا يرثون أثناء زحفهم وفتوحاتهم في غربي آسيا، القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية لامبراطوريات هرمت، وأقاموا عليها كيانهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وهكذا لم يكن للدولة العثمانية آنذاك من مثل أعلى في التنظيم أياً كان نوعه، سوى المحافظة والابقاء على نظام قائم كانت تؤمن أنه كامل، لأنه منسجم مع الشريعة الاسلامية ومصالحها الخاصة. وأدى هذا الجمود إلى تضافر مجموعة من العوامل، أدت إلى اقفار بلاد الشام وجعل الجانب الأكبر من أراضيها غير مزروعة.

عيوب نظام جباية الميري والجزية:

من أجل انتظام جباية الميري جعلت السلطات العثمانية لسورية دفتراً خاصاً أو سجلاً، حددت فيه الميري الذي يجب أن تدفعه كل بلدة للخزينة السلطانية، وجعل هذا المبلغ ثابتاً لا يتغير ومنع أي كان من العبث به. لكن عيوب هذا النظام سهلت على الولاة التلاعب، وجعله مرهقاً للشعب، وبما أن الحكام لا يجرؤون على زيادة الميري، فقد استحدثوا ضرائب مباشرة تفعل فعل الضرائب وإن كانت لا تدعى ضرائب، وذلك لجمع الثروات التي تمكنهم من تعويض المبالغ التي دفعوها مقابل حصولهم على

حسين سلمان سليمان ماجستير في التاريخ الحديث من جامعة القاهرة يعد أطروحة دكتوراه دولة في جامعة عين شمس. له أعمال غير منشورة (علاقة لبنان بالقوى المحلية في بلاد الشام الجنوبية ومصر (٧٥٣ ــ ١٧٩٠)؛ صدر له العديد من الدراسات والأبحاث في صحف ودوريات محلية).



سوق شعبي شرقي (رسم جوانين وفان كافر).

هذا المنصب.

ومن ذلك أنهم لا يتخلون لأحد من الفلاحين عن أي جزء من الأرض المقطعة لهم إلا بشروط باهظة، كالاشتراط على الفلاح بتأدية نصف الغلة، واحتكار البذور والحيوانات وبيعها له بأسعار تزيد عن قيمتها الحقيقية، وعند استلام الغلة يأخذون منه قسراً أكثر مما يستحق لهم من حصص متّهمينه بسرقة المواسم، وإذا جاءت السنة ماحلة لا يصطبرون بل يطالبونه بتأدية ما سلفوه اياه، ويصادرون مقابل ذلك جميع مقتنياته ليستوفوا دينهم منه.

وإلى جانب تلك التعديات التي تتعرض لها القرية بكاملها، لمجرد ذنب اقترفه بعض سكانها، أو فرض أنواع السخرة عليها مثل تقديم هدية للحاكم الجديد، وتقديم العلف إلى خيله وخيل فرسانه، ويجبرون السكان على ايواء الجند الذين يمرون بالقرية صدفة، أو يقصدونها لتبليغ أوامر الولاة.

ما اعتاد عليه أصحاب الاقطاعات في إطلاق الملتزم، رغبة منهم في زيادة مداخلهم، ففرض هؤلاء المغارم والعوائد وأوجدوا رسوماً على الأحمال والغلال، وانتشرت أساليب السلب والنهب مما سبب في افقار الفلاحين واندثار القرى والمزارع، بسبب عجز فلاحيها عن دفع الميري فهجروا الأرياف وانتقلوا إلى المدن مؤثرين العيش فقراء على أن يكونوا أغنياء وتعود عليهم ثرواتهم بالظلم والاهانة، وبما أن الميري ثابت لا يتغير فقد وجب على القرية وفاؤه بالتمام، فصار يتوجب على الفلاحين الآخرين دفعه كاملاً. فالعبء الذي كان خفيفاً في الأصل، صار على التوالي ثقيلاً، وإذا حصل محل على مدار سنتين، أقحلت قرى بكاملها واقفرت من سكانها فتنتقل ضرائبهم الى جيرانهم.

وفيما يختص بالجزية المفروضة على المسيحيين، فقد حددتها السلطات العثمانية بموجب احصاء أجرته الدولة عنهم في البدء، فصار يجب أن لا ينقص مقدارها مهما نقص عدد الذين فرضت عليهم في البدء، فإذا هاجر من القرية عدد من سكانها المسيحيين فعلى الباقين أن يقوموا بدفع الجزية المفروضة على

أحمد باشا الجزار في جلسة قضائية (عن لوحة انكليزية من القرن التاسع عشر: شارل رو).



الجميع، فيصبح سهم الفرد خمسة وثلاثين أو أربعين قرشاً، مما يؤدي إلى أثقال كاهل ذلك الفرد أو اجباره على تفادي ذلك بهجرة دياره.

مظالم الوالي العثماني وجنوده:

كان الولاة العثمانيون لا يدفعون إلى جنودهم كامل رواتبهم المستحقة لهم، بل كانوا يخصّون أنفسهم بجانب منها. وقد وصف لنا أحد التقارير الدبلوماسية الفرنسية الصادرة عن قنصلية فرنسا في صيدا مشهداً حياً لجنود أحمد باشا الجزار والي صيدا من (١٧٧٦ إلى ١٨٠٤).

«تتذمر القوات من تأخر دفع كامل رواتبها منذ عدة أشهر، فالباشا لا يدفع لقواته رواتبهم المستحقة، وكانوا بدون خبز وبدون دراهم وبدون علف...(١)».

ويعوض الباشا هذا النقص بالاكثار من الحملات والبعثات الحربية على البلاد التي يتمنع ملتزموها بسبب العجز عن دفع كامل الأموال المطلوبة منهم، ويتغاضى أثناء هذه الغزوات عما يرتكبه الجند من جرائم وآثام حيث يقومون بعد احتلال المدن والقرى بنهبها وإحراقها وقتل شيوخها ورجالها، والقبض على النساء والأطفال وبيعهم كالرقيق في أسواق المدن. وقد تركت لنا الوثائق الفرنسية وصفاً لحملة قام بها جند أحمد باشا الجزار في سنة ١٧٧٧ على مدينة بيروت وأخرى على اقليم الخروب في منطقة الشوف جنوب جبل لبنان

«... أخلى السكان المدينة عند اقتراب الدالاتية والحضارية وأصبحت مهجورة، لم يوفروا شيئاً نهبوا دير الكبوشيين، وكان فرح رجال الدين عظيماً كونهم استطاعوا النجاة بأنفسهم هرباً. وصل المغاربة وغيرهم من العصابات الذين لا يطيعون سوى الجزار، فوجدوا المدينة قد تركها سكانها، فهجموا على ثلاث قرى قريبة من بيروت جميع سكانها من النصارى، وتعرّض الجميع للموت حرقاً أو ذبحاً، واستعبدوا الرجال أو ذبحوهم، وبيعت النساء والأطفال بسعر قرشين للشخص الواحد(٢).


السلطان عثمان الأول المؤسس.

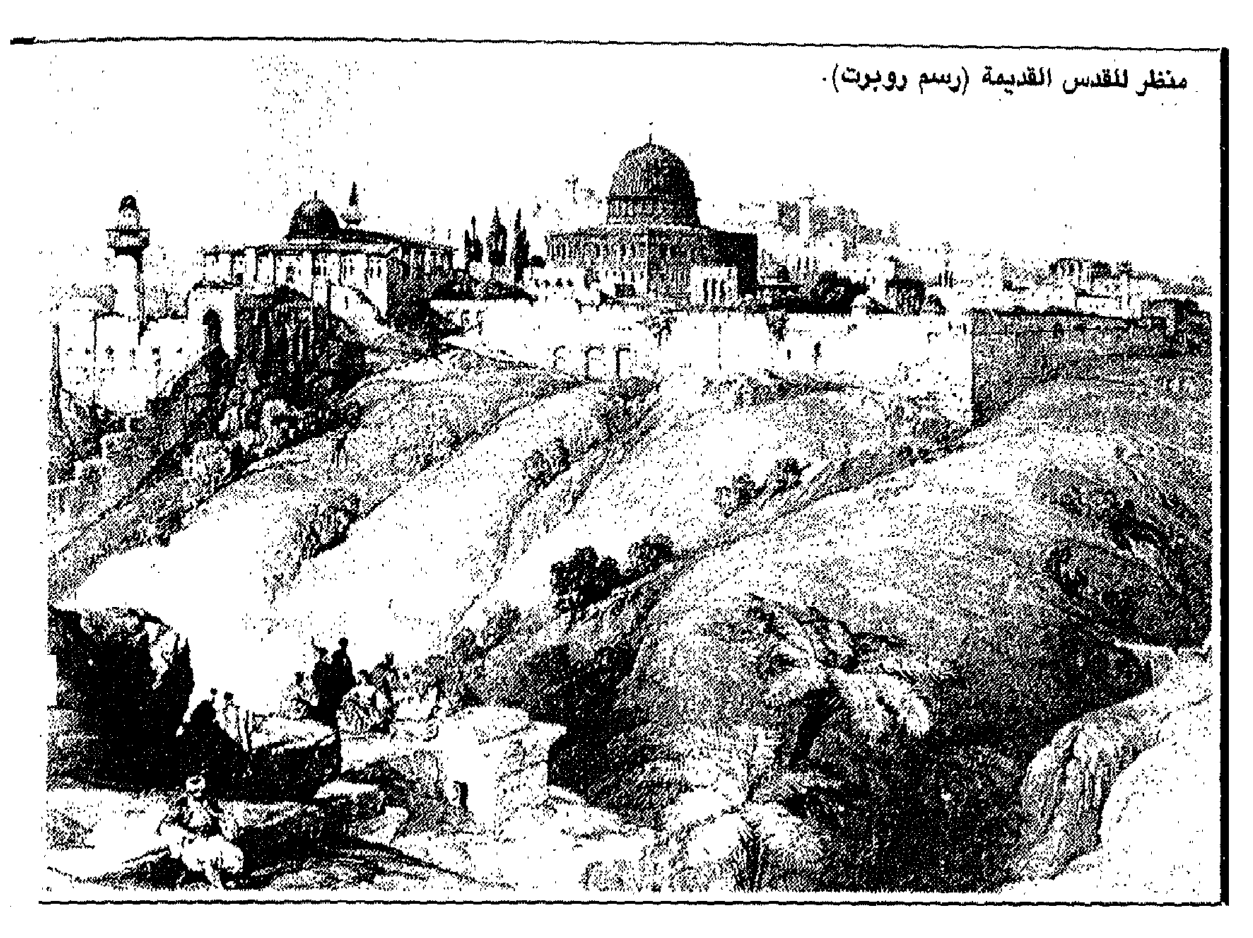
«ذبحوا جميع الرجال الذين صادفوهم ولم يتمكنوا من الهرب، ونهبوا وخربوا كل القرى التي مروا بها خلال هذين اليومين والأيام التي تلتها. عاد الجند إلى المدينة لكي يودعوا في مكان أمين الغنائم التي أتوا بها، وكانت خيولهم محملة بالأطفال الذين باعوهم، وجلبوا الفتيات الرضع من عمر ستة أشهر. ...لا نعرف ولا يمكننا أن نقدر الثروات التي تقاسمها الجند، لم يوفروا شيئاً ونهبوا حتى الكنائس. وشاهدنا المغاربة بوجوه أشبه بالدببة منهم إلى البشر، يختالون في المدينة وهم يحملون بأيديهم الأوعية المقدسة وأقمشة تلمع بالفضة والذهب... شاهدت اليوم خيولاً تحمل شجرة مقلوعة من جذورها وهددوا بالثورة وأعلنوا بصوت عال بأن نهب المدن يجب أن يكون دخلهم. وصرّح الباشا لمترجمي بأن لولا الذي حصل، لكان هؤلاء التعساء في حالة لاتطاق ...وفي النهاية من دائرة بقطر سبعة وعشرين ميلاً، كانت تضم منذ عدة أيام عدداً كبيراً من القرى، أصبحت اليوم قفراً واسعاً لا تشاهد فيه الاّ جثث منتشرة ولا تجد فيه مخلوقات حية، وقد عم فيها الخراب والدمار...»(٣)

وكانت مثل تلك الحملات خير تعويض للجنود عن رواتبهم المستحقة، حتى أن جنود الجزار أعلنوا له بعد هذه الحملات التي ذكرناها أنهم اكتفوا بالنهب الذي قاموا به، «وبأنهم تخلوا عن رواتبهم القديمة المستحقة لهم، وبأنهم لن يطالبوه بشيء إلى وقت طويل وهددوا بالتمرد عليه إذا لم يحصل نهب المدن بمثابة رواتب لهم»(٤).

لا شك بأن مثل هذه المظالم قد سببت في خراب الولايات وتدميرها، وقضت على كل رغبة لدى السكان في البقاء، وأشاعت المحل في البلاد وانتقل من استطاع من سكان الريف إلى عاصمة الولاية، حيث تغفل عنهم عين الوالي. فمن أصل ٤٠٠ قرية مسجلة في الميري بولاية حلب، لم يبق فيها سوى ٢٠٠ قرية.

كان الاتصال الأمين يقتصر على طول الساحل، من بيروت لغاية أقدام مرتفعات لبنان الشمالية، ومن صيدا لغاية دمشق وبعض

منظر للقدس القديمة (رسم روبرت).



أجزاء من سوريا، من صور إلى عكا وبعض الأراضي البعيدة عنها قليلاً مثل السامرية وباتولية. وأشارت إلى ذلك الوثائق الفرنسية عن عكا بقولها.

«... لا يمكننا الذهاب من يافا إلى الرملة التي تبعد أكثر من أربع ساعات، دون أن ندفع الخفر وغالباً ما نحتاج إلى قوة عسكرية..»(٥).

ولم يكن السفر يتم إلا بمواعيد معينة وبمصاحبة القوافل، لأنه لا يمكن لأحد السفر بمفرده خشية أن يتعرض للسلب والنهب من قطاع الطرق واللصوص. فمن يرغب الانتقال من مكان لآخر عليه أن ينتظر ذهاب مجموعة من المسافرين إلى المكان نفسه، أو يتحين ذهاب أحد أصحاب النفوذ الذي يجعل من نفسه حامياً للقافلة، وكان من الضروري التحسب لهذه الأخطار وعلى الأخص في المناطق المعرضة لاعتداءات البدو في فلسطين وأطراف البادية. وقد انعكس هذا الوضع على الأجواء اللبنانية الشعبية، ومنها هذه الأغنية القديمة.

أرقصي يا مليحة — أرقصي ولا تبالي
زرف المخشخش — بثقل الجمال
زوجك يا مليحة — راح على الشام وحده
زوجك يا مليحة — بوزيد الهلالي

وإلى جانب أخطار الطريق لم تعرف سوريا في ذلك الوقت الراكب والمركبات، وكان يخشى السكان اقتناءها خشية مصادرة الحكام لها، وكانت تنقل الأحمال الثقيلة على ظهر الحمير والبغال في المناطق الجبلية، لأنها تتمكن من تسلق الصخور والانحدار عليها، في حين كان يغلب استعمال الجمال في السهول. وإلى جانب ذلك كله كان يعمل الأهالي إلى مضاعفة وعورة المناطق الجبلية، للحيلولة دون وصول فرسان الحكام إليهم.

تعذر الملاحة البحرية:

ولم تكن الملاحة البحرية بأفضل من النقل البري، رغم أنها كانت العامل الرئيسي في نقل الانتاج الزراعي، الذي كان يقوم التجار الأوروبيون بتصديره إلى بلادهم. فعلى طول



حفلة عشاء تكريمية لسفير أوروبي في دارة الصدر الأعظم

الساحل السوري لم يكن هناك ميناء صالح لرسو السفن واستيعاب سفينة تزن أربعمئة طن، ولا توجد حصون وأبراج مجهزة بالحاميات والعتاد اللازم لرد غارات الأعداء. والقرصان المالطي الذي كان يجوب الموانىء السورية، بمراكب حسنة التسليح على متن بعضها عشرون مدفعاً، كانت تقطع الطريق على السفن والقوافل التي تنقل البضائع ما بين هذه الموانىء، فتأسر بعضها وتدمر البعض الآخر وتستولي على ما تحويه من بضائع. وأحياناً كانوا يغيرون على الموانىء نفسها، فأما يأسرون بعض المراكب الراسية فيها، أو ينزلون إلى البر وينهبون ما استطاعوا حمله من المؤن التي ينقلونها إلى مراكبهم، مما كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى توقف النقل البحري وشل النشاط التجاري. وأشارت إلى ذلك الوثائق الفرنسية الصادرة عن صيدا بقولها:

«...الزوارق التي تنقل بالات خيوط القطن من يافا إلى عكا وإلى صيدا لتحمل على مراكبنا لم يعد بامكانها الابحار، وهذا سوف يؤدي إلى توقف تجارتنا والقوافل...»(٦).

وبالرغم من أن الخسائر التي كان يحدثها نزول القرصان إلى البر، كانت تصيب سكان البلاد والتجار الأوروبيون على السواء، فان الأهالي كانوا يحملون هؤلاء الأخيرين مسؤولية هذه الغارات، فيقتحمون أماكن تجمعهم ويلحقون بهم الاهانات وينهبون ممتلكاتهم. وفي بعض الأحيان يكون التحريض بايعاز من الباشا نفسه، لكن الأضرار التي كانت تلحق بهم إنما كانت في السواحل التي لا يوجد بها باشاوات لضبط العامة.

«...يحملوننا بصورة دائمة مسؤولية السرقات التي يقوم بها القرصان أمام أعيننا سواء في الموانىء أو الجوار...»(٧).

وقد نتج عن ذلك أن أخذ التجار الأوروبيون يحجمون عن الاقامة في المدن الساحلية بسبب هذه التعديات، إلى جانب الحد من كمية المبالغ المستثمرة في المبادلات التجارية، وبعد أن استفحلت هذه التعديات وكادت تهدد تجارة فرنسا، نشط المسؤولون في قنصليات



استقبال سفير أوروبي في قاعة السلطان ١٧٨٨.

فرنسا في المشرق، في الكتابة إلى حكوماتهم للسعي في ايجاد حل لنشاط القرصان.

«...يسبب لنا القراصنة المالطيون يومياً مضايقات جديدة، التمس من سيادتكم هذا الخطر خشية أن لا تكون الطائفة (أي الجالية الفرنسية) ضحيتهم ...»[٨].

استتباب الأمن ووفرة القوات في مراكز الولايات:

تميز سكان المدن السورية بأنهم كانوا أقل بؤساً وفقراً من فلاحيها، وذلك نظراً لأن ما يملكه أرباب الحرف والتجار فيها، كان يتألف من أشياء يمكن نقلها واخفاؤها بسهولة، فيتمكنون بذلك من الهرب من جشع الحكام. وأدى ذلك إلى هجرة فلاحي البلدان الأخرى ممن لا تحتاج الأرض إلى خدماتهم إلى المدن، وهجرة فلاحي القرى السورية تاركين أراضيهم التي لا تحتاج إليهم، ومفضلين عليها الأمن والطمأنينة في المدن. وذلك لأن حكام الولايات كانوا يبذلون قصارى جهدهم إلى تأمين الأقوات في المدن الكثيرة السكان، وعلى الأخص تلك التي يقيمون فيها. وإذا حدثت مجاعة ينقلون إليها الحبوب من غيرها، ويجبرون أصحاب المتاجر على بيعها بالأسعار التي يعينونها تحت طائلة العقوبات.

احجام سكان بلاد الشام عن ممارسة التجارة:

كان يمارس التجارة في المدن السورية التجار الأفرنج، وكان يعرض عنها المسلمون لا بسبب الكسل أو مراعاة لعقائد دينية، وإنما للمصاعب التي كانت تضعها السلطات العثمانية في وجه رعاياها، وتفضيل الباب العالي للأجانب طمعاً في الربح. وقد تمكنت بعض الدول الأوروبية من عقد معاهدات مع السلطان، يتعهد بموجبها بفرض ضريبة مقدارها ٣٪ على البضائع التي كانت ترسلها إلى بلاد السلطنة، في حين كان يفرض على رعاياه ضرائب مقدارها ١٧٪ على البضائع التي كانت تنقل من مناطق الانتاج إلى مراكز الاستهلاك.

وبالاضافة إلى ذلك المكسب الذي حظي به الأوروبيون، فقد كان من حقهم أن يتخذوا وكلاء لهم من الوطنيين أصحاب الطقس اللاتيني، واشراكهم في امتيازاتهم بحيث لم تكن للحاكم وموظفيه أية سلطة عليهم. ولا يستطيع أحد أن يعزلهم، والقضايا التي كانت ترفع إليهم ينظر في أمرها في ديوان القنصل. وكان يعرف هؤلاء الوكلاء في بلاد الشام باسم «تراجمة أصحاب البراءة»، فقد كان السلطان يمنح البراءات للسفراء المقيمين في الأستانة، ويقوم هؤلاء بدورهم بأهدائها إلى الوكلاء الوطنيين.

ونظراً لأن أقصى ما يتمناه العربي هو أن يكون قنصلاً، فليس غريباً أن يبذل المال الوفير للحصول على هذا المنصب، الذي يحميه بصفة وكيل قنصل من ظلم السلطات العثمانية، فالبراءة تحميه من العقوبات. ولذا لم يكن غريباً أن يتهافت نصارى بلاد الشام الأثرياء، على بذل المبالغ الباهظة من أجل الحصول على تلك البراءة، واستفاد من ذلك السفراء فعمدوا إلى بيعها، وجنوا من جراء ذلك أرباحاً طائلة.

تلك هي مجموعة عوامل كان لها دور في سرعة تدهور الحياة الاقتصادية لبلاد الشام خلال أربعة قرون من الحكم العثماني، فأقفرت قرى بكاملها من السكان وشاع المحل في البلاد. ■

الصور من كتاب عادل اسماعيل.
Le Liban. Documents diplomatiques et consultaires.

الهوامش:

(١) AEB[1] 1073 Seyde le 17/2/1777 (*).
(٢) AEB[1] 1037 Seyde Le 24/4/1777.
(٣) AEB[1] 1037 Seyde Le 17/2/1777.
(٤) Ibid.
(٥) AEB[1] 979 Acre Le 16/7/1783.
(٦) AEB[1] 1021 Seyde Le 24/4/1719.
(٧) AEB[1] 1021 Seyde Le 4/3/1719.
(٨) AEB[1] 1019 Seyde Le 20/10/1713.

(*) ترمز الثلاث أحرف الأولى (AEB[1]) الى اختصار عبارة (Affaires étrangeres serie B[1]) ويدل الرقم الذي يليه على رقم المجلد ومن ثم المركز القنصلي الصادر عنه ويليه تاريخ التقرير في اليوم والشهر والسنة.

المصادر:

أولاً: وثائق:

Archives Nationale de Paris
réperatoire numerique de la sous serie B[1].

poste Consulaire	numeros de volumes	Année
Seyde	1019	
	1037	
	1021	
Acre	979	

ثانياً: وثائق منشورة:

ISMAIL, Adel. Documents Diplomatiques et Consulaires relatifs à L'histoire du Liban et des pays du proche-orient du (XVII siècle à nos jours, (1975-1981), 20 vols.

ثالثاً: مصادر أصلية

بريك، مخايل، تاريخ الشام (١٧٢٠ ــ ١٧٨٢) مخ. نشره الخوري قسطنطين الباشا عن النسخة الوحيدة الموجودة في مكتبة برلين من مخطوطاتها العربية رقم (٩٧٨٦). حريصا، سنة ١٩٣٠.

دنديني، ايرونيموس. رحلة إلى جبل لبنان، تر. عن الايطالية إلى الفرنسية المستشرق ريشار سيمون سنة ١٦٣٥، تر. إلى العربية الأب يوسف العمشيتي ونشر تباعاً في المجلة البطريكية م. ٦ ص ١٠٨.

غين، هنري. بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن. تر. مارون عبون، بيروت، سنة ١٩٥٠، الطبعة الثانية، جزءان.

فولني، فرنسوا. سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي، صيدا، ١٩٤٨، جزءان.

المعلوف، عيسى اسكندر. دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف. بعبدا، (١٩٠٧ ــ ١٩٠٨).

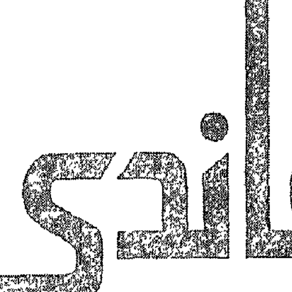
غاندي محرّر الهند

د. رياض العالي

اهتزت الأمبريالية البريطانية، غداة الحرب العالمية الثانية، في الشرق الأقصى، بالهجوم الياباني عام ١٩٤٢، وبتحرر خُمس شعوب العالم.

١٥ آب ١٩٤٧ تخلى نائب الملك في الهند اللورد لويس مونتباتن عن مهامه. فكان آخر سلسلة من نـواب الملك، بدأت عام ١٨٥٨، بـل قبل ذلك بكثير،فحين أعلنت الملكة فكتوريا امبراطورة على الهند عام ١٨٧٧، فإنها في الحقيقة دشنت إدارة انكليزية استعمارية، وعينت نائباً للملك مكان الحاكم العام، وهو مركز من جملة الامتيازات التي أقامتها شركة الهند (البريطانية)[1] التي نشأت منذ القرن السابع عشر، تحت إشراف التاج البريطاني المباشر، فأنشأت بعد ذلك الهند البريطانية

امبراطورية الهند:



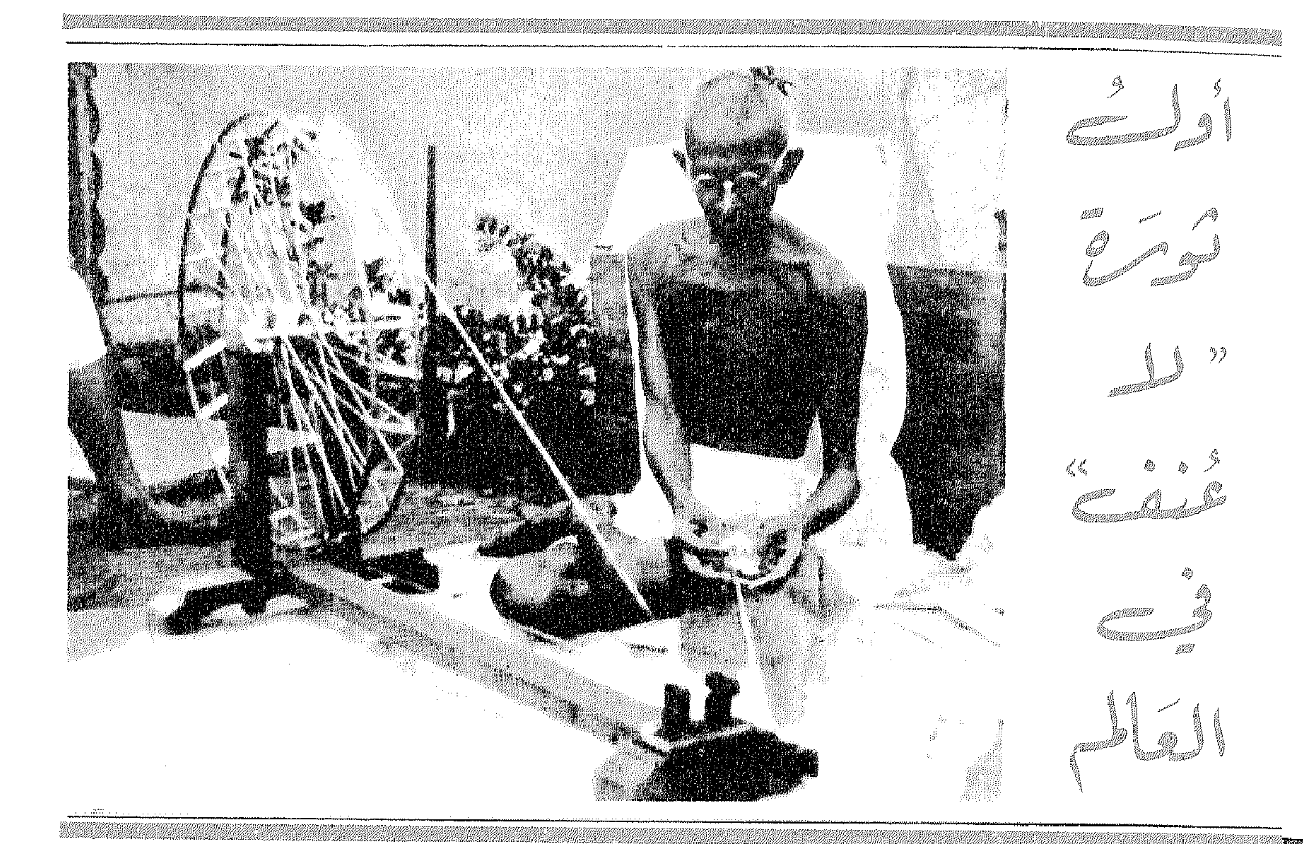
أهدى اللورد كورزون، وهو أحد نواب الملك في الهنـد، أحد كتبـه «إلى كل الأشخـاص من الجنسيـن الذيـن يعتقدون، أن الامبراطورية، بعد الله تعالى، أكبر قوة على وجه الأرض، تعمل للخير».

تلك هي المبـادىء التي أتاحت لمـائة ألف أبيض ولجيشهم الانكليزي في الهند، أن يوطدوا الأمن في شبه قارة كـاملة، لضمان مصلحـة بريطانيا العظمى وتطورها الاقتصادي.

حتى عام ١٨٥٨ كانت القوات الانكليزية في الهند، هي قوة شركة الهند، وكانت مؤلفة من ثلاثة جيوش: جيش مدراس، وجيش بومباي، وجيش البنغال. وقد ثار جيش البنغال (وقوامه ٣٠٠٠٠٠) عام ١٨٥٧ بحجة إعطاء الجنود رصاصاً فـاسداً مـدهونـاً بشحم البقر. وقـد أغرقت هذه الثورة البنغال بالدم. وأتاحت إعادة هيمنة الاستعمار البريطاني إلى عموم الهند، كما يقـول بيير غيـوم. عـام ١٨٥٨ ضمت قـوات الشركة إلى الجيش البريطاني.

أما المسؤول عن هذه المهمة الضخمة، والذي كان بمثابة ملك ووزير أول، وكـان يحكم تلك البـلاد الشاسعـة، فهـو نـائب الملك، تسميـه جلالتها، ويتبع مباشـرة وزير الدولة لشـؤون الهند. أما حكام المناطق الذين يعينهم نـائب الملك، مع مجالس الشـوري التي تعاونهم في الحكم، فيسـاعـدون نـائب الملك عـلى القيـام بمهماته. وكان معظمهم من البرجوازية اللندنية، ومن الجهـاز المطلق السلطة (Indian Civil Service). ولكن المثـل الفكتوريـة، التي كان يجسدها الموظف البريطاني «كالتقدم، والطاقة، والسلوك المستقيم»، بـدت متهافتـة في القـرن العشـرين. ولقد أشـار جواهـر لال نهرو إلى أخطاء هؤلاء الحكام الذين كانوا يزعمون أنهم حماة الهند، والحائزون على ثقة الجماهير، بينما لم يقدروا حقيقة التطور، ولا متطلبات العصر، ولا البورجوازية الجديدة العدائية.

أضف إلى ذلك أن (I. C. S) كانت تضم خمسة بالمائة من الهنود عام ١٩١٥، فصارت تضم خمسة وأربعين بالمائة عام ١٩٣٩. كما



غدا معظم الموظفين في المراكز الصغيرة، خاصة الجباة، من الهنود. وسخر البريطانيون التعليم لتخريج موظفين إذ لم يكن ممكناً الاتيان بإنكليز يتسلمون كل الوظائف الثانوية. ولهذا وضعوا مناهج خاصة زعموا أنها «تثقيفية وتحضيرية».

وكانت للبريطانيين امتيازات، سنها قانون الشركة البريطانية، لا تتاح للهندي، ثم سادت القوانين تدريجياً بين الهنود والبريطانيين في بعض الأمور فحسب. وحين تسلم الأحرار الحكم، عام ١٩٠٣، وجهوا سياستهم الاستعمارية وجهة مرنة ديمقراطية. وأعلن وزير الدولة لشؤون الهند، عام ١٩١٧ أن سياسة الحكومة البريطانية تنوي «أن تطور تدريجياً المؤسسات التمثيلية، بهدف تحقيق الحكم التمثيلي تدريجياً في الهند، التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من الامبراطورية البريطانية». وقد منح قرار ١٩١٩ الهنود حق مساهمة محدودة في إدارة الشؤون المحلية، وذلك بتعيين وزراء هنود، إلى جانب السلطة البريطانية في المقاطعات، وإنشاء نواة لبرلمان مركزي. وعام ١٩٣٥ أنشىء أول جهاز ثنائي لادارة الهند.

المهراجا والناباب:[٢]

كان تحت الحكم البريطاني «هندان»: المقاطعات، و٥٦٥ إمارة مستقلة، يحكمها حكام وراثياً، فيسيطرون على ثلث الهند، أي حوالي مائة مليون نسمة.

وكانت السلالات التي تحكمها، من نسل فاتحين مسلمين، وقلما كانوا من أصل هندي: فمثلاً: نظام حاكم حيدر أباد يحكم مع نخبة مسلحة وجيش مرتزقة احد عشر مليون هندي.

وإبان ثورة الجنود الهنود، كان لبعض من العائلة المالكة دور فعال: امّا بتحريض الجماهير ضد البريطانيين، الذين كانوا يريدون سلخ ممتلكاتهم، وإما، على العكس، بدعم القوة الاستعمارية ضد الثائرين، هذا الدعم الذي كان

(١) يقول إدموندبورك «أن الشركة لعبت دور الدولة متنكرة بزي تاجر».
(٢) المهراجا لقب يطلق على الأمراء الهنود. والناباب على الأمراء المسلمين.





الانكليز القلقون من تحرّكات غاندي، لم يتورّعوا عن سجنه عشية اليوم الأول للحرب العالمية الأولى

حاسماً أحياناً. لذلك رأت حكومة الاستعمار أن دعم الامارات واعتبارها شرعية، يوطد الاستقرار. وقد قبل الأمراء سلطة العرش البريطاني، تاركين لنائب الملك الاشراف على الشؤون الخارجية والدفاع. وقد منحوا حرية واسعة مارسوها في إنشاء علاقات سياسية بينهم، ولكن الحكومة البريطانية احتفظت بحق التدخل في حالات الخلاف.

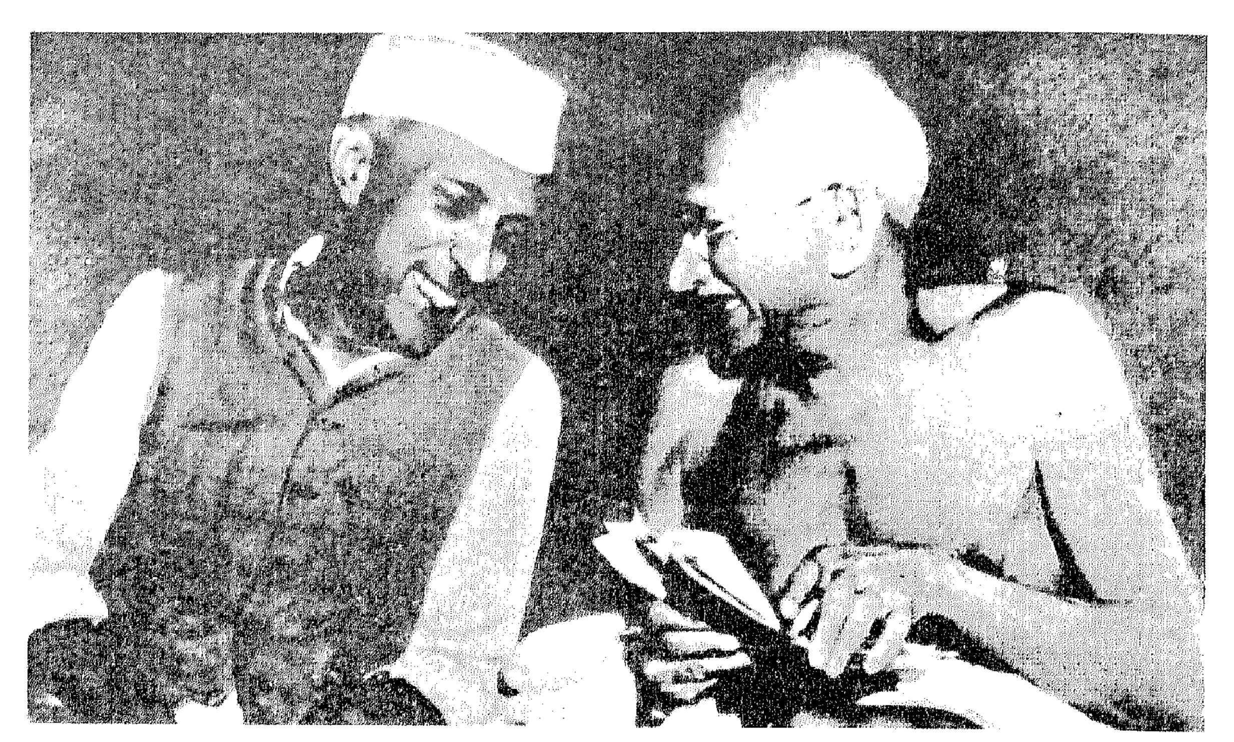
عرفت الامارات في هذه الفترة حالة هدوء، خاصة والامراء لم يكن عليهم حماية حدودهم. ولكن تشبث كل أمير بحكمه، عرقل قيام نظام تمثيلي موحد.

ولكن الادارة البريطانية خططت لوحدة اقتصادية وسياسية. وأصبحت اللغة الانكليزية اللغة العامة، خاصة لدى الطبقات المثقفة. وأقام البريطانيون شبكة مواصلات، أبرزها الخطوط الحديدية التي أتاحت قيام التبادل التجاري والاتصال بين مختلف المقاطعات، وقيام مدن جديدة. ولكن البريطانيين قلبوا الاقتصاد الهندي رأساً على عقب. فطلبُ انكلترا القطن على نحو واسع، مع تعجيل التصنيع، حوّل عدداً كبيراً من الحائكين الهنود إلى مزارعين. وحيث أمكنت زراعة القطن، حلت محل المزروعات المعيشية، مما خلق مصاعب جمة أمام الهند غداة تحررها.

سياسة فرق تسد:

في أي وضع وجد اللورد مونتباتن الهند، هذه الأرض الشاسعة الممزقة إلى عدة دويلات مستقلة، لم يبد عليها، حتى ذلك الحين انها معنية بأية وحدة سياسية؟ فمساحتها أكبر من مساحة أوروبا، دون روسيا (٣,٨٠٠,٠٠٠ كم٢). فسيفساء من الأجناس والأعراق والمذاهب، واللغات المختلفة (٢٢٥) لغة، لا يفهم بعضها لغة بعضها الآخر. يقطنها مئات الملايين، تحتضنهم بنيات مختلفة الجغرافية، تتراوح بين أعلى قمة في العالم وسهول واطئة مستنقعية، وتتخللها مناخات متناقضة جداً.

إنها أرض شاسعة، يقطنها بشر ينتمون إلى طبقات أربع، ويتوزعون على أكثر من ثلاثة آلاف ملة وشيعة. عدا الكتلة البشرية الهائلة من المعدمين. بكلمة واحدة، الهند هوية جغرافية، تطلق على مستودع بشري من القوى والامكانات المادية. ولكنها لا «تشكل أمة» حسب قول



غاندي مع نهرو وقد نمت علاقتهما الحميمة منذ ١٩٣٠ حين اختار غاندي نهرو لرئاسة المؤتمر

سوزان لاسيي، في كتابها غاندي واللاعنف.

والواقع أن سياسة الاستعمار البريطاني عمقت الفروق بين مختلف الطوائف، ووظفتها لاضعاف شعب الهند، لتسهل عليها السيطرة.

صحيح أن نظام الطوائف ألغي، رسمياً، عام ١٩٤٩، ولكن آثاره لم تزل، فاستغلاله، وتحريض الطوائف بعضها على بعض، خلال فترة طويلة من الزمن، لا يمكن أن تمحى آثاره بقرار.

ولقد كان شغل غاندي الشاغل الدفاع عن المحرومين، خاصة، في بدء حياته السياسية، ومنذ كان محامياً في جنوب أفريقيا، حيث تقيم جالية هندية كبيرة، مهضومة الحقوق، مستغلة منبوذة، لا يتنازل البريطاني إلى التعايش معها، لأنها طبقة دونية في نظره، ويحرض الافريقي عليها.

وحين وقف ضد التمييز الطائفي، اتهمه من يستغلون الدين بأنه يعرض الدين للخطر. وقد قيل كذلك إن غاندي راغب في استمالة المسلمين إليه (١٠٠ مليون يومذاك، من أصل أربعمائة مليون). ليكونوا عماله ضد البريطانيين الذين كانوا يسيطرون باستغلال التناقضات الهندوسية الاسلامية.

وقد استطاع الانكليز إثارة المذابح والحرائق والنهب والسلب، على نحو خطير جداً عام ١٩٤٧، خاصة إحراق المساجد المسلمة ونهبها. وكانت البنجاب مسرحاً فعلياً لحرب أهلية.

كان محمد علي جناح، منذ ١٩٠٦ قد أنشأ حلف المسلمين، بدعم الانكليز الخفي. عام ١٩٤٠ طالب بتقسيم الهند، من أجل خلق دولة باكستان. ١٢ آب ١٩٤٦ أعلن جناح عن «يوم العمل» أي أن الساعة دقت. وقامت في كالكوتا تظاهرات صاخبة، برهنت للانكليز والهنود أن المسلمين مستعدّون «لاحتلال الباكستان، وإن بالقوة». وامتد العنف إلى الريف وبلغ ذروته في منطقة نوكالي (٨٠ بالمائة مسلمون). وفي بيهار (أغلبية هندوسية) حيث قتل قرابة عشرة آلاف مسلم.

وقد بدت دعوة غاندي إلى اللاعنف، وإلى وحدة المسلمين والهندوس شبه مستحيلة، في مقابل دعوة جناح. وحاول غاندي تحقيق تلك الوحدة في قلب حزب المؤتمر الهندي، الذي سيكون وسيلته إلى الاستقلال.



محمد علي جناح مؤسس باكستان

بدء الثورة على الانكليزي ــ الأبيض:

سبق تدخل غاندي، حركة المؤتمر الهندي (أسس ١٨٨٥)،ورجال أمثال بال فاندادهار تيلاك، (١٨٥٦ ــ ١٩٢٠) وغوبال كريشنا غوكال (١٨٦٦ ــ ١٩١٥) ــ كان نهرو يعتبر تيلاك أبا الثورة الوطنية. وكان غاندي يعتبر غوكال «غورو» الثورة، أي قديسها ــ

وقد طور المؤتمر الحركة الوطنية، نحو الاستقلال. ورافق ذلك صعود الطبقة الوسطى من المثقفين التي اغتنت مع بدايات التصنيع. وكان الذي أنشأ حزب المؤتمر الأيكوسي «خيوم»، لذلك حظي المؤتمر بدعم بريطاني (إذ رأى نائب الملك أن حزب المؤتمر صمام أمان بالقياس إلى القوى الكبرى الصاعدة). والواقع أن المؤتمر كان الناطق الرسمي باسم البورجوازية الهندية، ولكنه اضطر إلى اتخاذ مواقف راديكالية عام ١٩٠٥.

وقد كان لنفور الشعب من اللورد كورزون الأثر الكبير في تحريض الحركة الوطنية الناشئة. فقد ظن أنه يدعم السلطة بغرض تقسيم البنغال إدارياً، مما أشعل الثورة سريعاً. فقامت محاولات اغتيال وتخريب، وألقيت قنابل على قطار نائب الرئيس. عام ١٩٠٦، في كلكوتا، فأعلن حزب المؤتمر عن (السواديشي) عن مقاطعته البضائع البريطانية. ثم أعلن عن مطالبته بالحكم الوطني (سفاراج). وقد لخص غاندي ذلك بقوله: «قانون الوطن الحقيقي هو القانون الذاتي، أو الحكم الذاتي».

مع ذلك، وقفت المعارضة الهندية، خلال الحرب العالمية الأولى، إلى جانب بريطانيا، وعام ١٩١٩ وافق المؤتمر على بعض الاصلاحات التي اقترحها البريطانيون. ولكن قانون رولات، من السنة ذاتها، قضى بقيود شديدة على كل تحرك وطني. فترك غاندي الحزب الوطني لانقساماته (بعضهم وافق على المشاركة في الحكم، وبعضهم طالب بطمأنينة البلاد)، ودعا إلى الاستقلال والنضال في سبيله، وإلى رحيل الانكليز.

حركة الجماهير اللاعنفية:

أعلن غاندي يوم الاضراب العام في ٦ نيسان ١٩١٩، تاريخ بدء نضاله ضد السلطات البريطانية. ودعا إلى أن يعلق الشعب كله، كل نشاط، وأن يصوم ويصلي خلال يوم كامل. وقد بدأ يطبق تعاليم كتابه الذي كتبه في افريقيا، وعنوانه: حكم الهند الذاتي. ويقوم على الأسس التالية: إشاعة الحقيقة واللاعنف، وإحلالهما محل العنف والكذب في جميع مظاهر الحياة. كان ذلك في نظر غاندي الدواء الشافي لكل الآلام التي تعاني منها الهند.

سكن غاندي افريقيا منذ ١٨٩٣ حتى ١٩١٤، بين جالية هندية عددها مائة ألف، كان اسمها على لسان البيض: «الدودة الآسيوية». وكان غاندي الناطق باسمها، المدافع عنها، المطالب بحقوقها. وقد أصدر جريدة «الرأي الهندي»، وألح فيها على ضرورة العمل وكسب العيش بالجهد، والتساوي في الأجر عن العمل الواحد. عام ١٩٠٦ في ٢٢ آب، نُشر في الترانسفال مشروع قرار للاحصاء، الهدف منه عملياً تمييز الهنود، عنصرياً، فتمرد غاندي على المشروع ودعا مواطنيه إلى رفض الخضوع إليه، مهما كلفهم ذلك. ودعا كذلك إلى تنفيذ



نهرو ولياقات علي خان يوقعان على تقسيم الهند إلى هند وباكستان.

مبدأ «عدم طاعة القوانين الجائرة». فسجن.

عام ١٩١٣ صدر قرار جديد أغلق بموجبه حدود الترانسفال في وجه الهنود. فقاد تظاهرة سلمية من الرجال والأطفال والنساء (عددهم خمسة آلاف)، لتتخطى الحدود المقفلة دون إذن. وأعلن العمال الهنود الاضراب العام تضامناً مع ذويهم، فقمع بعنف وصدر قانون الأحكام العرفية. ولكن غاندي قابل ذلك بالدعوة الى عدم التخريب والايذاء والذهاب الى حد «معانقة» الخصم. وقد كان أثر ذه البادرة عظيماً في الهند وبريطانيا. كان النجاح شاملاً، واضطرت بريطانيا الى منح الهنود حقوق المواطنين البريطانيين. وهكذا برهن غاندي عن فعالية مبدأ اللاعنف. عام ١٩١٤ عاد الى بومباي، وطنه الأصلي، ليشرع حركة المطالبة بالاستقلال.

فقير نصف عار يحقق الاستقلال:

كتب غاندي في كتابه «حكم الهند الذاتي»: «أريد أن أخدم المعتدلين والمتطرفين. فإذا اختلفت معهم في الموقف، عرضت موقفي عليهم، ودمت على خدمتي إياهم». كانت الجماهير تنقاد إلى كل موقف أو رأي يبديه، فقد غدا المهماتما «الروح الكبرى»، وراح يجوب الهند حافي القدمين، يرتدي ثياب فلاح فقير.

لم يرض غاندي يوم الاضراب (٦ نيسان ١٩١٩) لاندلاع الصدامات والعنف فيه من جانب البريطانيين والهنود، بينما دعا إلى إضراب غير عنيف. ففي البنجاب أعطى الجنرال داير أوامره باطلاق النار على التظاهرة. فقتل أربعمائة، وجرح أكثر من ألف. فعلق غاندي مؤقتاً «عدم الطاعة مدنياً» وتسلم رئاسة المؤتمر الهندي، وجعل أعضاءه يوافقون على خطته في عدم التعامل والتعاون مع الانكليز، ورفض كل الألقاب، ومقاطعة الأقمشة البريطانية والاستعاضة عنها بأثواب تحاك على المغزل من القطن. وقد أثر ذلك تأثيراً مباشراً على المصانع البريطانية. وفي الأول من آب ١٩٢١، في ذكرى وفاة تيلاك، أشعل غاندي أثواباً انكليزية.

عام ١٩٢٢ تخلى عن مواقع الكفاح خوف أن تتخطى حركة الجماهير حزب المؤتمر. فسجن عامين. وبين ١٩٢٤ ــ ١٩٢٩، عاد يجوب



ضحايا المظاهرات في نيودلهي عام ٤٧.

الهند على قدميه داعياً إلى مقاطعة البضائع البريطانية، ووحدة الهندوس والمسلمين، ومحو الفقر. بين ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ اندلعت أحداث عنيفة في كل مكان.

كانت مسيرة «الملح» التي بدأت في ١٢ آذار، وانتهت في ٦ نيسان ١٩٣٠، لرفض مونوبول بريطانيا على توزيع الملح. وأعلن غاندي «يجب ألا يتوقف عدم الطاعة المدنية ما دام ثمة مقاوم مدني حر على قيد الحياة».

وقد كان لهذه الحركة أثرها داخلياً وفي بريطانيا على المستوى الاجتماعي والاقتصادي فقد انخفض استيراد القماش البريطاني إلى الثلث. وقام مفاوضون بين البريطانيين وغاندي. ولكن لم تتحقق أية فائدة للهنود حتى ذلك الحين. ولكن القرار الصادر عام ١٩٣٥ سمح للمؤتمر بالمساهمة في شؤون المناطق، وأن يمارس نشاطه في الانتخابات. وجرت انتخابات عام ١٩٣٧ تحت شعار «يحيا غاندي»، وحصل حزب المؤتمر على الأغلبية الساحقة.

حين اندلعت الحرب العالمية الثانية دعا غاندي صراحة إلى عدم المساهمة في المجهود الحربي. عام ١٩٤١ أرسل تشرشل ستافورد كريبس إلى دلهي: وقد عرض على الهند نظام الاستقلال تحت التاج البريطاني، وتشكيل جمعية تأسيسية هندية. وكان رد المهاتما الشهير، بطلب رحيل كل بريطاني عن الهند. ورد تشرشل بأنه «ليس: رئيس الوزارة ليصفّي الامبراطورية». وأمر بسجن غاندي وكل قادة حزب المؤتمر. فاندلع العنف.

بانتهاء الحرب كانت بريطانيا جد ضعيفة، لا يسمح لها وضعها بتأخير استقلال الهند، وعندما حاز حزب العمال على الأغلبية في انتخابات ١٩٤٥، أمر الرئيس كليمانت أتلي، نائب الملك لورد ويفل بالتعجيل بمنح الهند حق حكم نفسها بنفسها.

٢٠ شباط ١٩٤٧ أعلن أتلي أن بريطانيا ستغادر الهند في مدة أقصاها حزيران ١٩٤٨، واستبدل لورد ويفل بلورد مونتباتن، لينظم رحيل الانكليز، خلال خمسة أشهر. ولكن مونتباتن لم يرحل قبل فصل باكستان عن الهند، على أن يبقيا ضمن الكومنولث البريطاني.

١٥ آب ١٩٤٧ أصبح راجندرا برازاد رئيساً للجمعية التأسيسية، وأعلن الاستقلال. فضجت الهند بهتافات «النصر للمهاتما غاندي».

بعد استقلال الهند بأقل من ستة أشهر «٣٠ كانون الثاني ١٩٤٨» اغتيل المهاتما غاندي.

وبعد أقل من سنة أعلن تشرشل:

«إني أشهد بحزن فاجع انهيار الامبراطورية البريطانية، مع كل انتصاراتها وخدماتها التي قدمتها إلى الانسانية!». ■



جولة في مدن وقصور الفراعنة

بيار مونتيه — اعداد: شذا عذرة

وصف تفصيلي لحياة المصريين القدماء وبيوتهم وآنيتهم المنزلية

استحالت المدن الفرعونية الآن الى تلال من الغبار تحتوي في داخلها على بقايا فخارية وحطام دقيق. وليس في وسع ذلك ان يدهشنا، مادامت المدن والقصور قد شيدت بالقرميد النيء.

ولا يسعنا التحدث، من موقع المعرفة الوثيقة، إلا على مدينتين، لأنهما لم تعمرا بالسكان طويلاً. فقد شيدتا بقرار من السلطة الملكية، واخليتا فجأة ايضاً، بعد عمران قصير الأجل.

اقدمهما هي حوتيب ـ سنوسريت التي اقامها في الفيوم سنوسريت الثاني، وعاشت المدينة اقل من قرن. الأخرى هي اخيتاتون، التي كانت مقر امنحوتب الرابع (اخناتون) بعد إعراضه عن امون. وقد استقر فيها خلفاؤه الى اليوم الذي اعاد فيه توت عنج آمون البلاط الى طيبه.



صورة الغلاف
قناع توت عنخ آمون الذهبي

وبناء سنوسريت التي احاط بها سور طوله اربعمائة متر وعرضه ثلاثمائة وخمسون، روعي فيه ان يأوي كثيراً من السكان في مكان ضيق. فالهيكل في الخارج، ويقسمه سور سميك الى جزئين، واحد للأغنياء والآخر للفقراء. وحي الفقراء تخترقه جادة عرضها تسعة امتار تقطعها بزاوية قائمة شوارع عديدة اقل عرضاً.

والبيوت تدير ظهورها، واحدها للآخر، بحيث تطل الواجهة على الشارع. اما ضيق الغرف والممرات فمدهش.

الحي الراقي تجتازه شوارع فسيحة تؤدي الى الهيكل والى بيوت كبار الموظفين. وحجم البيوت الفخمة يزيد خمسين مرة على حجم البيوت الشعبية. وتحتل المنازل والشوارع المساحة كاملة.

لقد احب المصريون الجنائن على الدوام. إحدى السيدات اللواتي عشن زمن سنوسريت تقول لنا على مسلة لها، مبلغ محبتها للأشجار. ورعمسيس الثالث زرع الشجر في كل مكان. اما في هذه المدينة فلم يترك شيء للرفاهية او النزهة.

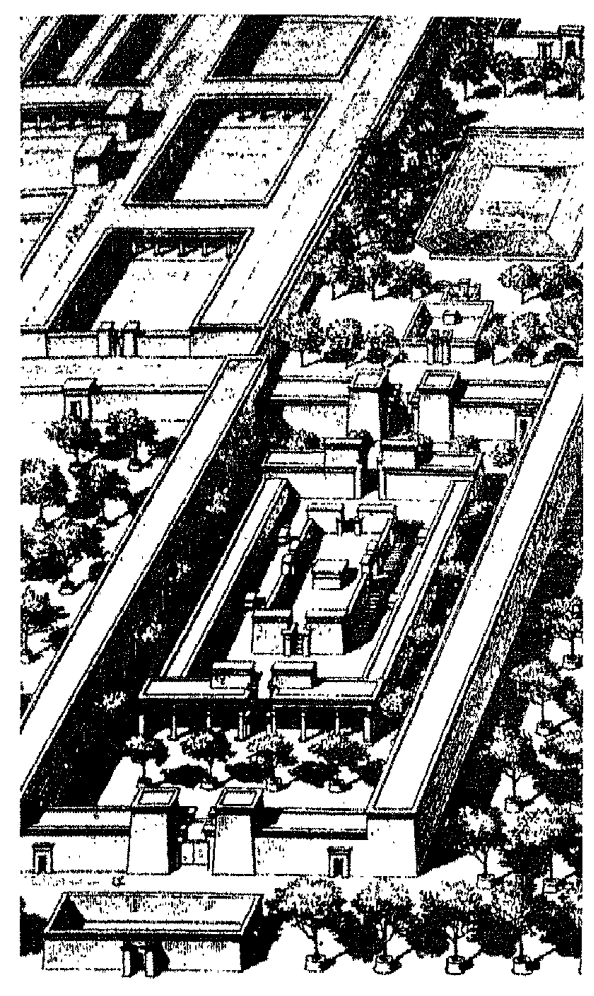
مقر اخناتون كان مدينة فخمة. وكان هناك ثمة مكان فسيح بين النيل والجبل، على شكل نصف دائري. وتخترق المدينة من طرفها الى الآخر جادة موازية للنيل، تقطعها شوارع اخرى تؤدي الى الرصيف، والمقبرة، ومقالع المرمر.

ويتشكل مركز المدينة من القصر الملكي والهيكل والمباني الادارية والمحال. وفي الشوارع تتجاور المنازل المتواضعة مع تلك الأكثر فخامة التي نسبها المنقبون الى افراد العائلة المالكة.

وخصصت مساحات كبيرة لزراعة الأشجار والبساتين، في الممتلكات الخاصة وفي الأراضي العامة على السواء. اما عمال المقابر والمقالع فقد اودعوا قرية على حدة محاطة بسور. وكان إخلاء المدينة مفاجئاً لدرجة انه لم يتسن الوقت لإدخال اي تعديل على ما فعله سكانها الأوائل.

مدينة المائة باب

في المدن ذات الماضي الأطول ــ وهي تشكل الأغلبية الساحقة من مدن مصر ــ كان، على العكس، الغموض هو السائد. مدينة «من نيفير»



من الخارج كانت المنازل الفرعونية تبدو كئيبة. لكن الحياة اليومية كانت تجري داخل الأسوار في الباحات الداخلية.

مثلاً، ويعني اسمها «الجمال ثابت»، وهي المدينة التي حوّلها اليونانيون الى ممفيس، كانت تدعى ايضاً «اونخ ــ تاوي»، اي حياة الأرضين، و«حات ــ كا ــ بتاح»، اي قصر بديل بتاح، و«نيحيت»، اي الجميز.

وكل من هذه الأسماء كان يمكن اطلاقه على المنطقة كلها. لكنه كان في الأصل اسماً للقصر الملكي وملحقاته، او لمعبد بتاح اله المدينة. او لمعبد حتحور المعروفة في ممفيس بسيدة الجميز.

وكان الأمر كذلك في طيبة، المدينة التي سماها هوميرس مدينة المائة باب. ففي البدء سميت يات، على اسم الأقليم المصري الرابع في مصر العليا، وهو اقليم تابع لها. وفي عهد الأمبراطورية الجديدة، درجوا على تسميتها «اوبيت» اي «حريم» على ما يقول البعض، او

«كنيسة»، او «قصر»، على ما يقول البعض الآخر.

إن مجموع الآثار التي تحمل اليوم اسم الكرنك، كانت بمثابة «اوبيت» الآله آمون، بالنسبة للفرعون امنحوتب الثاني، وكان ممر محاط من الجانبين بتماثيل ابي الهول، يربطها بمعبد الأقصر، او «اوبيت» الجنوبية. وكل «اوبيت» كانت محاطة بسور من القرميد النيء، فتحت فيه بوابات هائلة من الحجر، صنعت ابوابها من سنديان لبنان المقوى بالبرونز والمطعّم بالذهب.

وفي حالات الخطر كانت هذه البوابات تقفل. اما في ايام السلم فان النصوص المعروفة لا تذكر إقفالها مطلقاً. ويرجح انه كان يمكن ولوج هذه الأبواب بحرية، ليلاً أو نهاراً.

في الداخل كانت البيوت والمحال والمخازن، التي لم تعد قائمة اليوم، تحتل جزءاً كبيراً من المساحة بين المعبد والأسوار. وكانت البساتين والمروج راحة للعين.

وبين السورين، وعلى جانبي ممر تماثيل ابي الهول، وعلى ضفة النهر، كانت تتجاور المباني الرسمية والقصور. وكان كل ملك يرغب في واحد له. اما الملكات والأمراء والوزراء وكبار الموظفين فلا يكادون يقلون عنهم طموحاً.

ولما ظلت هذه المدينة تتسع طيلة حكم اسر ثلاث، فمن المقدر ان البيوت المتواضعة ومنازل الطبقة الأكثر فقراً كانت تتقاسم المكان وسط تلك القصور الفخمة، بدلاً من ان تشكل حياً على حدة، كما في حوتيب ــ سنوسريت.

عمالقة في الحقول

وفي مواجهة الكرنك والأقصر، على الضفة الغربية، كانت تقوم مدينة اخرى، هي تجامه، او هي بالأحرى مجموعة من الصروح الكبيرة المحاطة بالمنازل والمحال، والمسوّرة بأسوار القرميد النيء، التي يبلغ طولها اربعمائة متر وعرضها ثلاثمائة متر او اكثر.

إن سور امنحوتب الثالث لا يقل الجانب منه عن خمسمائة متر. وهذه الأسوار الكبيرة المصنوعة من الطين، يبلغ عرضها عند القاعدة خمسة عشر متراً. اما ارتفاعها فيبلغ او يتعدى العشرين متراً.

ومعظم هذه المدن عاملها البشر والزمن بقسوة مخيفة. وتقوم اسوار ممنون وسط حقول القمح. لكن هذه الأسوار لم تبن لمثل هذه العزلة الرائعة، بل كانت تزين واجهة هيكل عظيم تحيط به من كل جانب منازل من القرميد تؤوي عدداً كبيراً من السكان وكمية هائلة من البضائع. ولقد تحدى العمالقة القرون. اما الباقي فاستحال الى بقايا تعسة.

وصرح رعمسيس الثالث في مدينة ــ حبو، الى الشمال، وابعد من ذلك شمالاً، صرح سيتي الأول، تشكل وحدها، مع معبد الملكة حتشبسوت، اطلالاً ضخمة. وفي مدينة حبو على الأخص، يمكن تكوين فكرة عن الشكل الذي كانت تبديه هذه المدن المقفلة، ايام كانت بعد حديثة.

كان قارب يقل الزائر الى اسفل درج مزدوج، ثم يمر الطريق بين منصتي حراس، على جانب سور منخفض تعلوه متاريس الرماة، وتفصله طريق كالسوار، عن السور القرميدي الكبير.

وهذا السور الأخير كانت تخترقه بوابة محروسة، يحيط بها برجان عاليان متقابلان تفصلهما ستة امتار. وكانت الفتحة لا تكاد تتسع إلا لمرور عربة. وكانت النقوش عند اسفل السور تحدث عن قوة الفرعون.

اما في الغرف العليا فكانت النقوش الطف. وقد نقش النحات مشهداً يظهر رعمسيس وهو يداعب ذقن مصرية فاتنة. غير ان هذه الغرف لم تكن سوى ملجأ في ايام الاضطراب. فالقصر والحريم كانا يقعان بالقرب من الهيكل. وكان يقف قرب البوابة عادة الحرس وحدهم.

فإذا اجتزنا البوابة، صادفتنا ساحة فسيحة يحدها في البعيد سور ثالث يضم الهيكل والقصر والحريم وملاعب ومباني. وكانت منازل صغيرة متلاصقة على جانبي ممر اوسط، تحيط بهذا السور الثالث من ثلاثة جوانب.

وكان سكان المدينة الدائمون من الكهنة والعلمانيين. اما الملك فكان يقطن المدينة الصغيرة حين يأتي الى الضفة الغربية، ومعه زوجاته وخدمه الكثيرون.



منزل مصري من الداخل، يتضمن طوابق وقبوا. وهو ينقسم الى جزء للعموم، واخر خاص. اما المطبخ فكان على حدة في البستان (رسم شيبياز).

هكذا كان قصر رعمسيس، ملك اون، في بلاد امون. وهكذا كانت المدن الملكية العشرون او الثلاثون، على الضفة اليسرى. منظرها الخارجي صارم الى آخر مدى. اما الداخل فكان مزيجاً لطيفاً من روائع البناء والقصور المذهبة والأكواخ المتواضعة.

أسوُد من الغرانيت

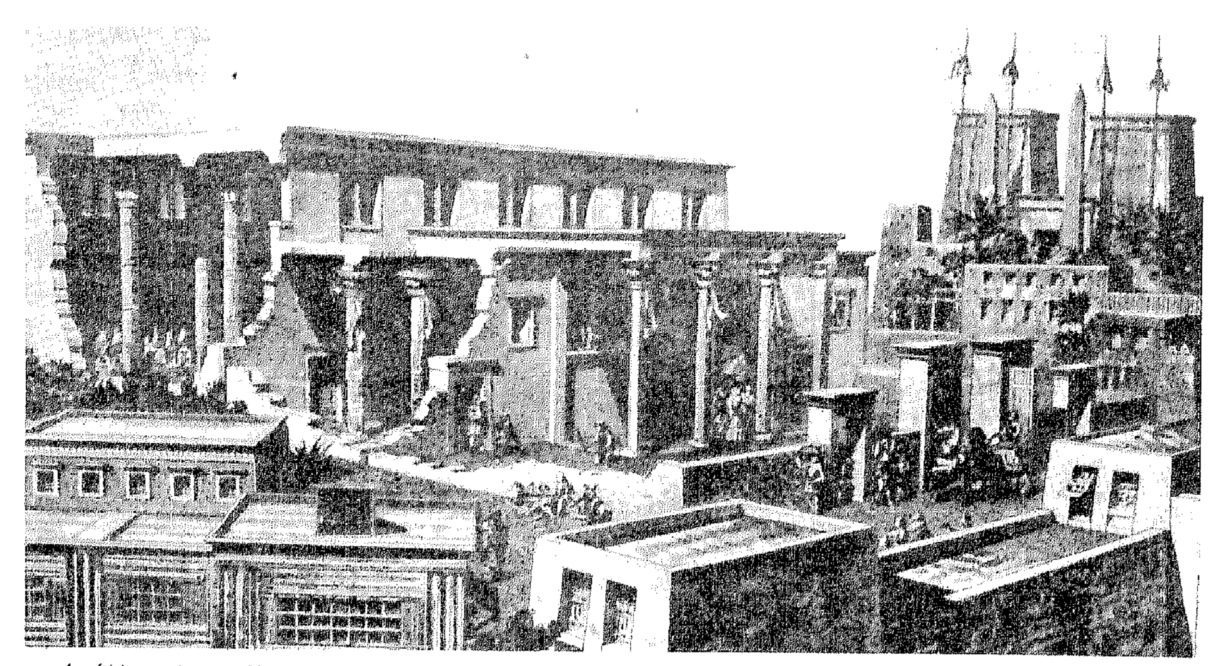
ومدن الدلتا لم تكن تقل عن مدن مصر العليا، لا في قدمها ولا في روعة صروحها. هذه المدن التي اكتسحها الهكسوس، واهملها ملوك الأسرة الثامنة عشرة، اعاد ترميمها وتوسيعها وتجميلها الفراعنة فيما بعد. وكان رعمسيس الثاني يحلو له العيش في شرق الدلتا، إذ كانت هذه المنطقة مهداً لأسرته.

فعلى ضفة فرع تانيس، في مرج ترتاده الرياح، كانت توجد مدينة لاهوتيين قديمة، هي مركز لعبادة الآله ست، ومقر ايضاً لمدرسة فنية فريدة منذ ازمنة غابرة. وكانت تسمى حت ــ اواريت. وقد جعلها الهكسوس عاصمة لهم. لكنها عاشت على الهامش، منذ ان طردهم منها احمس، واقام فيها رعمسيس حالما انتهى من فروضه تجاه والده، وبدأ فيها على الفور الأعمال الكبيرة التي اعادت الحياة والازدهار الى المنطقة وجعلت من المدينة القديمة مقراً ملكياً لا مثيل له.

وكما في طيبة، كان الهيكل ومبان اخرى، داخل سور قرميدي كبير. وكانت تخترق هذا السور اربعة ابواب تنطلق منها طرق وقنوات صوب الجهات الرئيسية الأربع. واحضرت من اسوان، دون اعتبار للمسافة او للصعوبات، كتل ذات احجام لم يسبق استخدامها، لبناء قدس الأقداس ومضاعفة عدد المسلات المنحوتة نحتاً يبلغ درجة الكمال.

وكانت الأسود ذات الوجوه البشرية والقسمات الرهيبة، وقد صنعت من الصوان الأسود، تتواجه على طول الممرات المرصوفة بالبزلت. وعلى البوابات كانت الأسود المستلقية تؤمن الحراسة. وكانت تصطف امام الأعمدة تماثيل عملاقة واقفة او جالسة، كثير منها يناهز تماثيل طيبة، ويفوق تماثيل ممفيس.

وكان القصر يزخر بالذهب وفي كل مكان تلمع الزهور، وتخترق الطرقات المظللة ذلك الريف البديع. وكانت البضائع الآتية من سورية



□ مجموعة منازل مصرية ايام الفراعنة، كما يمكن تخيلها وفقا للآثار المتبقية والوصف المتوافر بين ايدي المؤرخين.

والجزر تتراكم في المخازن. اما وحدات المشاة وفرق الرماة والعربات وطواقم البحرية، فكانت تعسكر قرب القصر.

مصريون كثيرون جاؤوا للسكنى بالقرب من الشمس. والكاتب باباسا يقول: «ما اجمل ان تقيم هنا. لن تتمنى شيئاً فالصغير هنا مثل الكبير... الجميع متساوون» وكان يختلط بالمصريين، كما في كل المدن الكبرى، الليبيون والزنوج.

وسرعان ما اصبحت المدينة الملكية ضمن مدينة اكثر اتساعاً، حيث تتجاور المنازل والمحال. وسرعان ماكانت هذه الأحياء تقيم هيكلها المحاط بسور كبير من القرميد.

لم يترك رعمسيس الثاني لخلفائه إنجازاً في البناء لم ينجزه. وقد وجّه اهتماماً خاصاً الى العناية بالجنائن والبساتين وتوسيعها. وفي قصر جده الشهير اقام جنائن شاسعة مزودة بممرات للنزهة، زرعها بالكرمة والزيتون، واحاط دربها المقدسة بالزهور.

الدواب، والنباتات، وحتى البشر، كانت بحاجة الى كثير من الماء، ومن غير الحكمة ان يظل مصدر الماء خارج الأسوار، حتى لو كان القنال يمر، كما في مدينة ـ حبو، بالقرب من البوابة الكبيرة. وفي معظم المدن المحاطة بسور، كان ثمة حوض حجري. وكان الحوض مزوداً بدرج داخلي يسمح بالوصول الى الماء في كل الفصول. ولوحظ وجود آبار منذ عهد الأمبراطورية الجديدة على الأقل. وقد اكتشفت آبار في الممتلكات الخاصة وفي الأحياء العامة. وكان ثمة اربع آبار داخل سور بي ـ رعمسيس.

القصور الملكية

كان المصريون في حينه معجبين جداً بقصر بي ـ رعمسيس الملكي. ولكن وصفهم له ظل غامضاً للأسف. وحتى موقعه ليس معروفاً بالتحديد. ولم تأت الحفريات في هذا الشأن بأية معلومات إيجابية.

وفي الدلتا قصور ملكية اخرى. فقد وجدت بقايا قصر في قنيطر، وهي قرية يظللها النخيل، وتقع على مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً الى الجنوب من بي ـ رعمسيس.

اما رعمسيس الثالث فكان له داخل مدينته، الواقعة الى الغرب من طيبة، قصر كان يسميه

بيت السرور. وقد حفظت بقاياه ودرسها علماء الآثار في المؤسسة الشرقية في شيكاغو. وتطل واجهة هذا القصر على ساحة المعبد الأولى. ولحسن الحظ ان اسفل هذه الواجهة اختير لنقش ما ينبىء بقوة الملك. والنقوش تظهر ان رعمسيس يقضي على اعدائه بضربة هراوة، كما يبدو وهو يزور اسطبلاته، وخلفه حاشية عظيمة ويظهره نقش آخر وهو يركب عربة وقد حمل كل اسلحته الحربية، استعداداً لتسلم قيادة جيشه. واخيراً يمكن رؤيته في نقش رابع وهو يتفرّج مع كل بلاطه، على افضل جنوده وهم يتصارعون ويتمرنون.

وتتوسط هذه الواجهة الشرفة التي كان الملك يطل منها على الناس. وهي شرفة مزخرفة ببذخ تتقدمها اربعة اعمدة وتعلوها حافة مثلثة الشرائح. والدائرة المجنحة تهيمن على الشريحة العليا.

وفي هذه الشرفة كان يظهر الملك عند السماح للشعب بالتجمع في الساحة من اجل عيد امون. ومن هنا كان يوزع الجوائز. والشرفة تتصل بالأجنحة الملكية. وهذه الأجنحة تتألف في وسطها من غرف ذات اعمدة. ومنها غرفة التاج، وغرفة الملك وحمامه. وكان مدخل يفصل هذا الجناح عن اجنحة الملكة، ذات الغرف والحمامات المتعددة. وتبدو الزخرفة الداخلية لغرفة التاج بأنها كانت متقشفة. ويظهر الملك في كل مكان في شكل ابي الهول، كما تظهر اسماؤه الهيروغليفية. ويظهر اعداء مصر مقيدين امامه، وهم يرتدون ثيابهم الفاخرة المطرزة بالزخارف البربرية. ولقد روعي جداً إظهار سحناتهم وتسريحاتهم وحليهم بدقة.

والمساحة التي يشغلها المسكن الملكي ليست كبيرة في الواقع، انها عبارة عن مربع ضلعه اقل من اربعين متراً. ولا ريب في ان الملك لم يكن يمضي فيه اوقاتاً طويلة، لأنه كان يستطيع ان يختار سكناه على الجانب الآخر من النهر. وفي الدلتا كانت كثرة القصور مدعاة لحيرته: في ممفيس واون وبي رعمسيس المستعدة دوماً لاستقباله.

لقد اساء الزمن معاملة قصور سيتي ورعمسيس الى درجة اننا إذا اردنا تكوين فكرة تفصيلية عن قصر الفرعون في عهد الأمبراطورية الجديدة، فلن يسعنا إلا العودة بالفكر الى قصر اخناتون الذي يعود الى عهد اسبق بقليل.

ويمثل بلاط الغرف ذات الأعمدة، مستنقعاً مليئاً بالسمك، تغطي وجهه اوراق النيلوفر، التي تحلّق فوقها طيور مائية، وتحدها نبتات القصب والبردي. وعلى طول الأعمدة تلتف الكرمة والنباتات المتسلقة. اما على الجدران فكانت تنحت مشاهد من الحياة العائلية.

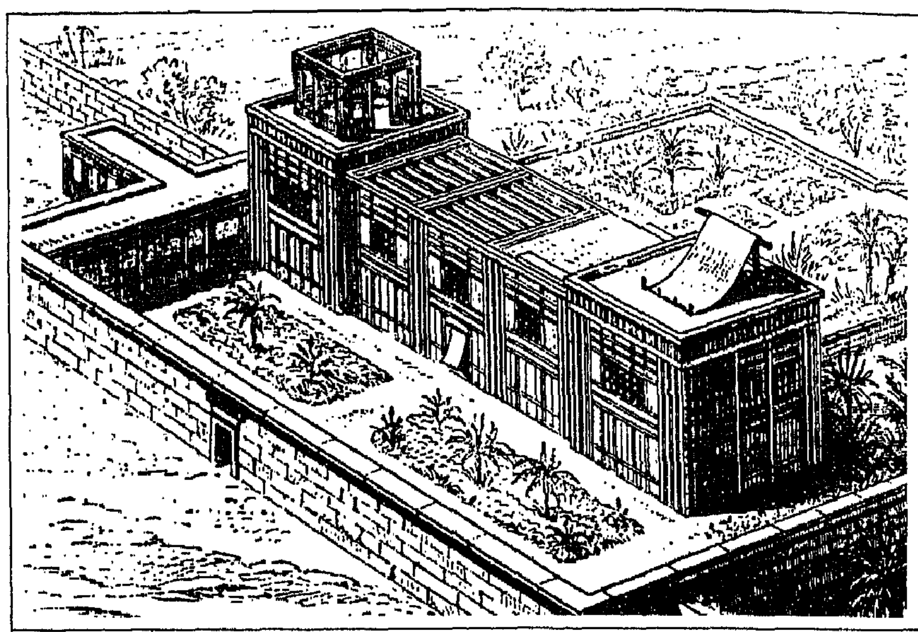
ويشاهد هنا الملك والملكة جالسين احدهما مقابل الآخر: اخناتون على مقعد ونفرتيتي على وسادة، وعلى ركبتيها طفل. وتحيط كبرى الأميرات عنق شقيقتها بيديها. فيما تلعب اميرتان اخريان على الأرض. ويقال، بشيء من المبالغة، إنه لم ينحت مشهد اجمل من هذا، في الفن المصري. وفي الواقع تعتبر المستنقعات والبردي والطيور والحيوانات التي تزحف او تعدو، جزءاً معتاداً من منحوتات القصور المصرية.

المنازل

كانت الشخصيات الكبيرة تبذل جهداً في محاولة التشبه بالفخامة الملكية. وكانت منازلهم في المدينة او الريف، تحتل احياناً، هكتاراً او اكثر من الأرض، وتحاط اسوة بالمعابد او القصور الملكية بسور سميك ومرتفع يجتازونه من خلال بوابة حجرية للذهاب الى بيت السيد. فيما كانت الأبواب الثانوية فتحات بسيطة في السور يستخدمها العامة والعاملون في البساتين.

بيت «ابوي» كان شبيهاً بمعبد صغير، تتقدّم واجهته بوابة لها اعمدة تشبه نبات البردي. وكانت العتبة تحمل عارضة منحوت عليها شجر النخيل وكانت تحيط بالباب احجار منحوتة.

والبيت الذي استقبل فيه الملك «اي» زوجة «نفرحوتب»، وكافأها فيه، له على سطحه اعمدة. وهذه الأعمدة تحمل سطحاً خفيفاً يبرز من جميع الجهات، وترتكز اطرافه على اعمدة عالية ونحيلة تشكل زناراً حول البيت. ويمكننا ان نكوّن فكرة عن هذين المنزلين بفضل الرسمات التي امر «ابوي»، و«نفرحوتب» برسمها على قبريهما. اما عن الترتيب الداخلي للمنزل، فلا بد



الخشب كان يستخدم باقتصاد في مصر الفرعونية، لندرة الغابات فيها. كان الأعيان يملكون بيوتاً نقّالة من الخشب، يمكن نقلها الى الصحراء ايام فيضان النيل، واعادتها الى مكانها الأول في الربيع (رسم شيبياز).

من زيارة حفريات العمارنة لمعرفته.

من بوابة الدخول ينتقل المرء الى بهو، قبل غرف الاستقبال التي تحمل اعمدتها السقف. هذه الغرفة العامة تلتحق بها حجرات ثياب وجدت فيها خزنات من القرميد استخدمت على ما يبدو في حفظ الملابس، وخزانات رتبت فيها المؤن والمرطبات.

اجنحة سادة القصر والحمام وبيوت الخلاء تحتل بقية المبنى. وتكسو الحجارة جدران غرفة الحمام. وفي احدى الزوايا، وجدت بلاطة من الحجر، كان يقف خلفها الخادم، ليدلق الماء على المستحم. بيت الخلاء، خلف الحمام، كان يبيّض بالكلس. وهو مجهز بكرسي مثقوب من الكلس، يوضع على صندوق قرميدي مليء بالرمل.

والبيت، المريح نوعاً ما، محاط بملاعب عديدة. واحد من هذه الملاعب تقوم فيه الأهراء، وهي على شكل جرة. اما الاسطبلات واوجار الكلاب فهي في الجهة الشمالية. والى الشرق عادة مايكون المطبخ والمخبز وبيوت الخدم القرميدية. كان على هؤلاء اذن ان يجتازوا مسافة كبيرة ليحضروا الطعام لأسيادهم وهذه البيوت الصغيرة تقسم في الغالب الى اربعة اقسام: مدخل، وغرفة مركزية يرتفع سقفها فوق عمود، ثم مطبخ وغرفة. وكانت الأسرة تتجمع في هذا المكان الضيق الذي تتقاسمه احياناً مع الحيوانات. وكان سلم يقود الى السطح.

وكانت المماشي تقسم الجنائن الى مربعات ومستطيلات مزروعة بالأشجار والكرمة، ومحاطة بالزهور. وكان المصريون يهتمون بها اهتماماً شديداً.

لم يكن ممكناً ان نجد بستاناً بلا حوض ماء. وهذا الحوض كان مربع الشكل او مستطيله. وكانت تكسو وجه الماء فيه اوراق النيلوفر، ويسبح البط ويصل المرء الى الحوض بواسطة سلم. وفي الحوض يرابط قارب على الدوام لتلبية رغبات ساكني القصر.

أسطح مستوية

البيوت التي يسكنها المتوسطون من الناس لها طوابق متعدّدة، واهراء على السطح احياناً. ولا شيء يزين الواجهة. والباب الذي يحيط به عمودان وعتبة يكون قرب زاوية. ولا ضوء إلا من خلال هذا الباب.

الشبابيك، اثنان او اربعة او ثمانية حتى في كل طابق، صغيرة ومربعة ويغطيها ستار لحماية السكان من الحرارة والغبار.

غرف الطابق الأرضي تخصص عادة للحرفيين. هذا هو الحال في طيبة في منزل المدعو تحوتي ــ نيفير. النساء يغزلن، والرجال يحيكون. وفي الغرفة المجاورة تطحن الحبوب ويحضّر الخبز.

السادة يقطنون الطابق الأول في غرفة فسيحة نوعاً، يضيئها شباكان مرتفعان، ويقوم سقفها على عمود في شكل زهرة اللوتس. ويبدو ان الباب كان يغطى برقائق من الصدف، إلا إذا كان الباب منحوتاً. ولا شيء على الجدران. إلا ان المصريين كان من عاداتهم الرسم على كل المساحات المتوافرة.

في تانيس، وفي منزل يعود الى فترة حديثة نسبياً، طليت جدرانه الداخلية بالجبس، جمعت رقائق رسمت عليها راقصات ومراكب.

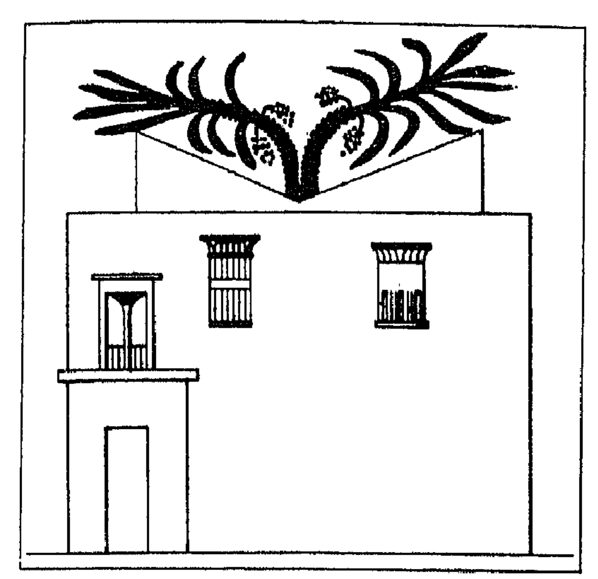
والسقف في الطابق الثاني منخفض الى حد ان ساكنيه لم يكونوا بحاجة للوقوف على رؤوس الأصابع من اجل لمسه وفي غرفة في هذا الطابق يكون حمام سيد البيت. وهو يجلس على مقعد، فيحضر له الخدم إبريقاً ووعاء ومروحة ومنشة ذباب.

وفي هذا الطابق، كان الكتبة يقرفصون لقراءة الرسائل وتسجيل الأوامر.

والقاعدة العامة هي ان تكون السطوح مستوية، وكان الصعود إليها على سلم او درج البعض، مثل تحوتي ــ حوتيب كانوا يضعون عليها مخازن الحبوب. اما الآخرون فكانوا يثبتون على حافتها سياجاً لحماية الأطفال، او لإتقاء نظرات الفضوليين، عندما يمرون ليلاً في الجوار تحت ضوء القمر.

ومع ذلك فان المنازل ذات الأسطح المائلة ليست عديمة الوجود في مصر. ففي مقبرة أبودواش، بالقرب من القاهرة، وهي مقبرة معاصرة للملك دن، الذي عاش قبل سلالة «الرعامسة» (الجمع من رعمسيس) بألفي سنة تقريباً، وجدت لعبتان من العاج تمثلان بيتين ذوي سقف مائل، احدهما مثلث الشكل، والآخر منحرف الشكل.

هذا الشكل المتطوّر يثير الدهشة نظراً لمثل هذه الفترة الموغلة في القدم. ولم يكن من الممكن تخيله إلا في بلاد مطرة، يكثر فيها الخشب، وفي مصر لا يكثر المطر إلا قليلاً على الشواطىء الشمالية، حيث المنازل اليوم تعلوها سطوح مستوية. ومن الممكن إذن ان هذه المنازل ذات الأسطح المائلة، ليست إلا شكلاً غريباً عن مصر.



رسم واجهة منزل من منازل مصريي الطبقة المتوسطة ايام الفراعنة. وتبدو شجرتا نخيل مثمرتان، وقد خرجتا من وسط السقف.

وحتى في طيبة، لم تكن المنازل متراصة جداً الواحد بقرب الثاني، لأن الأرض لم تكن غالية الثمن. ولهذا كان يمكن زراعة بعض الأشجار اما في باحة داخلية، او امام الواجهة.

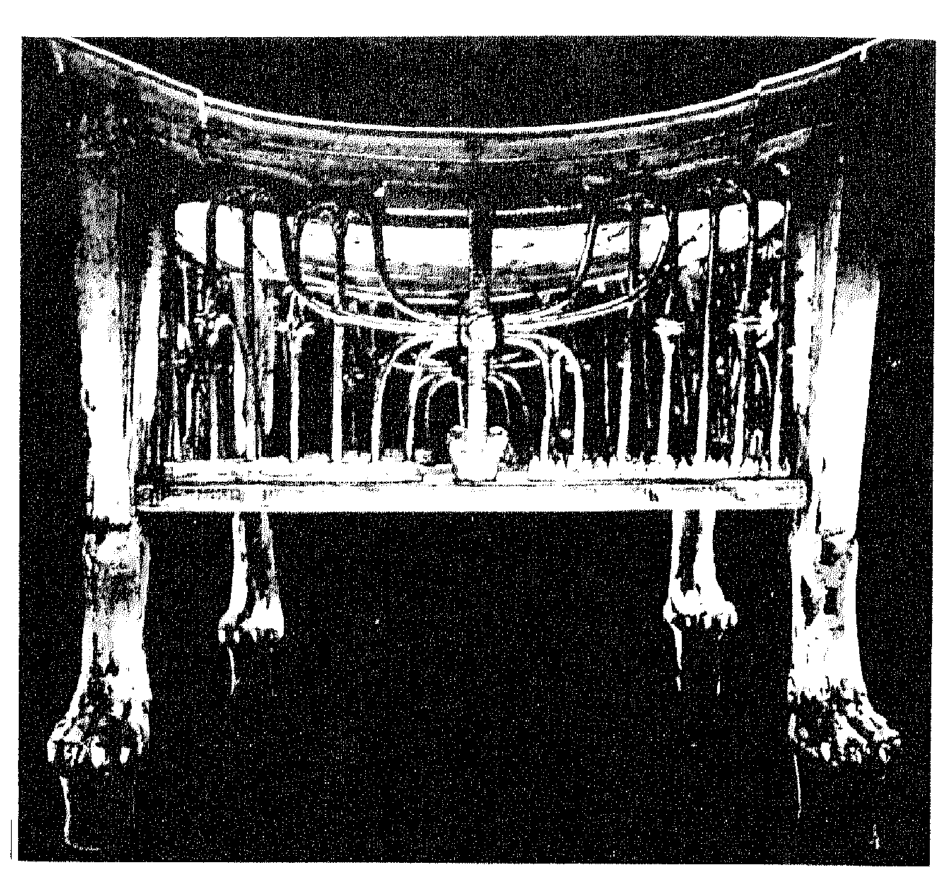
عند نيبامون، تبدو نخلتان خارجتان من السقف، ولم يحل ذلك دون إثمارهما. وعند نختي، تظلل نخلة وجميزة باب المنزل.

كان المصريون، حتى من الطبقة المتواضعة، يبذلون جهداً لجعل منازلهم لطيفة ومريحة. وكانوا يجتهدون في حمايتها من اعداء الراحة المنزلية التي تكثر هناك، مثل الحشرات والجرذان والسحالي والثعابين والعصافير الضارة.

ولقد حفظت لنا ورقة ايبيرس البردية بعض الوصفات المفيدة. هل يراد إجلاء الحشرات عن المنزل؟ اذن فلينظف بمحلول النطرون، او يدهن بمستحضر يسمى «بيبيت» ويطحن مع الفحم. واذا وضع بعض النطرون، او سمك مجفف من فصيلة «تيلابيا نيلوتيكا»، او حتى بذور بصل، على مدخل وكر الثعبان، فانه لن يخرج ابداً. وشحمة الصفارية ممتازة للذباب، وفرخ السمك للخنافس.

وإذا دهنت الأكياس بدهن الهرر، فان الجرذان لن تقترب منها. ويحال دون القوارض

مقعد فخم قوائمه منحوتة على شكل قوائم الأسد.



والتهام الحبوب، بحرق روث الغزال او بدهن الجدران والأرض بمحلول معين.

الأوعية الذهبية والفضية

في غرف الاستقبال داخل القصر، وعند الأغنياء، كان الأثاث يتكون من مقاعد مختلفة منها البسيطة جداً التي تشبه صندوقة مكعبة مزودة بظهر لايزيد ارتفاعه عن ارتفاع اليد. جوانب المقعد تزين بالصدف.

وكانت قيمة المادة الأولية وجودة العمل، تعوضان البساطة لكن المقاعد الأنيقة والمريحة فعلاً هي تلك التي كانت تقوم على اربعة قوائم تشبه قوائم الأسد، وهي مزوّدة بظهر مرتفع ومسندين للأيدي.

اما الملك والملكة فلم يكن ذلك يكفيهما طبعاً. فالظهر بوجهيه كانت تنحت عليه المشاهد المعهودة في المنحوتات الكبيرة. فتنحت في الخشب وتغلّف بالجلد او المعادن الثمينة، كالذهب او الفضة او النحاس، وتطعم بالحجارة الكريمة.

وكان ثمة نوعان من المناضد. الأبسط كانت قوائمها عمودية، اما الأكثر فخامة فكانت تنتهي قوائمها برؤوس بط. وهي قوائم متقاطعة مثل علامة الضرب (×). وكانت تفرش الحصر على الأرض وتنثر وسائد في كل مكان.

غرفة الطعام، حين تفصل عن غرفة الاستقبال، كانت تحتوي على مقاعد ومناضد للمدعوين، وعلى طاولات ورفوف لوضع سلال للفاكهة وصحون اللحم والخضار، والجرار والأوعية.

وقطع الأثاث كثيرة لكنها صغيرة. فالمصريون لم تخطر لهم مرة ان يصنعوا طاولات كبيرة يتجمّع عليها مدعوّون كثيرون. كانوا يأكلون فرادى او اثنين اثنين.

في الحقبات القديمة جداً، كانوا يستخدمون مجموعتين من اوعية الطعام: الفخارية للأيام العادية، والحجرية للاحتفالات. والحجارة المستخدمة لهذا الغرض كانت غالباً النضيد الأسود او الأزرق، والمرمر، وفي حالات اندر الرخام الأحمر، والصوان للأوعية الكبيرة، والبلور الصخري للأقداح الصغيرة.

كانوا يصنعون من هذه المواد المختلفة اوعية

إسطوانية او بيضية واقداحاً وطاسات وكؤوساً وصحوناً وبرنيات بعنق واباريق واوعية للحساء واخرى بقوائم. وكان فنانون ذوو خيال موهوب ينحتون على جانب الوعاء المقبض الذي يحمل الوعاء بواسطته، او يشكلون الآنية على شكل قارب او حيوان.

ولم يتوقف المصريون عن صنع اوعية حجرية، وقد وجدت في مقابر الأمبراطورية الجديدة مجموعات مهمة، لكنهم فضلوا استخدام آنية الذهب او الفضة. وكانت تصنع اباريق للطقوس الدينية، وكمية كبيرة من الآنية للاستخدامات الدنيوية. وكانت تعد النقع الساخنة في اوعية تشبه اباريق الشاي اليوم، مزودة بمصفاة مثبّتة في الداخل عند العنق.

والوعاء الشهير المصنوع من جلد صغار الماعز، وهو وعاء وجد ضمن كنز «بوباسته» كان مخصصاً للحليب. اما الركوة عند المصريين فكانت اشكالها متنوعة: الأقداح ذات القعر المستدير والمزودة بعنق، او نصف الكروية المزودة بقبضة وعنق او ما هنالك. وما كان لرعمسيس ان يرضى الذهاب الى الريف لو لم يحضر ضابطه المناوب وعاء من ذهب سعته ثلاثة ليترات، ومعه غرافة.

فن فخاري رفيع

والذين كانوا عاجزين عن اقتناء آنية فاخرة كانوا يرتضون الآنية الفخارية. ومنذ بعض الوقت كان صنّاع الفخار قد اتقنوا صناعة بعض القطع الفخارية الجميلة، التي كانوا يرسمون عليها رسومات هندسية او زهوراً او مشاهد حية كالتي تشاهد على الآنية المعدنية: عصفور يبتلع سمكة، او حيوانات تنطلق في سباق.

ومنذ مطلع عهد الامبراطورية الجديدة، كانت تأتي الى مصر، من الخارج من الجزر وسورية والنوبة، قطع فنية للزينة البحتة، مصنوعة من المعدن والحجارة الكريمة، امفورات ومناضد وغير ذلك من الأشياء التي لا فائدة عملية لها، إلا كونها مبرراً لجمع نقوش لكل النباتات والحيوانات الحقيقية او الخيالية. وكانت تذهب الى المعابد معظم هذه القطع الثمينة. لكن الفرعون كان يحتفظ لنفسه ببعض النماذج الجميلة. وكان تذوق هذه القطع النادرة منتشراً بين الشعب، حتى اخذ الصاغة المصريون يصنعون مثلها.

في غرف النوم، السرير هو القطعة الأساسية. ومن الأسرة ما هو بسيط للغاية: إطار من الخشب على اربعة قوائم، يحمل شبكة مجدولة. والقوائم غالباً ما تكون منحوتة على شكل قوائم ثور او اسد.

لقد بقيت في مقبرة توت عنخ آمون ثلاثة اسرة فاخرة، جانب كل منها عبارة عن حيوان كامل: بقرة او فهد او فرس نهر. والغرفة كانت لا تزال تضم خزانات من الخشب المنحوت، حيث كانت توضب الملابس.

اما ادوات الزينة والمرايا والأمشاط والدبابيس والشعر المستعار، فكانت توضع في صناديق وخزانات من جميع الأحجام. اما مساحيق الزينة والزيوت والعطور ففي اوعية من السبج او العاج.

وكانت المكاتب تؤثث بخزانات خاصة تحفظ فيها المخطوطات وربطات الورق والبردي وادوات الكتابة. وعندما كانت ورقة البردي تمتلىء كتابة، كانت تلف وتربط وتختم. وكانت الربطات توضع في رزم، والرزم تخبأ في رقاع من الجلد، وتوضع هذه في الخزائن.

الكتبة لم يكونوا بحاجة الى طاولات. كان يكفيهم ان يبسطوا البردي على الركبتين. وعند الحاجة كانوا يكتبون واقفين، وهم يمسكون ورقة البردي غير مطوية، باليد اليسرى.

ادوات المطبخ كانت تحتوي على طاولات بأربعة قوائم، واوعية فخارية سميكة من كل الأشكال والأحجام. الأفران كانت مصنوعة من الطين. اما المواقد المعدنية ذات القائم الطويل، فلم تكن تستخدم، على ما اعتقد، إلا في المعابد. ولم تكن تروي غليل الطباخ الأمين.

وفي المنازل الأكثر فقراً، حيث كانت العائلة كلها تتكوّم في مساحة عشرين متراً مربعاً، وفي اقل من ذلك، كان الأثاث يقتصر على حصر وبعض الفخاريات. وهنا كانت الرفوف وبعض الخزنات الخشبية تنم عن شيء من البحبوحة.



علم المأمون وسعة معارفه*

قال جعفر بن محمد الأنماطي:

لما دخل المأمون[1] بغداد، وقر بها قراره، أمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته، وكان يقعد في صدر نهاره على لبود في الشتاء وعلى حصير في الصيف، ليس معها شيء من سائر الفرش، ويقعد للمظالم في كل جمعة مرتين، لا يمتنع منه أحد.

وأختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل، فما زال يختارهم طبقة بعد طبقة حتى يحصل منهم عشرة، كان منهم أحمد بن أبي داود، وبشر المريسي، وكنت أحدهم.

فتغدينا يوماً عنده، فظننت أنه وضع على المائدة أكثر من ثلثمائة لون، فكلما وضع لون نظر المأمون إليه، فقال: هذا يصلح لكذا، وهذا نافع لكذا؛ فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة فليتجنب هذا، ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن غلبت عليه السوداء فليأكل من هذا، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا، ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا.

فوالله إن زالت تلك حالة في كل لون يقدم، حتى رُفعت الموائد.

فقال له يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين؛ إن خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته! أو في النجوم كنت هرمس في حسابه! أو الفقه كنت علي بن أبي طالب في علمه! أو ذكرنا السخاء فأنت فوق حاتم في جوده! أو ذكرنا صدق الحديث كنت أبا ذر في صدق لهجته! أو الكرم، كنت كعب بن مامة في إيثاره على نفسه!

فسرَّ بذلك الكلام، وقال: يا أبا محمد؛ إن الإنسان إنما فُضل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولا دم أطيب من دم! ●

(*) عصر المأمون: ١ ـــ ٣٦٠.

(١) هو عبدالله المأمون بن هارون الرشيد، من أعاظم خلفاء بني العباس وعلمائهم وحكمائهم، كان وافر الخلق، عظيم الحلم، محباً للعلم، مؤثراً للحكمة، توفي سنة ٢١٨ هـ.

ضرب من التمثيل*

قال أبو عبدالله: جلست جميلة يوماً ولبست برنساً[1] طويلاً، وألبست من كان عندها برانس دون ذلك، وكان في القوم ابن سريج، وكان قبيح الصلع، وقد اتخذ وفرة[2] شعر يضعها على رأسه، وأحبت جميلة أن ترى صلعته[3]، فلما بلغ البرنس إلى ابن سريج قال: دبرت على ورب الكعبة! وكشف صلعته ووضع القلنسية على رأسه، وضحك القوم من قبح صلعته.

ثم قامت جميلة ورقصت، وضربت بالعود، وعلى رأسها البرنس الطويل، وعلى عاتقها بردة يمانية، وعلى القوم أمثالها، وقام ابن سريج يرقص ومعبد الغريض وابن عائشة ومالك، وفي يد كل واحد منهم عود يضرب به على ضرب جميلة ورقصها، فغنت وغنى القوم على غنائها:

ذهب الشباب وليته لم يذهب
وعلا الفارق وقع شيب مغرب. ●

(*) الأغاني: ٨ ـــ ٢٢٦.

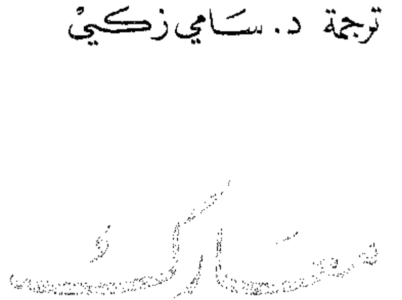
(١) البرنس: قلنسوة طويلة، أو كل ثوب رأسه منه، دراعة كان أوجبة أو ممطراً.

(٢) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس.

(٣) الصلعة: بفتح اللام وسكونها: موضع الصلع.

معارك الأردين فرصة هتلر الأخيرة

ترجمة د. سامي زكي



كان وضع الرايخ الثالث العسكري، في خريف ١٩٤٤ صعباً جداً. ففي الجبهة الشرقية تراجعت جيوشه حتى حدود ألمانيا، في الوقت الذي حشد فيه الروس، أضخم قواتهم استعداداً لاقتحام ألمانيا، بعد أن هيمنت على بلاد البلطيق، واخترقت بولونيا. وتقدمت فرقتها المصفحة حتى سيطرت على المنابع البترولية في رومانيا، وحطمت الجيش الألماني السادس في بسرابيا.

في أواسط شهر تشرين الأول كان مالينوفسكي على بعد مائة كيلومتر من بودابست.

وعلى الجبهة الشمالية كانت الجيوش الروسية تحاول بلوغ ألمانيا قبل حلول الشتاء، ولم تصد إلا على حدود بروسيا الشرقية.

على الجبهة الغربية، كانت الجيوش الاميركية البريطانية تتقدم باتجاه ألمانيا. في الخامس عشر من أيلول ضاعفت هذه الجيوش، التي وضعت تحت إمرة أيزنهاور، من تقدمها، على جبهة عريضة تمتد من إيسكو إلى مونتبيليه، مروراً بماستريش واللوكسامبورغ ونانسي.

أما ساحة المعارك الفرنسية، فقد ابتلعت معظم الجيش الألماني، وخاصة معارك النورماندي. وتخطت مدرعات «باتون» في الأول من أيلول، الموزل قرب متز، وأصبحت على بعد خمسة كيلومترات من السار. وهدد احتلال البريطانيين مدينة أنفر، الرور التي أصبحت على بعد مائتي كيلومتر. واحتلال الرور يعني أن ألمانيا لن تستطيع الاستمرار في الحرب، لأنها تفقد المصانع، ومناجم الفحم الحجري، وكل المصنوعات الضرورية لآلة الحرب.

فكر هتلر بهجوم معاكس، على الجبهة الغربية، يحرر الريناني من تهديد الحلفاء، ويلقي بهم إلى البحر، لذلك كلف هتلر، حوالي منتصف أيلول، الجنرال جودل والمارشال كاتيل، أقرب مساعديه العسكريين إليه، أن يضعا خطة الهجوم المعاكس.

استرشد جودل وكاتيل هتلر، فاختارا الأردين منطقة للهجوم.

كان المارشال فون رونستد قائداً أعلى للجبهة الغربية، وكان قد بلغ الثامنة والستين من عمره. ورغم أن فون رونستد اشتهر باختراقه الأردين عام ١٩٤٠، فقد نحّي تدريجياً عن مناصبه، إذ كان رأي هتلر فيه أنه غير «هجومي» وأنه ضد النازية سياسياً، ولكنه عاد فولاه قيادة الجبهة الغربية عام ١٩٤٢. عام ١٩٤٤ نقم عليه هتلر لأنه اعترض على الخطة الحربية في فرنسا، ولكنه رضي عنه، بعد محاولة اغتيال هتلر، ٢٠ تموز ١٩٤٤، إذ ساهم في عضوية المحكمة التي حاكمت الضباط المتآمرين، أو من شك في أنهم يحتمل تآمرهم.

كان وجود رونستد على رأس القيادة عامل طمأنة بالقياس إلى الجنود والضباط، لما عرف عنه من قدرة على التخطيط والتنفيذ والحزم. ولكنه لم يكن ذا أثر في وضع خطة الهجوم المعاكس. وضعت الخطط جميعاً في غيابه، ولم يطلع عليها إلا قبل التنفيذ مباشرة، لذلك يعتقد الخبراء العسكريون أن سبب فشل الخطة غياب رونستد عند وضعها.

في هذا الوقت كان أيزنهاور، كما قلنا، قد عين قائداً أعلى لجيوش الحلفاء على الجبهة الغربية من ألمانيا. وكان عدد كبير من الجنرالات والمارشالات يساعده، بينهم المارشال



France-soir
6e ÉDITION
L'offensive allemande des ARDENNES semble contenue
LE PACTE devant l'opinion mondiale
La Rhénanie et la RUHR formeront-elles un État indépendant?
TROIS PACTES

مونتغمري، والجنرال مارشال، والجنرال عمر برادلي.

وكان يساعده كذلك جهاز مكون من خمسة آلاف، بينهم مائتا ضابط مرتبطون مباشرة بأركان قيادته وعددها أربعة وعشرون ضابطاً من خيرة الضباط. وكان يغطي نشاطه الحربي تسعمائة وأربعة وسبعون مراسلاً حربياً.

قوات الحلفاء على الجبهة الغربية:

كانت قوات الحلفاء على الجبهة الغربية تتكون مما يلي: في هولندا أو بلجيكا قوات مونتغمري، تدعمه الفرقة الثانية عشرة بقيادة برادلي، المستقرة في المنطقة الممتدة ما بين بلجيكا واللوكسامبورغ. أما الجيش الأول بقيادة هودجز فقد احتلت فالوني واخترقت الأردين، فيما كان باتون في اللورين ينتظر بفارغ صبر. أما في الجنوب فكانت قوات ديفرز الأميركية، وقوات دولاتر الفرنسية، وقوات لوكلرك التي احتلت الألزاس.

سقطت آنفر في الرابع من أيلول، وبروكسل في الخامس عشر منه. وكتب أيزنهاور إلى مونتغمري: «كن مستعداً لاحتلال الرور والسار ومنطقة فرانكفورت».

على أن هذه القوات الممتدة على مساحات شاسعة، كانت تعاني من عدة مشاكل. أولها أن الجيوش الألمانية كانت تشغلها دون هوادة، وتدمر خطوط التموين. وثانيها أن توزيع المحروقات لم يكن منتظماً ولا «عادلاً» بين قطاعات الجيوش، مما جعل بعضها تستولي على حصص بعضها الآخر. أضف إلى ذلك الاسراف الكبير في المحروقات، فكل فرقة كانت تحرق في اليوم خمسمائة طن، بينما لا يستخدم الألمان أكثر من مائتي طن. زد على ذلك اكتشاف سرقات ضخمة في المحروقات، إذ فقد أربعة عشر مليون برميل من أصل سبعة عشر.

غير أن تفوق الحلفاء، في السلاح، على ألمانيا كان كبيراً. ففي بعض الجبهات كانت نسبة المصفحات ١ إلى ٢٠. وكان الحلفاء يملكون ٨٨٠٠ طائرة، بينما لم يبق للألمان إلا الفا.

الاعداد للهجوم المضاد:

كانت حاجة الخطة إلى الرجال كبيرة، ولم تكن ألمانيا قادرة على تجنيد أكثر من بضع مئات من الآلاف، معظمهم من المتقاعدين والأحداث والموظفين، الذين طلب إليهم ترك مناصبهم الادارية للالتحاق بالجيش. حتى طواقم المدفعية أنقص عددها من سبعة عشر ألفاً إلى اثني عشر ألفاً وخمسمائة.

أواسط تموز، أمر هتلر بتجنيد ثماني عشرة فرقة، أرسلت خمس عشرة منها إلى الجبهة الشرقية. الثاني من أيلول أمر هتلر بتجنيد خمس وعشرين فرقة لترسل إلى الجبهة الغربية.

في هذا الوقت كان فون رونستد يملك تسعاً وأربعين فرقة مدفعية، وأربع عشرة لسلاح البازوكا، وأربع كتائب مدرعة، لا وزن لها بالقياس إلى ضخامة ما يملك الحلفاء.

أبلغ هتلر وزير التسلح ألبرت سبير أن يحتجز كل النتاج الحربي للجبهة الغربية. في خريف ١٩٤٤ أمر بعدم انتاج طائرات المطاردة، وتوجيه كل الجهود لانتاج المدافع المضادة.

صنعت مليون بازوكا في تشرين الثاني ١٩٤٤. وأطلق أول صاروخ ف ٢ في الثامن من أيلول. ودمرت الصواريخ آنفر وروتردام ولندن.

وسرت هذه الآونة إشاعات عن حرب غازات سامة ستبدأها ألمانيا، وسرت شائعات أخرى عن قرب استخدام ألمانيا الحرب الذرية. وأعلن غوبلز أنه سيدمر نيويورك بالصواريخ والذرة.

أخذ هتلر يشرف على وضع الخطط. كان على الجيش السادس بقيادة الجنرال سب ديتريش اختراق الجبهة الغربية، واجتياز الموز للوصول إلى آنفر، يغطي جناحه من الجنوب الجيش الخامس بقيادة فون مانتوفل. أما الجيش



دبابة النمر الملكية على الجبهة (كانون الأول ١٩٤٤)

السابع فيحمي الجيشين السابقين، ويحول دون هجوم مضاد، خاصة من الجنوب حيث باتون. أما الاحتياط فيتكون من ست فرق بازوكا، ومن ست عشرة فرقة لقاذفي القنابل.

وكان لا بد من الاستفادة من عوامل الطقس، وقد اقترح أن يكون طقساً غائماً، وأن يغمر الأرض الضباب، فالجو البارد يرهق الأميركيين. كذلك كان لا بد من اختيار منطقة الاختراق، وقد اختار هتلر الأردين، لأنها صعبة جداً ولا يخطر لأية قيادة اختيارها، فهي عبارة عن جبال حادة، تخترقها وديان عميقة ضيقة، كان هتلر اختارها عام ١٩٤٠ لاختراق الحدود الفرنسية.

وتقرر كذلك أن يجري إنزال مظليين ألمان في هذه المنطقة الصعبة، وإن كان ذلك سيعرضهم إلى خطر الموت.

لم يعرف من اختير لقيادة المظليين، البارون فون ديرهايد، عرف باختياره للقيادة في الثامن من كانون الأول، أنبأه بذلك الجنرال ستودنت.

وضع تحت إمرته الفا ومئتي مظلي، ثلاثمائة منهم مستحدثون. وكان عليه وجنوده، أن يحتلوا هوت فاني، ليشرفوا على تقاطع طرق بل كروا، وليمهدوا المكان لنزول مظليين آخرين، كونوا فريقاً متطوراً جداً، بقيادة ضابط شهير اسمه جوشن بيير.

ثبطت الاستعدادات عزيمة ديرهايد. فعدد الجنود قليل، وأرض النزول بالمظلات شبه مجهولة لديه، والأسلحة الثقيلة الضرورية غير كافية. كانت المهمة صعبة، ولم يزد إمكان نجاحها عن عشرة بالمائة. ولكن هذه النسبة كافية في نظر القائد للمخاطرة.

كانت ثمة استعدادات من نوع آخر. فقد



جنديان ألمانيان يتقدمان على طريق الأردن.

كلف أوتوسكورزيني الذي أنقذ موسوليني من معتقله في غران ساسو، بعملية سميت عملية «غريف».

طلب هتلر من قطاعات الجيش متطوعين «لمهمات خاصة» على الجبهة الغربية، شرط أن يتقن المتطوع الانكليزية.

كان الهدف من تكوين فصائل هؤلاء المتطوعين، دفعهم سراً إلى داخل خطوط القوات الاميركية، وقد ارتدوا بزات الجيش الأميركي، لارباك الأميركيين، وخلق الفوضى في الأوامر والتحركات.

وأعطى هتلر سكورزيني صلاحيات مطلقة في تدريب المتطوعين، ووضع الخطط، وتحديد زمن التحرك، كجزء من خطة الهجوم المضاد.

تطوع ألفا جندي وضابط، معظمهم يتقن الانكليزية، كأبنائها، وبعضهم يحسن اللهجات الأميركية.

زود فون رونستد سكورزيني ببعض المصفحات الأميركية من تلك التي استحوزت عليها القوات الألمانية خلال الحرب.

إذن كانت مهمة «الكوماندوس» الألماني احتلال جسور الموز لتجتازها قوات بيبر دون خسائر، وإرباك القوات الأميركية. فإذا قبض على أحدهم، كان عليه أن يسحق أنبوب الأسيد البروسي الموجود في فمه فيموت لساعته.

عامل المفاجأة:

استقبل هتلر وجودل، وستفال رئيس أركان رونستد، الرابع والعشرين من تشرين الأول، وأطلعاه على خطة الهجوم المضاد، فأسقط في يده، ولكنه لم يعترض. وحين عاد إلى الجبهة أطلع رونستد ومودل على الموضوع. كان رد فعل رونستد سيئاً، ولم يخف الثاني تشاؤمه، رغم أنه عرف بحبه المخاطرة. في اليومين التاليين، حاول رونستد ومودل وضع خطة بديلة، أو مشروع هجوم مضاد بوسائل وآليات أقل. الثاني من كانون الأول عقد اجتماع ضم مودل فون مانتوفل وسب ديتريش، وهتلر. كلف



جنود أميركيون يتقدمون في الثلج

مانتوفل أن يختصر وقت إعداد المدفعية، على نحو يستفاد معه من عنصر المفاجأة. ولم يبق إلا تحديد ساعة الصفر. وقد أُجّلت عدة مرات. الرابع من كانون الأول بدّلت الشيفرة، واتخذ للعملية اسم «ضباب الخريف». وحدد الموعد في العاشر من كانون الأول ثم أجل إلى الثالث عشر، ثم حدد نهائياً في ١٦ منه.

بدأت القوات تتمركز قرب الخطوط الأميركية. ولكنها كانت تنتقل دائماً في الليل. حتى المدافع كانت تنقل بدفعها بالأيدي. وقد عمد هتلر، رغم سرية العملية، إلى التمويه، وتضليل الأعداء. وقد أطلع بعضاً من رجالاته على شيء من الخطة.

العاشر من كانون الأول انتقل هتلر إلى قصر زيغنبرغ، مركز قيادته في الجبهة الغربية. الثاني عشر، استقبل قادة القطعات، وعددهم ثلاثون جنرالاً، استقدموا بسرية تامة. وأطلعهم على الهجوم المضاد، وألقى فيهم كلمة استمرت مدة ساعتين.

ويبدو أن القيادة الأميركية لم تطلع على شيء من نوايا الألمان. ولكن الجنرال سترونغ (رئيس المخابرات العسكرية) حصل على معلومات عامة أبلغها بيديل سميث، الذي أبلغها لبرادلي، ولكن برادلي لم يبدل شيئاً من مواقع قواته.

السادس عشر من كانون الأول، بين الساعة ٥,٣٠ و٦,١٥، فوجىء الأميركيون بقصف مدفعي مركز. وانتقلت قوات سب ديتريش إلى الهجوم. فاضطرت الفرقة المدفعية التاسعة والتسعون الأميركية إلى التراجع منذ الصباح. بعد الظهر، اخترقت فرقة البازوكا الثانية عشرة الجبهة في منطقة لوزهايم. ذهل قادة القوات الأميركية، فكان ردهم سيئاً، أو لم يقوموا بأي نشاط. وخيل لهودجز أن الأمر لا يعدو أن يكون عملية عسكرية عادية، فلم يترك مركز أركانه، الذي كان يسمع منه أصوات قنابل المدافع. واستعد جوشن بيبر مساء لدفع قواته باتجاه مركز الاختراق، ليمهد إلى تنفيذ القسم التالي من الخطة، صباح السابع عشر.



شارع في باستون بعد القصف الألماني.

واستطاع هجوم مانتوفل أن يشل ثلاث فرق مشاة أميركية، هي الفرق ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤. وبلغت فرقة البازوكا السادسة عشرة بعد المائة، سان ـــ فيت، غير مكترثة ببعض بؤر المقاومة، فقد تكفلت بها فرق القاء القنابل. وتوقع الأميركيون ظهور الألمان في لوكسامبورغ بين ساعة وأخرى.

مضت عشر ساعات قبل أن يبلغ أيزنهاور بسوء الوضع العسكري وخطورته. الساعة الثانية عشرة كانت إذاعة الحلفاء من فرساي، ماتزال تعلن أن كل شيء هادئ على الجبهة. ولم يكترث أيزنهاور كثيراً للمعلومات التي أرسلها جنرالاته من الجبهة. مساء فقط علم أن القوات تتراجع مقاتلة على الموز، وقبالة لييج، ونامور وديتان. أخذت فرقتان مصفحتان من قوات باتون وسامسون لدعم مواقف القوات الأخرى المتراجعة. وأنذرت قوات الاحتياط بالاستعداد للتحرك، من مواقعها في مورملون. والتحق برادلي على وجه السرعة بمركز القيادة في لوكسامبورغ، وكان حتى السادس عشر من كانون الأول في فرساي.

هجوم جوشن بيبر:

السابع عشر من كانون الأول، الساعة الرابعة صباحاً، أعطى بيبر أمره بالهجوم. تخطت المصفحات دون مقاومة موقع ماليدي. طوقت مدفعية أميركية، فاستسلمت. المساء بلغ بيبر ستافلو على الأمبليف.

لم يكن أحد من أركان الجيش الأميركي يعرف شيئاً عن معدات الجيش الألماني. الصباح، انطلق بيبر نحو «الجسور الثلاثة»، من وادي الأمبليف، واتجه نحو «هوي» على نهر الموز، مصطحباً فرقة البازوكا الأولى. في ستافلو دمرت قنبلة بازوكا مصفحة من نوع تيغر رويال. ولكن قوات بيبر، في المقدمة، عانت بعض الصعوبات، فقد اكتشفتها إحدى الطائرات، وانذرت المطاردات، التي راحت ترش قوات بيبر مدة ساعات ثلاث. ودمرت الجسور أمام بيبر



رشاش يحتمي بدبابة في موقع متقدم.

وخلفه. وبات نقل مصفحاته الثقيلة أمراً شبه مستحيل.

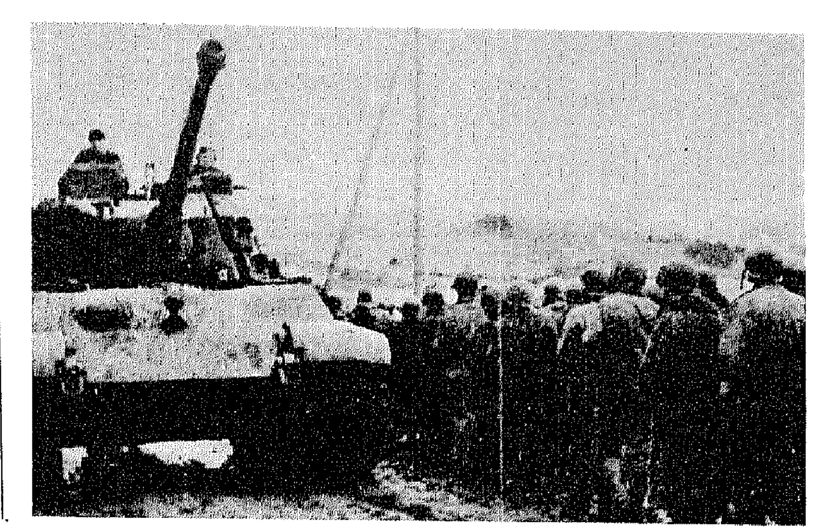
تأكد أركان قيادة هودجز أن الألمان يقومون بهجوم مضاد. وأبرق هودجز إلى القيادة بما يلي: «يستحيل تحديد الخط الذي بلغه العدو، فالجبهة شديدة الميوعة، والوضع غامض». وكانت الأوامر من «سْپا» متشابكة مضطربة، إذ لم تستطع أن تستند إلى معلومات جزئية أو خاطئة.

خلت «سپا» من سكانها، ولكن هودجز أصر على أن يبقى فيها مع مراكز الاتصالات. وتكفل سكورزيني بقطع خطوط الاتصال، فعزل هودجز عن العالم. وكانت آخر رسالة بعث بها، تقول ما يلي: «ثمة عناصر استطاعت إحداث ثغرات في الجبهة، ولكن خطوط جبهتنا لم تتزعزع». ولم يكن هودجز يعرف حتى تلك الساعة حقيقة ما حدث.

لم تكن مدينة باستوني الصغيرة في الأردين، تعلم حقيقة الخطر الذي يتهددها. وكان السكان يقومون بنشاطاتهم العادية، مختلطين بالجنود الأميركيين الذين كانوا ينعمون باجازاتهم. لم يحدث السبت، السادس عشر من كانون الأول، أي حدث غير عادي. الأحد السابع عشر، تدفق على باستوني لاجئون قادمون من كليرفو، البعيدة عشرين كيلومتراً عن باستوني. كان السباق نحو المدينة شديداً ذلك أنها ملتقى عدة طرق هامة جداً، فهي على بعد ٨٠ كيلومتراً من دينان، وأورتفيل، ومارش.

كانت مهمة الجنرال فون لوتويتز قائد الفرقة السابعة والأربعين المدرعة، أن يتقدم بفرقتي بازوكا. وإذا شكلت باستوني عقبة، كان عليه أن يتخلى عنها ويتخطاها، تاركاً لفرقة قاذفي القنابل أن يمشطوا المنطقة ويخلوها من الأميركيين. وبالتالي كان عليه أن يبلغ الموز.

ولكن أيزنهاور قرر أن يصمد الأميركيون في باستوني. فأرسل الفرقة التاسعة عشرة إليها، وأمر الجنرال ماك أوليف قائد الفرقة المظلية



دبابة النمر ويقربها قافلة من الأسرى الأميركيين.



الضابط الألماني المسؤول جوش بيير

الواحدة بعد المائة، أن ينطلق بأسرع ما يمكن إلى الأردين.

الثامن عشر من كانون الأول وصلت قوات ماك أوليف إلى باستوني، ثم وصلت فرقة المظليين. طوق الألمان باستوني. ولكن هتلر وفون رونستد ومودل، خلال اجتماعهم ليل ١٨ ـ ١٩، كانوا متشائمين من الوضع. وارتأى رونستد عدم الاستمرار في التقدم. غير أن هتلر كان يعول على كلمة سب ديتريش الأخيرة، الذي ارتأى الاستمرار، فلم يتوقف الهجوم المضاد.

الهجوم المضاد يتعثر:

استطاع الهجوم المضاد في البدء أن يقلب الأوضاع على الجبهة الغربية. ولكنه تعثر، فاضطر إلى الاعتماد على جيوب مقاومة عنيفة. وخاصة بعد نفاد الوقود، وبحثت القوات الألمانية عن مستودعات بترول أميركية. وكان واضحاً أنها إن لم تعثر عليها، توقفت كل مدرعاتها، وأصبحت عبئاً عليها.

لم يكن ممكناً الاعتماد على الجيش السابع بقيادة براندنبرغ، الذي كان يحمي مؤخرة الهجوم المضاد. وكانت مدفعيته قليلة الفاعلية بالقياس إلى مدفعية باتون الذي كان يواجهه. ولم يكن سلاح الطيران الألماني قادراً على السيطرة على السماء، وإن كانت بعض عمليات مستر شميث ٢٦٣ أربكت قوات الأعداء، وبقيت الحماسة في نفوس الألمان. ولم يستطع الطيران الأميركي التدخل بسبب الطقس الرديء.

وساءت ظروف الألمان، لفشل بعض عمليات الخطة المقررة. فمظليو فون ديرهايدت ضلوا في العاصفة. ولم يعرف الحلفاء حقيقة خطورة العملية إلا بعد أن اعتقلوا فون ديرهايدت.

لقد أنزل مظليو فون ديرهايدت فجر السابع عشر من كانون الأول. كانت الرياح تعصف بقسوة، فحملت أكثر من نصفهم في تيارها. وانتشر الباقون في غير المواقع المقصودة. وقد قضى ديرهايدت ساعات قبل أن يجمع مائة من رجاله. وقد ظل الباقون ضائعين في مرتفعات فاني، بلا ماء ولا طعام ولا نوم، يعانون البرد الشديد.

لم تكن معهم آليات ثقيلة، وأضاعوا أجهزة اللاسلكي، لذلك لم يكن ممكناً أن يكونوا كشافة لقوات بيير، لتضرب ضربتها. لذلك أمر فون ديرهايدت رجاله بالتفرق ومحاولة بلوغ الخطوط الألمانية، إفرادياً. واعتقل هو نفسه صباح ٢٢ كانون الأول.

أما سكورزيني فقد أربك نشاطه القوات الأميركية. فقد قطع خطوط الهواتف، والأسلاك، وراح يصدر الأوامر المتناقضة، فإذا القوات الأميركية تتجه خطأً إلى غير اتجاهاتها التي أمرت بها. واصطدم بعضها ببعض أحياناً، حتى دب الذعر في الجبهة كلها. ونشط رجاله الذين تزيوا بأزياء الشرطة العسكرية الأميركية والمخابرات، فالتبس الأمر على الجنود والقادة، واضطروا إلى القبض على كل شرطي عسكري أو عنصر في المخابرات، واستجوبوه ليتبينوا إن كان أميركياً أو ألمانياً.

بعض الذين قبضوا عليهم زعموا أن مهمة سكورزيني بلوغ فرساي وقتل أيزنهاور. لذلك فرضت حراسة مشددة على تنقلاته وعلى مراكز إقامته. والواقع أن سكورزيني لم يكلف أبداً بمثل هذه المهمة.

إخلاء لأراضي المحررة:

التاسع عشر من كانون الأول عقد ايزنهاور اجتماعاً في فردان، حضره برادلي، دوفير، باتون وبيديل سميث. كانت المناقشات حادة. طلب أيزنهاور من باتون أن يعزف عن الهجوم على السار، وأن يوجه الجيش الثالث لتحرير باستوني. ولم يكن ممكناً الاعتماد على الجيش التاسع الذي كان يحارب في إكس لاشابل، وكان كل ما يقوى عليه أن يصمد للهجوم المضاد. وكان الاعتماد على تدخل الجيش البريطاني بقيادة مونتغمري ضرورياً. واقترح تضييق مساحة الجبهة، في بلجيكا والألزاس والفوج. وكان لا بد عند ذلك من اخلاء بعض القطاعات المحررة. أما مسألة إخلاء ستراسبورغ فكانت شائكة، فقد احتدم الخلاف حولها، مما اضطر دوغول وتشرشل وروزفلت للتدخل. ماذا قال تشرشل لأيزنهاور قبل اجتماع الأخير بدوغول؟ لا أحد يعرف! على كل حال، صدر الأمر إلى القائد الفرنسي دولاتر بالدفاع عن ستراسبورغ.

ولكن معركة الاردين كانت قد انتهت.

كان الألمان قد حطموا الفرقتين ٤٢٢ و٤٢٣، فقتل فيهما من قتل واستسلم الباقون. وكان الوضع في باستوني حرجاً جداً. في الشمال، كان بيبر ما يزال يحاول إختراق الجبهة، واستطاعت قوات البازوكا اجتياز سالم وامبليف، ووجدت نفسها أخيراً في مواجهة الفرقة الثانية والثمانين المظلية، التي كان لها دور كبير في احتلال النورماندي.

غير أن أيزنهاور كانت تزعجه هذه الجبهة. وشعر أن برادلي غير مؤهل، بوسائله غير الكافية، للسيطرة على الموقف. لذلك طلب منه ليل التاسع عشر من كانون الأول، أن يلحق بعض وحداته بقوات مونتغمري، الذي اتجه نحو الاختراق الألماني في الجناح الشمالي. وقد أزعج ذلك الضباط الأميركيين الذين خيل إليهم أن أيزنهاور «يدلل» البريطانيين. وأصبح مونتغمري في نظر باتون الوحش الأسود.

العشرين من كانون الأول دخل مونتغمري على هودجز في مركز قيادته، وأهانه، وطلب منه سحب بعض قواته من المنطقة، ولكن هودجز رفض.

عندئذ لغم مونتغمري الجسور على الموز، ودعم قوات الدفاع عنها.

اليوم ذاته احتل سب ديتريش سان ــ فيث، ولكن بعد خمسة أيام من الوقت المحدد في الخطة. أما بيبر الذي كان متقدماً، فلم يبق لديه إلا ثمانمائة جندي، ونفدت المحروقات من آلياته، فأحرقها. وأمر جنوده أن يلتحقوا إفرادياً بأية قوات ألمانية متواجدة في المنطقة.

استمر القتال بوحشية ليلة الميلاد واليوم التالي، حول ما نهي، وغراند منيل. وقام ديتريش بآخر هجوم، ولكن الهجوم كان غير ذي أثر.

الثاني والعشرين من كانون الأول أرسل الجنرال هاينز كوكوت الذي كان يحاصر باستوني يفاوض ماك أوليف على الاستسلام، ولكن ماك أوليف رفض. فاستؤنف القتال بضراوة، وأصبح موقف المحاصرين حرجاً.

فجر الثالث والعشرين، كانت السماء صافية، مما ساعد ٢٤١ طائرة شحن على إنزال المؤن والذخائر للمحاصرين.

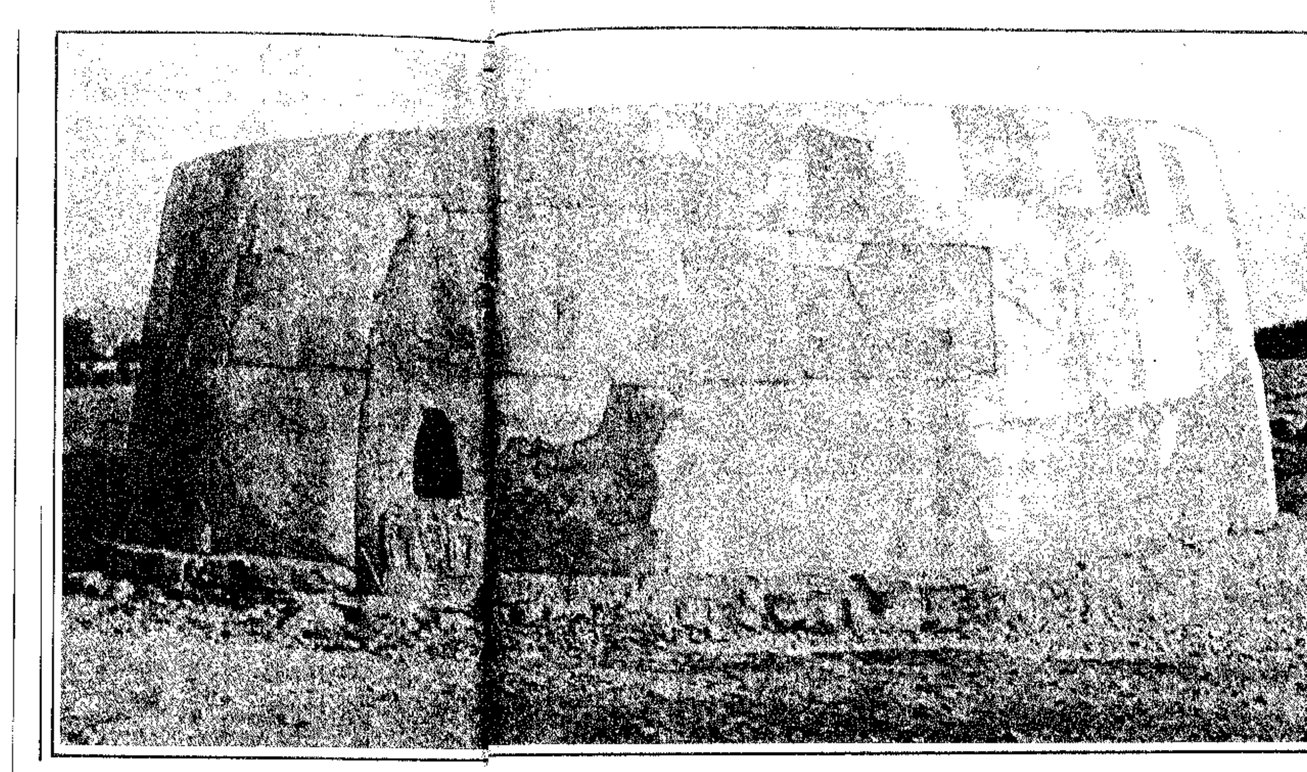
الرابع والعشرين كانت الطائرات القاذفة ترسل حممها على القوات الألمانية، فأوقعت فيها إصابات مباشرة.

السادس والعشرين دخلت الفرقة المصفحة الرابعة باستوني. وتقدمت قوات باتون. ونفدت محروقات المصفحات الألمانية. وبدأ تراجع القوات الألمانية.

في هذا الوقت كان غوردريان قائد الجبهة الشرقية ينبىء هتلر، أن قوات روسية هائلة تهاجم بعنف. وقد رد عليه هتلر بقوله: «إن الهجوم الروسي أكبر وصمة في التاريخ منذ جنكيزخان».

الخامس عشر من كانون الثاني، عاد من بقي من الجيوش الألمانية إلى مواقعه قبل الهجوم المضاد.

■



المدافن الحجرية في هيلي

الإمارات العربية المتحدة

إعداد قسم التوثيق والأبحاث

المدفن (A) المنقب خلال الموسم ١٩٧٢/ ١٩٧٣

يقع هذا المدفن في القسم الشرقي من قرية هيلي على بعد عشرة كيلومترات شمال مدينة العين. وعلى الجانب الشرقي من هذا المدفن تمتد من الشمال إلى الجنوب سلسلة جبال عمان حيث تمثل فاصلا جغرافيا بين أبوظبي وعمان. وتنتشر على مرتفعات ومنحدرات هذه الجبال قبور عديدة تعود إلى عصور ما قبل التاريخ أما سهل هيلي فيتمثل في كثبان رملية ممتدة من هذه السلسلة حتى الغرب وتنتشر فيه الأشواك والنباتات الطبيعية.

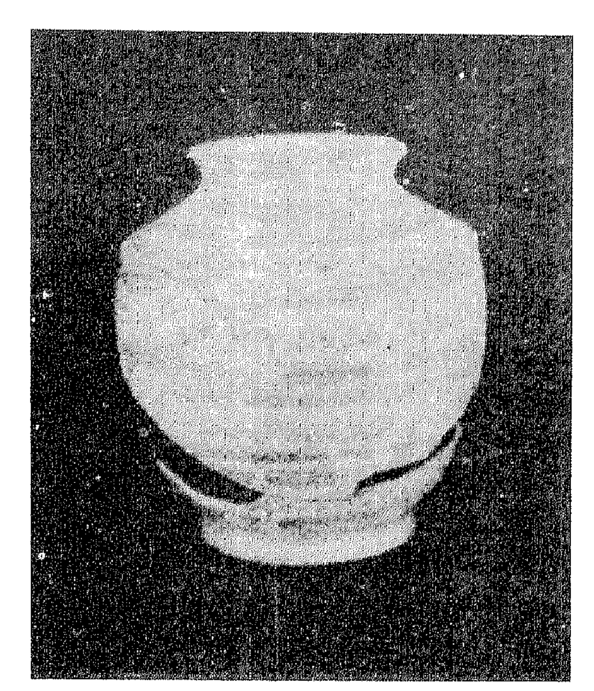
لقد كشفت التنقيبات في قبر هيلي الكبير على آثار مهمة لكنها بنفس الوقت أثارت بعض المشاكل الاثارية ومنها هل أن قبر الهيلي الذي اعتيد على تسميته بهذا الاسم يمثل قبراً أو معبداً؟ ولغرض الاجابة على هذا السؤال كان لا بد من اختيار بعض المدافن الأخرى من ضمنها هذا المدفن لايجاد الحلول لمثل هذه المشاكل.

لقد اختير هذا المدفن بعد أن درست ملتقطاته السطحية المتضمنة فخاريات عادية وملونة ومحززة ورمادية الشكل وكذلك قطعا صغيرة من الأحجار الصابونية الملساء (نستيتايت) تعود جميعا إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وقد اتخذ بعين الاعتبار في التنقيبات الجديدة غرضين أساسيين أولهما لتقرير فيما إذا كان البناء الكبير في هيلي يمثل مدفنا أو معبدا وثانيهما الحصول على مواد أثرية أخرى للاستفادة منها في الدراسة.

فتح في هذا المدفن خندق بمساحة ١٠ × ١٠ قدم عثر فيه على ثلاث أحجار رملية منقورة بشكل هندسي إحداها بحجم ٦٠ × ٤٠ سم وهكذا وبعد التعمق في الحفريات كشف عن جدار شبه مستدير ذو خمسة مداميك بارتفاع متر واحد. وكشف كذلك عن جدار دائري بقطر ٧,١٠ سم. أما فيما يخص التقسيمات الداخلية فقد كشف عن جدارين متوازيين شمال، جنوب الأول بطول ٥ م. يقسم القبر إلى قسمين غير متساويين وعلى بعد ١,٧٥ م من هذا الجدار يمتد الجدار الثاني وهو بطول ٥,٥ م. ونتيجة لهذه الجدران تتشكل حجرة دفن مستطيلة قسمت إلى قسمين متساويين بواسطة جدار غير سميك شرق — غرب، حيث يبلغ معدل قياس الأحجار المستعملة في بنائه ١٨ × ٢٥ × ٣٠ سم وقد استعمل الطين الغير ممزوج بأية مادة أخرى كمادة للربط وهي بسمك ٢ سم. ويبلغ سمك الجدران الداخلية ٥٠ — ٦٥ سم وترتفع مسافة متر واحد ولقد أقيمت الجدران على أسس من الأحجار الصغيرة وخصوصا الجدران الداخلية والجدار المستدير الداخلي. أما أرضية حجرة الدفن فقد كشف على عمق متر واحد عن أجزاء صالحة منها. وقد عثر داخل المدفن على عدد من الأحجار المسطحة وهي دليل واضح على استعمالها في التسقيف ولا نعلم فيما إذا كان المدفن مسقوفا بأكمله أو أن أجزاء منه تركت مكشوفة.

طريقة البناء:

يشير تشييد هذا المدفن اهتماما كبيرا وهو يختلف كليا عن مدفن هيلي الكبير. وهناك احتمال بأن هذا المدفن كان قد خطط على الأرض قبل بنائه، ثم حفرت الأرض إلى العمق المطلوب فأصبح بشكل حفرة دائرية حيث أقيم من الداخل جدار دائري بني من الأحجار غير



جرة من الفخار الرمادي ملونة بأشكال حيوانية وهندسية (٢٧٠٠ ــ ٢٥٠٠ ق.م).

المنحوتة، أقيمت باتجاه داخلي لخلق شكل جميل. وبعد ذلك قسم المدفن داخليا بإقامة جدارين متوازيين شمال ــ جنوب وفي الأقسام العليا من المدفن وضعت الأحجار المنحوتة ذات القياس ٦٠ × ٧٠ سم للدلالة على القبر. وبعد الانتهاء من عملية الدفن كان القبر يغطى بتراب الحفريات وتبقى الأحجار العليا ظاهرة للعيان لغرض تمييزه

وتجدر الاشارة بأن هذا النوع من القبور معروف في عصور ما قبل التاريخ في تمركزا في غرب الباكستان، وبالرغم من وجود اختلاف في الشكل والحجم فإن طريقة البناء واحدة.

لقد كان من الصعوبة الحصول على تسلسل طبقي صحيح نتيجة للتلف الذي أصاب المدفن ولامتلاء تقسيماته الداخلية بالحجارة والرمال، وبالرغم من ذلك فقد لوحظ وجود الطبقات التالية:

الطبقة الأولى: طبقة رملية تحتوي على قطع من الفخار الأحمر.

الطبقة الثانية: طبقة خفيفة من الرماد مخلوطة بالحجارة، وأحجار رملية... وقد عثر فيها على جدران حجرية. كمية الفخار المكتشفة هنا قليلة لكنها ذات أهمية كبيرة لأنها كافية لاطلاعنا على مستوى الثروة والحضارة العالية التي تميز بها سكان هذه المنطقة.

الطبقة الثالثة: طبقة صلبة ومتماسكة من التراب البني مخلوط بقطع صغيرة من الحصى وتحتوي على كمية قليلة من الفخار.

وتجدر الاشارة بأنه لم يعثر على هياكل عظمية كاملة في هذا المدفن حيث لم يعثر سوى على كسر من العظام البشرية لوحظت على السطح وقد عثر على كمية قليلة منها ضمن الطبقة العليا.

لماذا مدفن؟

يشير حجم ونوعية هذا البناء إلى كونه مدفنا استعمل لدفن الموتى، ومن الأدلة الاثارية على صحة قولنا هذا هو الشكل والتقسيمات الداخلية والتي هي عبارة عن غرف مستطيلة صغيرة لا يمكن الاستفادة منها إلا في أغراض الدفن. إضافة إلى العثور على بقايا عظمية على السطح وفي المدفن. والشيء الذي يجعلنا نستبعد القول بكونه معبدا هو عدم العثور على مواد طقوسية.

إن سبب عدم العثور على عظام كافية في غرف الدفن يرجع إلى كون التربة غالبا ما تتلف العظام بسرعة وقد يكون سببها أن البناء ربما يمثل مدفنا رمزيا لأحد الرؤساء حيث زود بمواد الدفن فقط ودفنت الجثة في مكان آخر.

الفخار:

عثر على كمية قليلة من الفخار في هذا المدفن، ورغم قلة الفخار المكتشف إلا أنه ذو أهمية كبيرة حيث زودنا بمعلومات مهمة. ومن الجدير ذكره ليس هناك اختلاف في الفخاريات المكتشفة في الطبقة الأولى وحتى الطبقة الثالثة فالأشكال والزخارف والصناعة واحدة في جميع هذه الطبقات. وهذا يشير إلى وجود حضارة واحدة لم تتخللها فجوة زمنية. صنعت أغلب الفخاريات المكتشفة بطريقة العجلة وبلونين الرمادي والأحمر بعضها يتميز بالأشكال الهندسية المصبوغة أو المحززة. وقد عثر على كمية قليلة من الفخار ذات طلاء أحمر وخطوط متموجة وعمودية وأفقية وأشكال أخرى

صبغت باللون الاسود وهي مشابهة لفخاريات ام النار. إن أهم الفخاريات المكتشفة تلك التي تحمل لونا أحمر فاتح دون أية زخارف.

وقد عثر على جرة كروية واحدة ذات حافة تتسع إلى الخارج وعنق عال وقاعدة مسطحة (من نوعية ام النار) زخرفت باللون الأسود على خلفية حمراء بأشكال هندسية. كما وعثر على جرة أخرى ذات فوهة مفتوحة من نفس الصناعة السابقة لكنها بدون زخارف وهي شبيهة بجرار ام النار أيضا.

الفخار الرمادي:

رغم قلة هذا النوع من الفخار إلا أنه ذو أهمية كبيرة في كونه يلقي ضوء على مدى انتشاره. إن الفخار الرمادي ذو الزخارف المحززة والذي يعكس لنا الصلات الواضحة مع المحزز من موقع بامبور في عيلام وسومر، له أهمية كبيرة في الدراسات المقارنة، وقد عثر على بعض أنواع هذا الفخار في المدفن. من هذه المكتشفات جرة كاملة ذات حافة مشطوفة نحو الخارج وبعض المقابض الخالية من الزخارف. وعثر كذلك على بعض الفخاريات. تحمل نوعا من التزجيج الحاصل بسبب الحرق ومن المحتمل أن يعود مثل هذه الفخاريات المزججة إلى دور متأخر. ومن القطع المهمة قطعة تحمل زخرفة معمارية بشكل مدخل. وهي سائدة في موقع بامبور في جنوب شرق إيران الطبقة ٥ ــ ٦.

المكتشفات الصغيرة:

تشمل مجموعة من خرز العقيق يتراوح عددها نحو ٢٠ خرزة أغلبها ذات أشكال برميلية وقرصية ومن المكتشفات الأخرى بعض الحلقات أو الأقراط البرونزية التالفة.

الأوعية الحجرية

عثر على مجموعة كبيرة من هذه الأوعية وهي إما ذات خطوط محززة أو بعض الدوائر المتداخلة نلاحظ حول الحافة والوسط والقاعدة. إن هذا النوع من الأوعية مشابه لتلك المكتشفة في قبر الهيلي الكبير وفي موقع بامبور. ومن الأنواع المكتشفة نوع يمثل أقداحا مفتوحة، تظهر حول أعناقها صفين من الدوائر المتداخلة وهي تعكس مدى انتشار هذا النوع من الأواني الحجرية في جنوب الجزيرة العربية. ويشير وجود الأواني الحجرية المشابهة لأواني موقع بامبور إلى تأثيرات حضارية واسعة مع الموقع المذكور حيث كان للطرق التجارية الفضل في هذه التأثيرات. ويصعب في الوقت الحاضرعلينا إعطاء تاريخ محدد لهذا المدفن لكون المواد المكتشفة غير كافية. وبصورة عامة نستطيع القول بأن المواد المكتشفة في هذا المدفن رغم قلتها شبيهة بتلك المكتشفة في بامبور وكلي في بلوجستان وام النار. واستنادا إلى ذلك يمكن أن يكون منتصف الألف الثالث قبل الميلاد الفترة الزمنية المعقولة لاثار مدفن هيلي.

المدفن (B) في هيلي:

يقع المدفن (B) على بعد (٢٠٠) يارد شرق المدفن (A) وقد بدأت عمليات التنقيب في هذا المدفن في كانون الثاني عام ١٩٧٢ واستمرت لمدة خمسة أشهر. لقد كشفت لنا التنقيبات عن مخلفات أثرية تعكس التشابه القائم بين هذه الحضارة والحضارات الأخرى الممتدة عبر الخليج.

التنقيب:

المدفن دائري الشكل قطره عشرة أمتار جداره الخارجي مبني من أحجار منحوتة حيث سويت وجوهها الخارجية وصقلت جيدا، ويبلغ قياس الحجرة الواحدة ٦٠ سم × ٨٠ سم، ٦٠ × ١٠٠ سم. والمدفن مشابه للمدفن (A) إذ تتلخص طريقة بناء هذه المدافن بواسطة تخطيط دائرة منتظمة بالقطر المطلوب في المكان المراد تشييده ومن ثم يبدأ بوضع حجارة أول صف من الأسفل وهكذا. ومن ثم يقسم المدفن داخليا حسب المطلوب بواسطة عمل جدران متقاطعة وغالبا ما تستعمل الأحجار الكبيرة غير المصقولة في بناء الأسس أما حجرات الدفن في المدفن (B) فقد شيدت عن طريق تقاطع الجدران المبنية من الأحجار الخشنة وهي أكثر وضوحا من التقسيم ذاته في المدفن (A)



إحدى مراحل العمل في المدفن (B) في هيلي.

فالمدفن (B) قسم إلى أربعة أقسام رئيسية وكل قسم منها قسم إلى قسمين آخرين بواسطة جدران متجهة شمال ــ جنوب عدا جدار واحد متجه شرق ــ غرب.

طرق الدفن:

لم يعثر خلال التنقيبات على هياكل عظمية كاملة كما لم يعثر على بقايا لجثث محروقة. إن أغلب العظام مفقودة وفي أغلب حجرات الدفن عثر على بقايا عظمية تعود لأكثر من هيكل واحد. ولا نعرف فيما إذا كان الميت يوضع في العراء قبل دفنه ثم ينقل إلى المدفن فيما بعد، أو كان يدفن في القبر مباشرة دون أن يوضع في العراء. لقد وجدت العظام مبعثرة ومهشمة ما عدا العظام التي اكتشفت في اللحدين٤ ــ ٥ حيث حدثت إعادة في الدفن وربما كنست بقايا بعض الهياكل العظمية جانبا ليحل محلها هيكل آخر كما هو الحال في اللحود ١ ــ ٧، إن وجود طبقات خفيفة من التراب الناعم بسمك ٢ ــ ٣ بوصة يدل على حدوث تكرار في الدفن في نفس الفترة الزمنية.

الفخاريات المكتشفة داخل حجرات الدفن:

يعتبر الفخار من أهم المكتشفات الأثرية في مدافن هيلي وهو يختلف من مدفن لآخر وبصورة عامة يمكن تقسيمه إلى قسمين رئيسيين:

١ ــ الفخار الأحمر.

٢ ــ الفخار الرمادي.

أما الفخار الأحمر فيقسم إلى قسمين، وذلك استنادا إلى الصناعة وطريقة العمل والطلاء.

(أ) فخار مصنوع من طينة مصفاة خالية من بقايا النباتات وقد استعملت العجلة البطيئة في صناعته. طليت أواني هذا النوع بطلاء أحمر شاحب وزينت جدرانه بزخارف هندسية مختلفة. إن أهم آثار هذا النوع هي جرار كروية ذات فوهات مفتوحة وعريضة وقواعد مسطحة.

(ب) فخار مصنوع من طينة مصفاة جيدا خالية من دقائق الرمل، ذو جدران رقيقة ربما صنعت بواسطة العجلة السريعة. السطوح الخارجية ملساء ذات لون أحمر غامق أو فاتح

وقد زينت بأشكال هندسية باللون الأسود. أهم أشكال هذه المجموعة هي جرار كروية ذات رقاب طويلة وقواعد قرصية مثقوبة أحيانا، وهذه المجموعة تشابه مجموعة ام النار.

أما الفخار الرمادي فذو صناعة واحدة طينته مصفاة محروقة بشدة. قسم قليل من هذا الفخار يرينا بأن النار حرقت جدرانه بشدة وبقي اللب معرضا لدرجة حرارة أخف. أما السطوح الخارجية فزينت بأشكال هندسية وحيوانية. وقد استعمل اللون الأسود في ذلك. وفي بعض الحالات استعملت الحزوز بدلا من الألوان. لقد استعملت الجرار الكبيرة من هذا النوع للخزن أما الجرار الصغيرة فذات حافات مائلة إلى الخارج وهي دقيقة الصنع.

الأوعية الحجرية:

إن أهم المكتشفات الأثرية المميزة للمدفن (B) هي الأوعية المعمولة من الأحجار الصابونية الملساء (الستيتايت) والأحجار الرمادية. لقد زينت جميع هذه الأوعية بدوائر محززة متداخلة. وهي ذات علاقة وشبه كبير بأخواتها المكتشفة من قبل البعثة الدانماركية في القبر الكبير. إن أهم الأوعية المكتشفة من قبل البعثة الدانماركية في قبر الهيلي الكبير هي تلك المقسمة من الداخل (Compartmented)، وهذا النوع من الأواني كان معروفا في بلوجستان ووادي السند في العصر الحجري المعدني، وكذلك في بلاد فارس ووادي الرافدين.

أما الأواني الحجرية المحززة التي كشفت في هذا المدفن فلها أهمية كبيرة كذلك. فهناك ما يوازيها من موقع كلي في بلوجستان وبامبور جنوب شرق إيران وشاهي تمب في وادي السند ومقبرة خراب ورمرود في مقاطعة سيستان. ولم يقتصر الأمر على الأواني الحجرية فقط بل أن الفخار المكتشف في ام النار وفي هيلي ذو شبه كبير بالفخاريات المكتشفة في بامبور.

المكتشفات الصغيرة:

إلى جانب الفخار والأوعية الحجرية المكتشفة في المدفن (B) عثر على مكتشفات صغيرة وهي عبارة عن خواتم ودبابيس ودلايات حجرية وخرز من العقيق والعظم والصدف وخرز من الفضة عثر عليها على سطح المدفن. إن خرز العقيق هي من أكثر المواد المكتشفة، وقد وجدت جميعا في غرف الدفن مع البقايا العظمية.



البوابة الشمالية لقبر هيلي الكبير

الخلاصة:

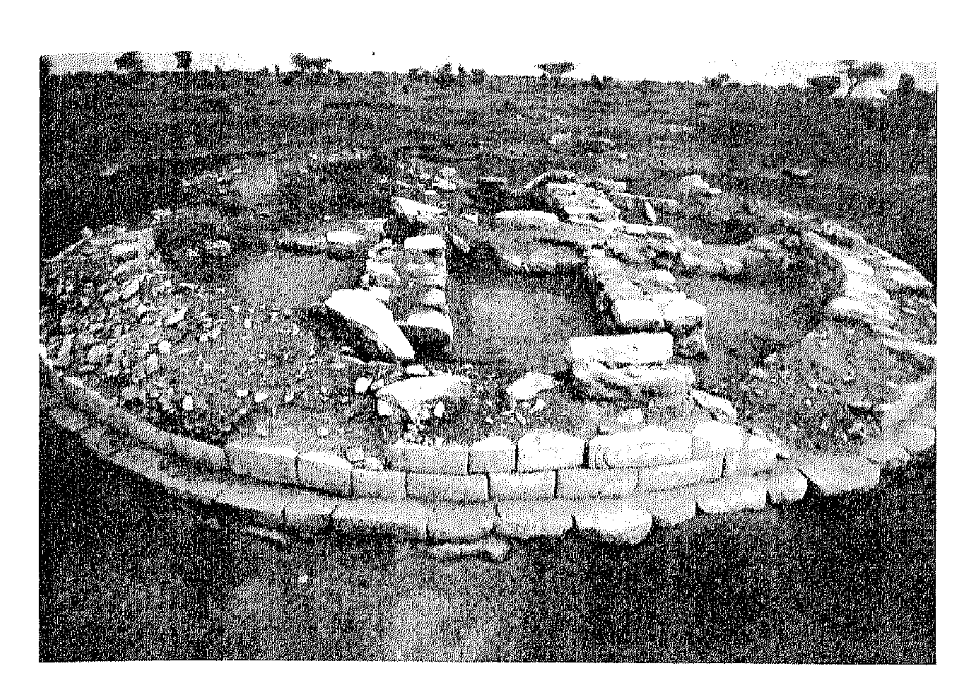
من هم السكان الذين استوطنوا في هذه المنطقة؟

من أين أتوا؟

هل هم سكان محليون أو مهاجرون قدموا من مكان آخر؟

ما هي عاداتهم، تقاليدهم، طرق دفنهم؟

رغم أن هذه الأسئلة بقيت دون أجوبة مقنعة إلا أن التنقيبات في المدفن (B) والمدافن الأخرى، أوضحت أن هؤلاء السكان لهم حضارة عالية ولم يكونوا بمنأى عن حضارتي وادي الرافدين وبلاد السند، وخير دليل على ذلك ما وجد من فخاريات رمادية ملونة وأواني حجرية. إذ أن أواني الحجر المقسمة إلى عدة أقسام (Compartmented) معروفة في بلوجستان ووادي السند، كما ويشير وجود مثل



المدفن (C) في هيلي.

هذه المكتشفات إلى أن هذه المنطقة كانت تمثل على الأغلب محطة تجارية متصلة برا بمراسي القوافل البحرية القادمة من هذين البلدين وغالبا ما كانت التجارة البحرية تتأثر بهبوب الرياح الموسمية مما يضطر التجار إلى نقل بضائعهم عن طريق نهر دشت في بلوجستان إلى وادي الرافدين حيث يتم تبادل الذهب واللازورد بالأدوات الفخارية الحجرية المستحدثة. ومن الجدير ذكره بأن التجارة بين بلوجستان ووادي الرافدين قد نشطت في حدود ٢٨٠٠ قبل الميلاد. وقد اكتشفت في وادي الرافدين بعض القطع الأثرية أصلها من وادي السند وبالعكس. ولا غريب أن تتأثر منطقة الخليج بشكل مباشر أو غير مباشر بهذه التجارة حيث أن اكتشاف الأواني الحجرية بيّن الصلة بين الشرق والغرب من كلي إلى حدود سوريا.

المدفن (C) :

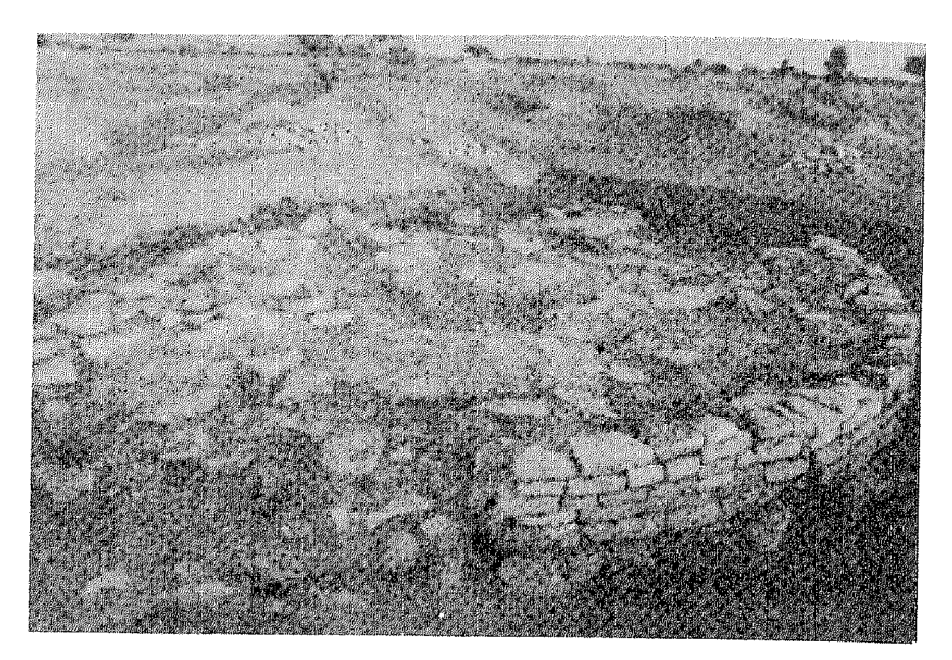
يقع إلى الغرب من المدفن (B) على بعد ١٧,٥ متر عنه، وهو دائري الشكل قطره ٨,٧٠ متر، لم يبق من جداره الدائر البالغ سمكه ٨٠ ــ ٨٥ سم سوى صفين من الأحجار المنحوتة، ترتكز على قاعدة حجرية تبرز مقدار ١٨ سم. أما قياسات الأحجار المنحوتة المستعملة في تركيب الجدار الدائري فتبلغ ٤٤ × ١٩ سم، ٢٢ × ١٧ سم.

قسم هذا المدفن بواسطة جدار قاطع سمكه ٧٠ سم (شرق ــ غرب) إلى قسمين رئيسيين (شمالي وجنوبي) ويقطع هذا الجدار من جهتين متقابلتين جداران متوازيان (جنوب ــ شمال) وبذلك يقسم كل نصف إلى ٣ أقسام. أما الجداران المتوازيان، فلا يتصلان بالجدار المدور من الداخل ليكون هناك ممر محيطي يصل بين هذه الأقسام التي استعملت لدفن الموتى حيث وجدت عظامهم مهشمة دون أن يعثر على هياكل عظمية كاملة وقد زود هؤلاء الموتى بهدايا القبور المعروفة . أما المداخل الخارجية فلم يعثر على بقاياها.

المدافن (D):

مدفن دائري الشكل يقع إلى الشمال الشرقي من المدفن (B) وقد تعرض إلى تخريب كبير حيث أزيل النصف الجنوبي منه تماما ولم يبق سوى بعض الأحجار المسطحة التي تغطي الأرضية. وفي النصف الشمالي منه يوجد بقايا للجدار الدائري بعرض ٧٠ سم ويتكون من صف واحد من الأحجار المنحوتة، وهي بأحجام مختلفة أكبرها ٦٩ × ١٩ سم وأصغرها ٢٨ × ١٨ سم. هذا ولم يعرف شيء من التقسيمات الداخلية لشدة تعرضها إلى التخريب.

أما مكتشفاته فهي خرزات قليلة من العقيق



المدفن (F) في هيلي.

الأحمر بأشكال متنوعة وكذلك كسر لأواني حجرية مزينة بدوائر محززة متداخلة إضافة إلى إبرتين نحاسيتين طول ٣,٢ بوصه.

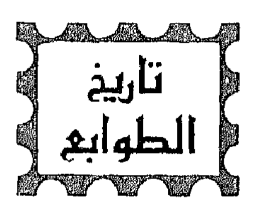
المدفنان (G ــ F):

يقعان شمال المدفن (B) على بعد ٢٠٠ متر تقريبا وهما دائريان ومتجاوران لا يفصل بينهما سوى ٩٠ سم استعملت الأحجار المهندمة في بنائهما ولكن بأحجام أقل بكثير من تلك المستعملة في المدافن الأخرى وهي بقياس ٣٠ ــ ٤٠ سم طولا و ١٠ سم سمكا. وقد تعرض كلاهما لاعمال السرقة والتخريب التي حدثت في أزمان قديمة حيث لم يبق من أسسهما سوى القليل جدا. أما مكتشفاتهما فقليلة جدا إذ لم يعثر بداخلهما سوى على خرزتين من العظم وكمية قليلة من الفخار السميك إضافة إلى بعض الدبابيس البرونزية وقطع صغيرة أخرى من البرونز.

والمدفن (F) مدور قطره ٦,٦٠ متر مبني بأحجار منحوتة بنفس القياسات المذكورة أعلاه. لم يبق من جداره الخارجي البالغ عرضه ١١٥ ــ ١٢٠ سم سوى النصف وبارتفاع خمسة صفوف فقط وذلك لتعرضه للتخريب الذي أصاب التقسيمات الداخلية كذلك. وكل ما يمكن معرفته عن هذه التقسيمات هو كشف بقايا جدار سمكه ٩٠ سم يتجه من الشرق إلى الغرب وربما كان يقسم المدفن إلى قسمين متساويين. أما أرضية المدفن فكانت ممهدة بمساطب حجرية.

أما المدفن (G) فهو دائري كذلك قطره ٦,٤٠ متر وهو مشابه للمدفن السابق ومجاور له في جهة الشمال تعرض جداره الخارجي الذي يبلغ عرضه ١,١٠ متر وتقسيماته الداخلية إلى تخريب كبير حيث لم يبق من أسسه الخارجية سوى أربعة صفوف من الأحجار طول ٣٠ ــ ٤٠ سم وسمك ١٠ ــ ١٢ سم، وكل ما يمكن تمييزه من التقسيمات الداخلية هو الجزء الأسفل من جدار وسطي عرضه ٩٠ سم يتجه من الشرق إلى الغرب ويقسم المدفن إلى قسمين على غرار المدفن (F) أما بقية التقسيمات فلا يعرف عنها شيئا في حين أن الأرضية ممهدة بالمساطب الحجرية. أما الانقاض التي تملأ هذا المدفن فقد أمكن تمييز ثلاث طبقات فيها. العليا وسمكها ٨ بوصات وتتكون من شظايا الأحجار الصغيرة والوسطى وتتكون من تربة بنية ممزوجة بالحطام والسفلى تتألف من أحجار صغيرة صفراء مندمجة بالتربة.

■



ميشال اسطفان

مُسَابَقَةُ الطَّوَابِعْ

نادي هواة جمع الطوابع يرحب بكل هاوٍ منتسب إلى النادي، في مطلع هذا العام الجديد للاشتراك في مسابقة الطوابع رقم ١.

شروط المسابقة:

١ ــ على المشترك أن يرسل الأجوبة عن الأسئلة المدرجة أدناه، في أقرب فرصة، وألا تتعدى ٢٨ شباط/فبراير/١٩٨٢.

٢ ــ تكتب الأجوبة على القسيمة المصورة أدناه وترسل إلى المجلة باسم النادي.

ثلاثة جوائز من طوابع ذات قيمة، تُعطى مجانا لأول ثلاثة فائزين في هذه المسابقة:

حضرة السيد ميشال اسطفان
تحية وبعد، إن الأجوبة لمسابقة الطوابع رقم ١ هي:

١ ــ ....

٢ ــ ....

٣ ــ ....

٤ ــ ....

٦ ــ ....

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

الاسم

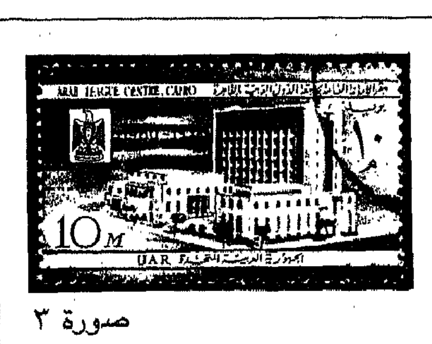
أما الأسئلة فهي:

١ ــ ما هي البلدان العربية التي أصدرت مجموعة اتحاد البريد العربي لسنة ١٩٥٤؟ صورة ١.
٢ ــ ما هو عدد طوابع المجموعة لكل من هذه البلدان.
٣ ــ ما هي البلدان العربية التي أصدرت مجموعة مجزرة ديرياسين؟ صورة ٢.
٤ ــ ما هو عدد طوابع المجموعة لكل من هذه البلدان.
٥ ــ ما هي البلدان العربية التي أصدرت طابعاً يحمل صورة مقر الجامعة العربية في مصر؟ صورة ٣.
٦ ــ ما هو الخطأ الذي ظهر في هذا الاصدار؟



صورة ١

صورة ٢



صورة ٣

نُرحب بأية ملاحظات من قبل القراء والهواة عن هذه المسابقة، وتشجيعا للهواة نطلب أن يبعثوا إلينا باقتراحاتهم عن أية نشاطات أخرى لديهم، تساعد على تنشيط حركة النادي وتقدمه.

وبهذه المناسبة، تقدم الهاوي رقم ٤ السيد وليد الرفاعي باقتراح مفيد ألا وهو أن نعبيء دفاتر صغيرة بالطوابع العربية المختلفة، جديدة ومستعملة، ونسعرها افراديا ونرسلها في البريد لمن يريد أن يشترك في انتقاء حاجته منها، على غرار النوادي العالمية بشروط معروفة. وهذه الطريقة تسمى «إرسالية برسم القبول» وشروطها كما يلي:

١ ــ يوضب النادي دفاتر مختلفة بالأصناف التي يجمعها كل هاوٍ.

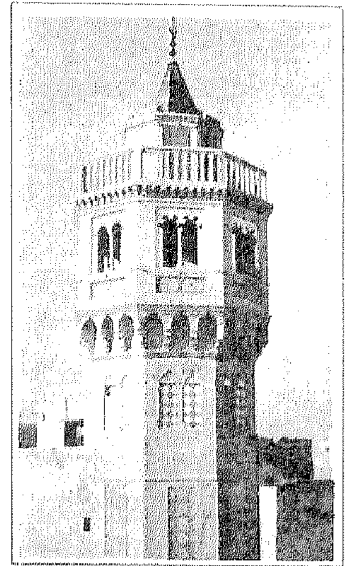
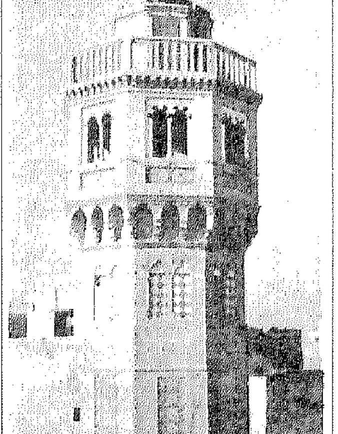
٢ ــ يودع الهاوي المشترك على سبيل الضمان لدى النادي مبلغا لايتجاوز ٢٥ دولارا عن كل دفتر يطلبه.

٣ ــ يرسل النادي لمن يطلب، نماذج اشتراك بهذا المعنى، ليعبئها ويرسلها مع قيمة الايداع.

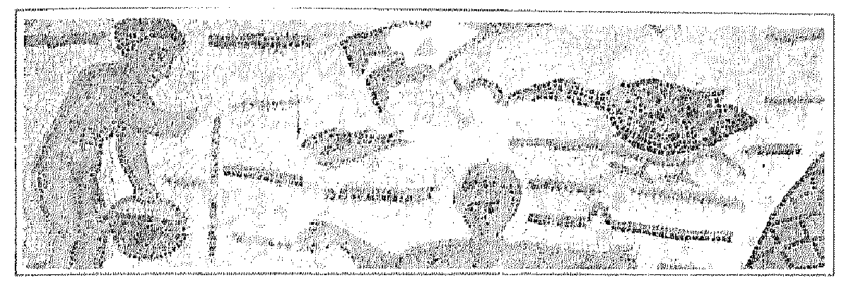
٤ ــ بعد استلام الدفتر الواحد أو أكثر، ينتقي حاجته ويرجعه مع قيمة الطوابع التي يكون قد سحبها من الدفتر، حتى تبقى قيمة الضمان كما هي، إذا رغب مواصلة هذه العملية.

نشكر السيد الرفاعي على اقتراحه هذا، ونضعه أمام الهواة منتظرين رأيهم حتى نباشر بهذا النشاط الجديد حالا. ■

بنزرت
في عصور ما قبل التاريخ

جامع بنزرت



لوحة فسيفساء تمثل صيادين على شاطىء بنزرت

إن كل من يتأمل ويتفحص كتب التاريخ، التي تتحدث عن المدن، يلاحظ أن بطولات وصناعات وعباقرة تصمد باقية على مر الزمن.

بنزرت الخالدة: إن مدينة بنزرت كانت محط الأنظار والأطماع للدول التي كانت تريد السيطرة على البحر الأبيض المتوسط: إبتداء من الفينيقيين في الماضي البعيد إلى الفرنسيين في الماضي القريب...

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن مدينة بنزرت التي تشغل موقع المدينة الفينيقية لم يعرف منها إلّا القليل في عصر ما قبل التاريخ... وكل ما هنالك أنها مدينة تجارية عريقة أسسها الفينيقيون[1]. بين القرن التاسع والسابع قبل الميلاد، بعد ما قدموا إلى تونس في القرن الثاني عشر قبل الميلاد وبعدما أسسوا (قرطاجنة) و (أوتيكا).

هيبوزارنيس أو هيبوبارينوس: قبل أن يطلق عليها اسم بنزرت كان يطلق عليها باللاتينية (هيبوزارنيس) أو (هيبوبارينوس) أي مدينة السوق الواقعة عبر القنال، ويذكر المؤرخون أن العرب هم الذين أطلقوا عليها اسم (بنزرت) أبان فتحها على يد القائد العربي معاوية بن حديج في عام (٤١ هـ ٦١٩م). هذا وقد اختلف بعض المؤرخين في إطلاق هذا الاسم من قبل العرب الفاتحين فمنهم من يرى أن اسم بنزرت مشتق من إسم أميرة فاتنة الجمال تدعى (بنت زرت) سميت على اسمها نسبة لموقعها الجميل. ومنهم من يقول إن هذا الاسم تحريف من الاسم الفينيقي التي عرفت به فيما مضى. وقسم آخر يذكر أن أصل تسميتها يعود إلى اسم عشيرة كانت تسمى، بني زرته.

... وعلى كل شاءت الأقدار أن تعرف هذه المدينة في كل أنواع الحضارات سواء في العهد القرطجني عام (١٠٠٠ قبل الميلاد ـــ ١٤٦ قبل الميلاد). أو في العهد الروماني (١٤٦ ـــ إلى ٤٣٩ قبل الميلاد) أو في العهد البيزنطي (٥٣٤م إلى ٦٤٢م). حتى العهد العربي الذي ابتدأ من عام (٤١ هـــ ٦٤٩ م).

بنزرت والحضارات السامية: لم يمض عهد من هذه العهود إلا ونشرت حضارات في بانزرت: الفينيقيون نشروا بها التجارة والصناعة والصناعات التقليدية، والرومان نشروا بها فنون الهندسة والعمارة والزراعة. والبيزنطيون نشروا بها فنون الموسيقى والنقش. والعرب نشرو بها الدين الإسلامي الحنيف ولغة القرآن المجيد.

بنزرت والحروب البونيقية قبل الميلاد:

تعرضت بنزرت لكثير من المحن والغارات أثناء الحروب البونيقية التي امتدت من عام (٢٦٤ إلى عام ١٤٦ قبل الميلاد) ويقول بعض من المؤرخين أن الرومان استولوا على بنزرت واستفادوا منها ومن شاطئها الهادىء لتزويد روما بالمؤن، والخمور، والثمار، والمواد الغذائية، كما بنوا فيها عدة منشآت لا يزال بعضها ظاهراً إلى الان مثل: حنايا جبل الناظورة، وحنايا وادي الداموس، والجدران المساندة لنوافذها.

هذا وقد أمكن لبنزرت أن تعيش حقبة طويلة في استقرار وهدوء. كما كانت محط أنظار التجار والنبلاء من سائر أطراف الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف... وبعد هذه الفترة الطويلة من الرخاء والاستقرار، تستقبل (بنزرت) عهدا أسود من التخريب والدمار في ذلك العهد عهد الوندال الذي دام (٩٥ سنة من عام ٤٣٩ إلى عام ٥٣٥ م). حيث هاجمها واحتلها جنسريق، زعيم الوندال في ١٩ أكتوبر من عام ٤٣٩م. فهدم المحتلون أسوارها، كما جعل منها مركزا وقاعدة حربية كبرى في البحر الأبيض المتوسط، وعاث فيها الفساد، وانتقم من أهلها الوطنيين، الذين دافعوا عن المدينة دفاع الأبطال[٢].

العهد البيزنطي:

احتلها البيزنطيون القادمون من القسطنطينية بقيادة بيليزار ، الذي جاء بجيشه برادس في ٢٢ سبتمبر عام (٥٣٤ م)، وبعدما استولى هذا القائد على (قرطاجنة) اتجه نحو الشمال التونسي فحرر بنزرت وقد أعاد إليها الحياة الطبيعية، وبنى الونداليون فيها أبراجا عظيمة، كما بنوا السور المحيط بها، واستغلوها في نشاطهم التجاري، وخيم الهدوء والاستقرار على المدينة، وعادت الحياة الطبيعية إليها من جديد، وعاود المواطنون أعمالهم التجارية والصناعية والزراعية، ونشر الأمن والاطمئنان والسلام بين ربوعها وسكانها.

بنزرت في الفتح الإسلامي:

لقد فتحها العرب على يد معاوية بن حديج في عام (٤١هـ ــ ٦٤٩م) إلا أنه لم يتم فتحها نهائيا إلا على يد القائد الشهير حسان بن النعمان الغساني في عام (٦٩٨م) حين صارت بنزرت منذ ذلك العهد عربية مسلمة، وقد اهتم بها الأغالبة اهتماما بالغا في عام (٨٠٠ ــ ٩٠٨م) فبنوا شاطئها القديم، وأسواقها ومساجدها، كما بنوا قصبة الكرة البحرية سطوة. وقد ذكرها ابن حوقل في القرن الثالث الهجري. ثم جاء الفاطميون وبنو حولها عدة مدن كبيرة مثل: أنبولة، والنخلات الثلاث... وروى الادريسي أن بنزرت نشطت بها الحركة التجارية بعد ما قاست من الحوادث والحروب والفتن والغارات التي حلت بها، والتي من أجلها خربت تونس، وكان عام (١١٤٨م) الذي عانت فيه تونس أشد قسوة تعرضت لها.

الغزو الهلالي، وغزو بني سليم:

وهنا تعرضت بنزرت للغزو الهلالي، وغزو بني سليم ورياح، وقد حكمها في هذه الفترة بنو الورد اللخميون وذلك عام (٤٠٤ ــ ٥٥٥هـ)[٣].

ثم خضعت لحكم عبد المؤمن بن علي من عام (١١٦٠م) ومن بعده ليحيى بن غانية المرابطي وذلك فيما بين عامي (١٢٠٢ ــ ١٢٠٤م)، ثم حكمها الحفصيين.

بنزرت تحت حكم الحفصيين:

جاء الحفصيون إلى البلاد ووضعوا يدهم بيد شارل ملك الاسبان، ولم يتخلف ملك الاسبان شارل، عن مد يد المساعدة للحسن الحفصي

الذي استنجد به عام (٩٤٣هـ ١٥٣٥م) إذ جهز جيشا قوامه من (٤٠) سفينة حربية، وكانت حمولة هذه السفن ما يقارب ٢٥٠٠ جندي مدججين بالسلاح الكامل الذي استولوا به على تونس في عام (١٥٣٥م) وبعدما نصب الحسن الحفصي نفسه على عرش البلاد بمساعدة شارل، ملك الاسبان[٤]، مقابل منحه امتيازات كبيرة أعطاها للأسبان، كما احتل الأسبان عدة مدن وكان منها بنزرت.

هذا وقد هدم الاسبان كل القلاع الموجودة بالمدينة، وكان القصد منها معاقبتها على مقاومتها العنيفة له . هذا وقد انتهى حكم الاسبان وتم الجلاء عام (١٥٧٢م)

لكن الاسبانيين كانوا قد تركوا في بنزرت حامية إسبانية نظراً لأهميتها الاستراتيجية وقد بنت هذه الحامية قلعة حصينة بحي (القصبة) تعرف بـ (القلعة الاسبانية) وهي ما زالت إلى هذا التاريخ[٥]. وقد ظلت الأحوال راكدة ركود الماء حتى تحررت (بنزرت) من ظلم الاسبان لها، ثم أخذت المدينة تستعيد قواها ونشاطها من جديد فكونت لنفسها أسطولا يجوب البحار، ويفرض سلطانه من جديد، وقد قهر الأسطول البيزنطي أسطولا من جنوه يقدر جنوده بعشرين ألف بحار وكان هذا في عام (١٥٧٥م).

بنزرت في العصر التركي:

في العصر التركي من عام (١٥٧٣ ــ ١٧٠٥) اهتم يوسف داي المرادي اهتماما كبيرا ببنزرت فأجرى إليها المياه، واحيي شواطئها، وجدد مساجدها وأصلح أسوارها. وشهدت بنزرت عدة حملات للقرصنة في العصر التركي في بحرها، وخاصة منها الحملة الفرنسية الايطالية التي قادها كبير أساقفة ساليرنو.

بنزرت في القرن السابع عشر للميلاد:

في أواخر القرن السابع عشر للميلاد بدأت الأنظار تتجه إلى هذه القاعدة الاستراتيجية الهامة وعلى الأخص من قبل ملوك فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، وكان كل واحد منهم يفكر ببلع هذه المدينة والاستيلاء عليها حتى يخلو له البحر ويجد فيه الجميع مرتعا خاصا وسهلا لهم ولممتلكاتهم. واشتد الضغط العسكري البحري على بنزرت حتى قبل الداي بالتوقيع على المعاهدة المفروضة التي حملها المرشال ــ إسترى ــ وتحول بها لمرسيليا وكان ذلك في شهر سبتمبر من عام (١٦٨٥م).

التمثيل الدبلوماسي في بنزرت:

في بداية عام (١٦٨٥م)وقعت اتفاقية دبلوماسية بين الحكومة الفرنسية وبنزرت على أن يكون لفرنسا قنصلا عاما ببنزرت... وهكذا ازدادت المطامع الاستعمارية متجهة نحو البلاد وتتحين الفرص لتحقيق الأهداف التوسيعية، وفي عام (١٧٠٥م) استلم حسين ابن علي وأطلق على نفسه لقب ــ الباي ــ حيث تربع على عرش تونس وانفرد بالحكم لنفسه وجعل الملك وراثيا وحقا للعائلة الحسينية، ابتداء من حسين بن علي.

... ومرت الأيام والسنون واشتد إهمال (البايات) لأمر الدولة فوقع (علي الباي) في ١٤ مارس (١٧٦٣م) اتفاقية مع شركة فرنسية تدعى (الشركة الملكية لافريقيا) وبمقتضاها صار للشركة الحق في إقامة مصرف لها ببنزرت لصيد المرجان، وإعطاء الحرية لعمالها الأوروبيين من مباشرة طقوسهم الدينية في بيوتهم مع الحفظ والأمن لحياتهم وأرواحهم.

وبعد بضعة شهور من التوقيع على هذه الاتفاقية قذفت القوات البرية الفرنسية مدينة بنزرت بالقنابل والمدفعية البحرية بحجة تهديد (الباي) ومعاقبة بلاده لأنه لا يريد أن يعترف بانضمام جزيرة (كورسيكا) إلى فرنسا. ثم عاودوا قصفها في القرن الثامن عشر وقد تخرب وتهدم من جراء هذا القذف ميناء (بنزرت) وبعض من أحيائها.

الانذار الفرنسي لباي تونس:

أرسل الأميرال الفرنسي عند وصوله إلى تونس إنذارا إلى والي المدينة وهو محمد بن حسن صهر الباي حينذاك، يعلمه فيه بأنه يجب

تسليم المدينة في ظرف ساعتين فقط، وإلا المدينة كلها ستدمر، ولم يجد حاكم المدينة ـ أمام ضعف نظام البايات ـ إلا أن يستجيب لأمر السلطة المغيرة المهددة، ويأمر لهم بالنزول فنزلوا ببنزرت وهم في مأمن من أية مقاومة

وهكذا تم ما اراده الاستعمار الفرنسي حيث نزل كل من الجنرال (بيار) وجنوده في الساعة حوالي السادسة من صباح غرة مايو (١٨٨م) وكان الأسطول الحربي المؤلف من السفن الحربية الفرنسية التالية: (لاقاليسونيار) ويقودها (كونراد) و (لاسور فايانت) ويقودها (ليوبارد) و (الأمة) ويقودها الكومندان (ميو)، ومن المدرعات المدرعتين الحربيتين (ليوبارد) و (الأميرة البيضاء).

هذا ونزل الأميرال بجنوده متعهدا باحترام السكان وعدم الأضرار بالأرواح والممتلكات.

وفي صباح ٢ مايو من عام (١٨٨١م) نزل فوج آخر من الجنود، أما بقية الأفواج فقد نزلت بعتادها الحربي إلى أرض بنزرت في اليوم الثالث، وانتشر الجنود الفرنسيون كالجراد المنتشر في المدينة وعلى شواطئها ورفعوا أعلام الاحتلال فوق حي القصبة، وفوق ـ القلعة الاسبانية ـ والقصيبة... ومن ذلك التاريخ سلمت بنزرت وحصونها الأربعة التي كانت تحرس المدينة إلى القوات الفرنسية القادمة من البحر.

التحسينات التي قدمها المستعمر الفرنسي:

في عام (١٨٩٨) أظهرت فرنسا اهتمامها ورغبتها في أن تدخل على البحيرة تحسينات تسمح بايواء البوارج الكبيرة، وكلفت لجنة خاصة بضبط مصاريف هذه الأشغال التي قدرت نفقاتها بـ ٨٦٠٠٠٠ فرنك، وبدأت عمل لجنة التوسيع والاصلاح لهذه القاعدة وتحصين مينائها.

هذا ما جاء في الكتاب الفرنسي الذي عنوانه (الجيش الرسمي في البلاد التونسية) والذي نشر باللغة الفرنسية في سنوات الاحتلال الأولى...

وبفضل هذه التحسينات أصبحت بنزرت، قاعدة بحرية حيوية صالحة لصد الهجمات وضد السلاح الذري.

ونظرا لأهمية هذه المدينة، ولما يمتاز بها مينائها العظيم[٦].

احتلت (بنزرت) من طرف قوات المحور عام (١٩٤٢) وقد استرجعها الحلفاء عام (١٩٤٣) بعدما تهدم ودمر منها حوالي سبعون بالمئة من مبانيها.

الخلاصة

لقد لعبت هذه المدينة دورا هاما في تاريخ الحركة الوطنية، وقد اشتهر أبناؤها بالشجاعة والاقدام والبطولات والفداء...

ولعل من أبرز المعارك التي عاشتها بنزرت هي معركة الجلاء الأخيرة التي اندلعت في عام (١٩٦١) حيث تعرضت هذه المدينة إلى أبشع الصور الوحشية من الاستعمار، وقد سجل أبناؤها صفحات طويلة خالدة في هذه المعركة وكل المعارك التي خاضها الشعب البنزرتي البواسل ضد الاستعمار الغاشم على أرضه وبلده، وقد زاد فخرا في تقديم أبنائه الشهداء الواحد تلو الواحد على مذبح الحرية والكرامة في تخليد هذه المدينة الظافرة على ممر العصور والتاريخ.

محمد الفاكياني

دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

المصادر

نزهة المشتاق في اختراق الافاق، محمد الادريسي.
تاريخ الدولتين، للزركشي.
صفوة الاعتبار ج٣، محمد بيرم الخامس التونسي.
المشروع الملكي، محمد الصغير بن يوسف الباجي.
دائرة المعارف الاسلامية، مادة تونس.
غزوات عروج وخير الدين، تحقيق نور الدين بن عبد القادر طبع الجزائر.
تونس وفرنسا، عبد المجيد المطوي طبع تونس.
تونس عبر التاريخ، لأحمد بن عامر طبع تونس.

الهوامش

(١) الفينيقيون من أصل سامي كنعاني موطنهم الأصلي لبنان وقسم من سورية، أسسوا (قرطاجنة) عام (٨٨٠ قبل الميلاد)، حيث اشترت الأميرة: (جونو) بأموالها ارضا من الملك البربري، (إرباس) وأسمتها باسمها كرت جونو) ثم حرفت هذه التسمية فصارت: (قرطاجنة) ويذكر بعض المؤرخين أن الفنيقيين عرفوا الشمال الافريقي منذ عام (١٥٠٠ م).

(٢) الوندال من السلالة السلافية، انتشروا في ألمانيا ثم انحدروا إلى إسبانيا وخاصة في المناطق الجنوبية منها: نواحي غرناطة عام (٤٠٩) وسميت الجبهة باسمهم ـ فاندالوسيا ـ ثم حرفوها العرب بعد الفتح وصارت تسمى الأندلس. أما العرب فقد قطعوا جبل طارق واحتلوا المغرب ثم الجزائر ثم تونس.

(٣) أسس أبو الرجاء الورد اللخمي دولته بنزرت في عام (٤٠٤هـ ـ ٥٥٥هـ).

(٤) شارلكان ملك إسبانيا تولى الملك في عام (١٥١٦م) إلى عام (١٥٥٨م) وكانت سلطته تشمل: إسبانيا والنمسا، وإيطاليا، وهولاندا، وألمانيا وأميركا كلها، زحف على تونس ودخلها عام (١٥٥٣م) وأمر بنهب امدينة ومن أبشع ما ارتكبه جيشه وأعوانه أنه بدد كل ما وجد كن مخطوطات وكتب ونحوها، والتي كانت تحويها (المكتبة العبدلية) بعد هجومه على جامع الزيتونة العظيم، وبعدما نصب الحسن الحفصي على كرسي الحفصيين اشترك مع الاسبان في أمور الدولة مع إحدى قوات جيشه، ثم قبل مبارحة شارلكان العاصمة، وقد وقع معاهدة مع شارلمان بتاريخ وعام (٩٤٢هـ) التزم له الحسن فيها بالترخيص للاسبان في السكنى في كامل تراب البلاد، وبالتنازل عن بعض المدن ومنها (بنزرت).

(٥) جول فيري أحد رجال الدولة الفرنسية البارزين، وكان من أنصار التوسع الاستعماري، وهو الذي ثبت دعائم الحكم الفرنسي في كل من تونس، وتونكان، والكونغوا.

(٦) ابتدأت فكرة حفر الميناء منذ شهر مارس من عام (١٨٨٣م) وبدأ العمال بالحفر في عام (١٨٨٥م)، وفي عام (١٨٩١) وضع المقيم الفرنسي (ماسكو) الحجر الأساس لبناء المدينة الحديثة، وانتهت الأشغال من بناء (بنزرت) في عام (١٨٩٥).



ـ لا يوجد شخص أكثر إثارة من الشخص الذي يملك قدراً أقل من الذكاء وحساً أكثر مما لدينا.

(دون هيرالد)

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

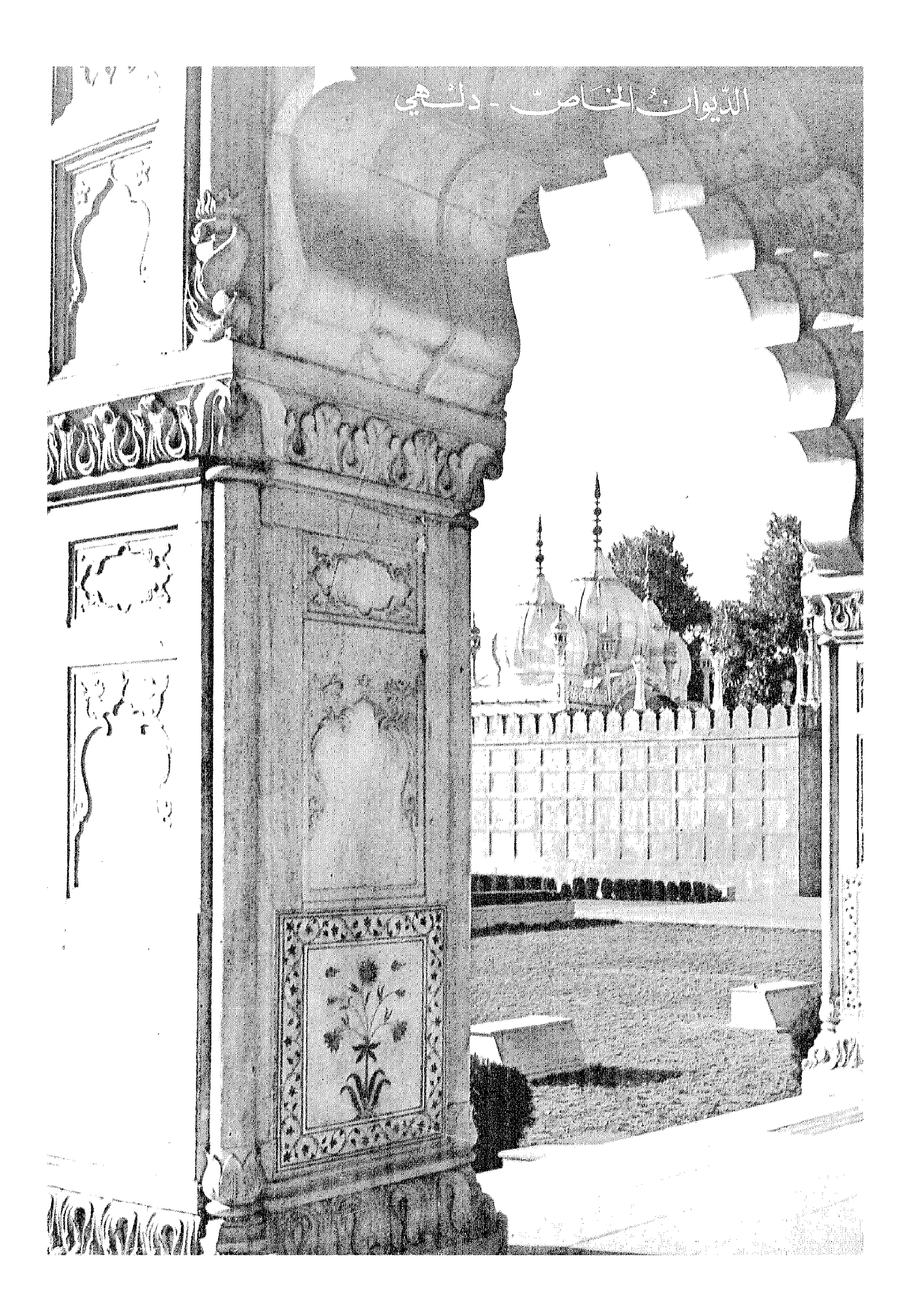


الاشتراكات

- للأفراد في لبنان .... ٧٥ ل.ل.
- للأفراد في الوطن العربي .... ١٠٠ ل.ل.
- للأفراد في دول العالم الأخرى ...... ١٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في لبنان .... ٢٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية: في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية: خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار أو ما يعادلها

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣



الدّيوانُ الخاصّ - دلهي